

مقررات دبلومات معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم وتدبره

الجزء الأول

الدبلوم - الدبلوم العالي



١٤٣٩ - ١٤٤٠ هـ





تفسير القرآن الكريم وتدبره

الجزء الأول

الدبلوم – الدبلوم العالي

١٤٣٩-١٤٤٠هـ



مشروع بناء مناهج معاهد إعداد

معلمي القرآن الكريم

إحدى مبادرات

مركز معاهد للاستشارات التربوية

والتعليمية



برعاية



مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية

بيت خبرة في تأسيس المعاهد القرآنية وتطويرها

الرياض - الدائري الشرقي - بين مخرجي ١٣، ١٤،

هاتف: ٠١١٤٥٥٤٠٤٩

فاكس تحويلية: ١٠٩ - ص.ب: ٢٢٦٤٦٥ الرياض ١١٣٢٢

info@m3ahed.net

www.m3ahed.net

٣ مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية

تفسير القرآن الكريم وتدبره - الجزء الأول. / مركز معاهد

للاستشارات التربوية والتعليمية. ط٢- الرياض، ١٤٣٩ هـ

٢٩٩ ص ٢١ × ٢٥.٥ سم

ردمك: ٥-٢٩-٨٢٢٥-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن. مباحث عامة - أ.العنوان

ديوي ٢٢٩ ٩١٣٧ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٩١٣٧ / ١٤٣٩

ردمك: ٥-٢٩-٨٢٢٥-٦٠٣-٩٧٨

تم إعداد المادة العلمية

ومراجعتها بواسطة

فريق من المتخصصين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد:

تشهد حلقات ومدارس تحفيظ القرآن الكريم الخيرية للبنين والبنات بالمملكة العربية السعودية - بحمد الله - إقبالاً متزايداً، حيث بلغت أكثر من (٥٨,٠٠٠) حلقة، يدرّس فيها ما يزيد عن (١,٠٠٠,٠٠٠) طالب وطالبة، ويعمل فيها أكثر من (٦٤,٠٠٠) معلم ومعلمة وإداري وإدارية. في ضوء ذلك جاءت الحاجة ماسّة للعناية بالمعلمين والمعلمات، بوصفهم أبرز عناصر التأثير في العملية التعليمية؛ لذا تم افتتاح أكثر من (١٢٠) معهداً لإعداد معلمي ومعلمات القرآن الكريم في المملكة حتى نهاية عام (١٤٣٧هـ)، مما أحدث نقلةً في عمل الحلقات والمدارس القرآنية. ونظراً لأهمية هذه المعاهد؛ فقد اعتنى القائمون عليها بأبرز عناصر العملية التعليمية فيها وهو (المنهج)، حيث بُنيت مناهج متعددة تم تطبيقها في هذه المعاهد، ويتراوح تاريخ هذه المناهج بين (١٣-٢٠) عاماً تقريباً، ساعدت بفضل الله تعالى في تخريج معلمين ومعلمات ساهموا في تعليم القرآن الكريم في هذه الحلقات والمدارس القرآنية.

وتمثّل (المنهج) بمفهومه الواسع جميع الخبرات التي تُقدّم للدارسين؛ ليكتسبونها تحت إشرافها بُغية تحقيق أهداف التعلّم المرغوبة، وهو جَوْهَرُ عملية التعلّم؛ لِمَا يحتوي عليه من القيم والمهارات والمعارف المرغوبة. ونظراً لما يُمثله من أهمية، فبدهيّ أن يكون هو المحور الرّئيس الذي تدور حوله العمليات التطويرية للتعلّم.

ولأهمية تطوير مناهج إعداد المعلمين في هذه المعاهد، حيث تُشير الاتجاهات الحديثة في تطوير المناهج إلى أن دورة هذا التطوير تكون في المتوسط بين (٣-٥) سنوات؛ فقد جاءت الحاجة ماسّة إلى بناء مناهج لمعاهد معلمي القرآن الكريم؛ مُواكبة لأبرز الاتجاهات التربوية الحديثة، والخبرات العالمية

المعاصرة في هذا الاتجاه.

وكان لـ "مركز معاهد للاستشارات التربوية والتعليمية" بالرياض، بوصفه بيئاً خيرةً في تأسيس المعاهد القرآنية وتطويرها، مبادرة مباركة - بإذن الله - تستهدف أبرز عناصر العمل التربوي والتعليمي في مجال تعليم القرآن الكريم وهو المعلم؛ من خلال طرح مشروع "بناء مناهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم"، برعاية من "أوقاف نورة بنت عبدالرحمن الراجحي - رحمها الله تعالى -"؛ بغرض تخريج مُعلمين ومُعلمات ذوي كفاءة علمية وتربوية؛ لتعليم القرآن الكريم، ويستهدفُ التطبيق - بإذن الله - المعاهد القرآنية (الرَّجَالِيَّةُ وَالنِّسَائِيَّةُ)، وما في حكمها؛ من مشاريع وبرامج ومبادرات داخل المملكة وخارجها.

ويتضمن مشروع "بناء مناهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم" ثماني مراحل هي كما يلي:

١. دراسة واقع المناهج القائمة، وتقييمها.
 ٢. التخطيط للمشروع.
 ٣. تشكيل الفرق الفنية والإدارية للمشروع.
 ٤. بناء وثيقة المنهج لـ "دبلومات إعداد معلمي القرآن الكريم".
 ٥. إعداد المقررات التعليمية.
 ٦. التطبيق الأوَّلي للمقررات التعليمية المُصاحبة.
 ٧. تعميم المقررات التعليمية.
 ٨. المتابعة والتقييم المستمران للمقررات التعليمية.
- وتكلَّلت جهود النِّصف الأول من المشروع - بفضل الله تعالى - ببناء "وثيقة منهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم"، حيث احتوت على برنامجين أكاديميين هما:
١. دبلوم إعداد معلمي القرآن الكريم.
 ٢. الدبلوم العالي لإعداد معلمي القرآن الكريم.
- وقد بُنيت هذه الوثيقة وفق الطريقة العلمية لصناعة المنهج، ولها أهمية كُبرى بوصفها الخطوط

العريضة لتطوير عمليات التعلّم في المعاهد وجميع العناصر المؤثرة في ذلك، إضافة إلى بناء المقررات التعليمية المُصاحبة لها، حيث راعت المواصفات العلمية والفنية المعتبرة في بناء المناهج التعليمية، إضافة إلى تحقيقها مطالب "الإطار الوطني للمؤهلات للتعليم العالي في المملكة" الصادر عن الهيئة الوطنية للتقويم والاعتماد الأكاديمي، وأيضًا تحقيقها مطالب "وثيقة المعايير الأكاديمية لمحتوى دبلومات معلم القرآن والقراءات" في مؤسسات التعليم العالي الصادرة عن نفس الهيئة.

ويأتي مقرر (تفسير القرآن الكريم وتدبره بجزأه الأول والثاني) الذي بين أيدينا، بوصفه أحد المقررات التعليمية في الدبلومين المُشار إليهما، حيث تم إعداده في ضوء "وثيقة منهج معاهد إعداد معلمي القرآن الكريم" المعتمدة؛ ويُعنى هذا المقرر بتزويد الدّارس بمعرفة مصادر التفسير وكيفية التعامل معها، وأصول علم التفسير، بالإضافة إلى تفسير تحليلي لآيات من سورة الأعراف وسورة الكهف، وتفسير سورة النور كاملة، كما يُزوّد الدارس بمقدمات التدبّر العلمية اللازمة لتنمية مهارة التدبّر لديه، ويتدرب على ذلك من خلال تدبّر الجزء التاسع والعشرين والجزء الثلاثين.

نسأل الله تعالى أن يُبارك بالجهود ويُحقّق الأمل المنشود، وأن يشكر سعي كلّ من شارك في المشروع، وبخاصة راعيه "أوقاف نورة بنت عبدالرحمن الراجحي - رحمها الله تعالى -".
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

والله الموفق

إدارة المشروع

* * *

المحتويات

الصفحة	الموضوع	
١٣	مقدمة المقرر	
١٥	الأهداف العامة والوحدات الرئيسية	
٩٤ - ١٧	الوحدة الأولى : مفاهيم أساسية تتعلق بأصول التفسير	محتويات الجزء الأول
١٢٣ - ٩٥	الوحدة الثانية : مفاهيم أساسية تتعلق بالمفسر	
٢٩٨ - ١٢٣	الوحدة الثالثة : التفسير التحليلي وتطبيقات عليه	
٣٩٢ - ٣١١	الوحدة الرابعة : أولاً : القسم النظري : مفهوم التدبر والمفاهيم المرتبطة به	محتويات الجزء الثاني
٦٧٩ - ٣٩٣	ثانياً : القسم التطبيقي : مدارس سورة الفاتحة وسور جزء عم	
٦٨١	المراجع والمصادر	

مقدمة المقرر



الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله الولي الأكرم،
وأشهد أن محمدًا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

وبعد: فعلمُ التفسير من أشرف العلوم مقدارًا وأرفعها شرفًا ومنارًا، لتعلّقه بأعظم الكتب
وأجلّها، ولهذا العلم قواعده وأصوله وآدابه، وللمفسّرين منهاج شتى وطرائق متنوعة، كلّها تحدّم في فهم
وبيان معاني كلام ربّنا القدّوس السّلام، وإثراء العلوم وجلاء الأفهام؛ لذا كان من الأهمية لطالب العلم
دراسة تاريخ التفسير وأصوله وقواعده، والوقوف على أنواعه وأقسامه، ومعرفة اتجاهات المفسّرين.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع فسّر في
موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسّنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو
عبدالله محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - : "كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من
القرآن". قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ

الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ [النحل: ٦٤]؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا
إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(١) يعني: السُّنَّة.

ومن هذا المنطلق كان هذا المقرر الدرّاسي الذي يُعنى بالتأصيل والتنظير، إلى جانب التطبيق،
من خلال تفسيرٍ تحليليّ لسورة النور، وجزء من سورة الكهف، يُراعَى فيه بيان المناسبات، وذكر
أسباب النزول - إن وُجدت - وبيان اختلاف القراءات، وذكر مُشكّل الإعراب ودَقَائِقَه،
واستخلاص اللطائف البلاغية، مع تفسيرٍ عامٍّ مُجملٍ للآيات، وبيانٍ لِمَا يُستفاد منها ويُستنبط.

وفي هذا المقرر أيضًا حديث عن التدبُّر معناه وأهميته، وأصوله وآدابه، مع دراسة عمليّة لتدبُّر
بعض الآيات والسُّور.

والله نسأل أن يُوفِّقنا وطلابنا لِمَا يُحِبُّ ويرضى.

* * *

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: (١٣١/٤)، وأبو داود في السُّنن: (ح ٤٦٠٤)، من حديث المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه.

الأهداف العامة للمقرر:

١. يشرح الدَّارِسُ أبرز المفاهيم الأساسية المتعلقة بأصول التفسير.
٢. يشرح الدَّارِسُ أبرز المفاهيم الأساسية المتعلقة بالمفسِّر.
٣. يُطَبِّقُ الدَّارِسُ أسلوب التفسير التحليلي لسور: (الأعراف، والكهف، والنور) من خلال أبرز كتب التفسير المشهورة.
٤. يُناقِشُ الدَّارِسُ مفهوم التدبُّر، والمفاهيم المرتبطة به.
٥. يُبدي الدَّارِسُ اهتمامًا بتدبُّر القرآن وفق المنهجية الصحيحة للتدبُّر.

الوحدات الرئيسة للمقرر:

- الوحدة الأولى: مفاهيم أساسية تتعلق بأصول التفسير.
- الوحدة الثانية: مفاهيم أساسية تتعلق بالمفسِّر.
- الوحدة الثالثة: التفسير التحليلي، وتطبيقات عليه.
- الوحدة الرابعة: مفهوم التدبُّر والمفاهيم المرتبطة به.

عدد المحاضرات:

- الدبلوم: (٩٦) محاضرة.
- الدبلوم العالي: (٤٨) محاضرة.

الوحدۃ الأولى



مفاهيم أساسية تتعلق بأصول التفسير

أهداف الوحدة:

- يُتوقع من الدارس بعد إتمامه هذه الوحدة أن:
- (١) يشرح مفهوم التفسير لغةً واصطلاحًا.
 - (٢) يوضح فائدة أصول التفسير.
 - (٣) يوضح فضل علم التفسير.
 - (٤) يُفَرِّقُ بين التفسير والتأويل.
 - (٥) يشرح مفهوم أصول التفسير.
 - (٦) يُناقش نشأة التفسير، ومراحل تطوره.
 - (٧) يُناقش طرق التفسير.
 - (٨) يُفَرِّقُ بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.
 - (٩) يوضح أبرز المؤلفات في كُلِّ طريقٍ من طُرُق التفسير.

مفردات الوحدة:

- الموضوع الأول: التعريف بالتفسير، وبيان مكانته وفضله.
- الموضوع الثاني: نشأة التفسير، ومراحل تطوره.
- الموضوع الثالث: طُرُق التفسير.
- الموضوع الرابع: مناهج المفسرين.

عدد المحاضرات:

- الدبلوم: (٢٤) محاضرة.
- الدبلوم العالي: (١٢) محاضرة.

تمهيد:

التفسيرُ من أجلِّ علوم الشريعة، وأرفعها قدرًا، وهو أشرف العلوم موضوعًا وهدفًا وحاجةً إليه؛ لأنَّ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو يُنبوع كلِّ حكمة، ومعدن كلِّ فضيلة؛ ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية، وإنما اشتدت الحاجة إليه؛ لأن كلَّ كمال ديني أو دنيوي لا بدَّ وأن يكون موافقًا للشرع، وموافقته على العلم بكتاب الله^(١)؛ ولهذا عظم الله محله بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قيل: هو تفسير القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، قال المفسِّرون: أي علم معانيه، والعمل بها^(٢).

* * *

(١) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن: (١٧٥/٢).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٣٤/١).

الموضوع الأول التعريف بالتفسير وبيان مكانته وفضله



تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح:

التفسير في اللغة:

فَسَّرَ: الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيء وإيضاحه^(١)، وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: أحسن تفصيلاً، والفَسْرُ كشف المُعْطَى، والتَّفْسِيرُ كشف المُراد عن اللفظ المُشكَل^(٢).

وقال الرَّاعِب - رحمه الله - : "الفَسْرُ والسَّفْرُ: يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جُعِلَ الفسر لإظهار المعنى المعقول... وجُعِلَ السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقبلت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح"^(٣).

فمعنى التفسير يشمل: البيان، والإيضاح، والكشف.

التفسير في الاصطلاح:

للعلماء في تعريف التفسير اصطلاحاً أقوالٌ عديدةٌ، منها:

قول الزركشي - رحمه الله - : "علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"^(٤).

(١) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (٥٠٤/٤).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (٥٥/٥).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بدون تاريخ، دار التراث العربي القاهرة (١٤١٠هـ)، ط. ٣: (١٤٨/٢).

(٤) المرجع السابق: (١٧٤/٢).

وعرّفه أبو حيان - رحمه الله - بأنه: "علمٌ يُبَحَثُ فيه عن كيفية التُّطْقِ بألفاظِ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتَّرَكيبية، ومعانيها التي تُحْمَلُ عليها حالة التَّرَكيبِ وَتَتَمَّتْ لذلك" (١).

وعرّفه ابن عاشور - رحمه الله - بأنه: "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفاد منها باختصار أو توسع" (٢).

والمختار من هذه التعريفات: هو تعريف الزركشي الأول؛ لوضوحه وشموله وتناسبه مع ما ينبغي أن يكون عليه التفسير، من بيان معاني القرآن، ومعرفة أحكامه وحكمه، ومقاصده وأهدافه.

التأويل:

التأويل: من الأول، أي: الرجوع إلى الأصل، ومنه: المَوئِل للموضع الذي يُرْجَعُ إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المُرادَة منه، علمًا كان أو فعلاً (٣)، ويُقال: أوَّلَ الكلام تأويلاً، وتأوله: أي دبره وقدره وفسره.

وعلى هذا فتأويل الكلام له معنيان:

المعنى الأول: تأويل الكلام، بمعنى ما أوَّلُه إليه المتكلم، أو ما يؤوّل إليه الكلام ويرجع، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود.

المعنى الثاني: تأويل الكلام، أي تفسيره وبيان معناه، وهذا ما عناه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله: (القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا) وبقوله أيضاً: (اختلف أهل التأويل في هذه الآية) فإن مُرادَه التفسير، ومن هذا يتضح أن التفسير والتأويل لفظان مُترادفان في أشهر المعاني اللغوية.

الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل، ويمكن أن نستخلص أهم الآراء فيما يأتي:

١ - إذا قلنا: إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، سنة (١٤١١هـ) ثانية (١٣/١).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس (١٩٨٤هـ): (١٠/١).

(٣) الرَّاغِب، المفردات في غريب القرآن: (ص ٩٩).

أو مترادفان، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١).

٢- وإذا قلنا: إن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، وتأويل الخبر نفس الشيء المُخْبِرُ به، فعلى هذا يكون الفرق كبيراً بين التفسير والتأويل؛ لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام، ويكون وجوده في الذهن بتعقله، وفي اللسان بالعبارة الدالة عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا هو الغالب في لغة القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا يَعْلَمِهِ وَلَمَّا يَا تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، فالمراد بالتأويل وقوع المُخْبِرِ به.

٣- وقيل: التفسير ما وقع مُبَيَّنًا في كتاب الله أو مُعَيَّنًا في صحيح السُّنَّةِ؛ لأن معناه قد ظهر ووضح، والتأويل ما استنبطه العلماء، ولذا قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"^(٢).

٤- وقيل: التفسير: أكثر ما يُستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل: أكثر ما يُستعمل في المعاني والجُمَل، وقيل غير ذلك.

مثال تطبيقي للفرق بين التفسير والتأويل:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان عمر ؓ يُدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا؟ ولنا أبناء مثله؛ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم، ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهُم مِنِّي. فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

(١) صحيح ابن حبان: ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباسٍ بهما: (ح ٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) انظر السيوطي، الإيقان في علوم القرآن: (١٧٣/٢).

وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ [النصر: ١-٢] حتى ختم السُّورَة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره؛ إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، قال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم (١).

فالصحابة كانوا مفسرين للسورة، أما ابن عباس فكان مؤولاً لها، وهي مرحلة تأتي بعد معرفة التفسير.

التعريف بأصول التفسير:

علم أصول التفسير علمٌ جليلٌ، فمنه نستمدُّ القواعد، ونعرف الضوابط التي يجب على المفسر التزامها.

وأصول التفسير: مركبٌ يتكون من لفظين: الأصول، والتفسير، وقد سبق تعريفنا للتفسير، فلنشرع في تعريف الأصل، ثم نُعرِّف بأصول التفسير كمركب.

الأصل في اللغة: أسفل الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وهذا يعني أن الأصل هو الأساس الذي تقوم عليه الشجرة، وإذا سقط سقط ما فوقه، ويُطلق الأصل على مبدأ الشيء، وما يُبنى عليه غيره، وعبر عنه بعضهم بأنه: ما يفتقر إليه غيره، ولا يفتقر هو إلى غيره (٢).

أصول التفسير:

هو: الأسس العلمية التي يرجع إليها المفسر؛ حال بيانه لمعاني القرآن، وتحريره للاختلاف في

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح: (ح ٣٩٥٦).

(٢) مساعد الطيار، التحرير في أصول التفسير: (ص ١٣).

التفسير (١).

فأصول التفسير تُستخدم في حالتين:

الأولى: بيان معاني القرآن، فأصول التفسير تمنع المفسّر من أن يأتي بمعنى ضعيفٍ أو فاسدٍ.

الثانية: الترجيح بين الأقوال المختلفة، والتي لا تتم إلا بمعرفة القواعد العلميّة وقرائن الترجيح.

فضل علم أصول التفسير ومكانته:

لهذا العلم فضله ومكانته، فهو يتعلق بالتفسير وهو أشرف العلوم، إذ به تُعرف أصوله وقواعده،

ويمكن إجمال فوائده في الآتي:

- ١- التزوّد بالثقافة العالية من المعارف القيّمة، والتسلح بسلاح العلم والمعرفة للدفاع عن القرآن الكريم ضدّ الأعداء الذين يبذلون وسعهم؛ لتحريف معاني كتاب الله.
- ٢- معرفة الطرق الصحيحة لتفسير القرآن الكريم، وما يُقبل منها وما يُردّ.
- ٣- معرفة القواعد التي تُعين على فهم كتاب الله تعالى الفهم الصحيح.
- ٤- الاطلاع على الجهود العظيمة التي بذها علماء السلف؛ للمحافظة على القرآن لفظاً ومعنى، ومن ثمّ الاقتداء بهم في ذلك، والسّير على نهجهم.

فائدة أصول التفسير:

- ١- من خلاله نعرف مدى عناية الأمة بكتاب ربّها تدبُّراً وفهماً.
- ٢- معرفة المنهج الأمثل في التفسير الذي يتناسب مع أصول التفسير وقواعده، ويتواءم مع رُوح العصرٍ ومُتطلّباته وما يستجدُّ فيه.
- ٣- الحذر من الانحرافات والمزالق التي وَقَع فيها بعض من تصدّر لهذا العلم بأفكارٍ مُسبِّقةٍ ضالّةٍ، أو بفهمٍ قاصرٍ، ومعلوماتٍ غير كافيةٍ.
- ٤- القدرة على دراسة أيّ تفسيرٍ والتمكّن من تقييمه وتصنيفه لمعرفته ما له وما عليه.
- ٥- معرفة أسباب اختلاف المفسّرين وأنواعها، وطرق الجمع بين الأقوال، وقواعد الاختيار

(١) المرجع السابق: (ص ١٧).

والترجيح.

٦- نستطيع من خلاله أن نحكم على أقوال المفسرين تصويباً وتخطئةً، في ضوء ما نتعلمه من قواعد وأصول.

٧- معرفة الأحكام الشرعية الواردة في القرآن، فإننا إذا عرفنا معاني القرآن من خلال قواعد التفسير وأصوله، تمكنا من استخراج الأحكام الشرعية.

* * *

الموضوع الثاني نشأة التفسير ومراحل تطوره



يسر الله تبارك وتعالى ألفاظ القرآن الكريم للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وبيّن النبي ﷺ لأصحابه ﷺ معانيه كما بيّن لهم ألفاظه، فقله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، يتناول بيان ألفاظه ومعانيه، وظلّ الصحابة ﷺ يرجعون إلى النبي ﷺ في فهم ما يُشكل عليهم من معاني الآيات، وبعد أن انقضى عهد الصحب الكرام، برز عدد من أعلام التابعين تتلمذوا عليهم، وأخذوا عنهم تفسير كتاب الله، وزادوا عليه ما استنبطوه وفهموه بأنفسهم مما كان غامضاً على الناس في عصرهم، وكانت مرويات التفسير تُروى على أنها أبواب من الحديث، ولم يظهر تفسير كامل استوعب القرآن من فاتحته إلى خاتمته إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري على يد شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ثم توالى التصنيف في التفسير والتفنن في مذاهبه، ولا زال إلى الآن يُكتب في التفسير ويُتوصل إلى جديد من معاني كلام الله تعالى، وسيظل ما دامت السماوات والأرض زاخراً بالمعاني التي يُعدّ تفسيرها تجديداً لإعجازه.

وقد مرّ علم التفسير بعدة مراحل نتناولها على النحو التالي:

- ١- التفسير في عهد النبي ﷺ.
- ٢- التفسير في عهد الصحابة ﷺ.
- ٣- التفسير في عهد التابعين.
- ٤- التفسير في عهد التدوين.

أولاً: التفسير في عهد النبي ﷺ:

كَلَّفَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ بَيَانَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَمَعَانِيهِ لِلنَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وَمِنْ ثَمَّ "فَإِنَّ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُبَيِّنُ الْقُرْآنَ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتَعْبَرُ عَنْهُ" (١)، سِوَاءَ كَانِ ذَلِكَ الْبَيَانِ قَوْلِيًّا أَمْ عَمَلِيًّا.

وَاخْتَلَفَ الدَّارِسُونَ فِي مِقْدَارِ التَّفْسِيرِ الَّذِي بَيَّنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلصَّحَابَةِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: "إِنَّهُ فَسَّرَ عِدَّةً مِنَ الْآيَاتِ" (٢).

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: "إِنَّهُ بَيَّنَّ لِلصَّحَابَةِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ" (٣).

وَسُوقَ آرَاءُ الْفَرِيقَيْنِ:

الفريق الأول: منهم ابن تيمية - رحمه الله - حيث:

١ - قال: "يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله

تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، يتناول هذا وهذا" (٤).

٢ - وقال: "...ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة،

ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية، قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ:

"حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان ؓ وعبدالله بن مسعود ؓ،

وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها

من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل" (٥) (٦).

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٢٩/١٣).

(٢) يُنظر: الطبري، جامع البيان: (٣٧/١)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٣١/١).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ٣٥).

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٣١/١٣).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف): (٣٨٠/٣)، (ح ٦٠٢٧)، في فضائل القرآن: باب تعليم القرآن وفضله.

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٠٨/١٣).

٣- وقال - رحمه الله - : "... ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تُحَصِّلُ المقصود، إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى" (١).

٤- وقال - رحمه الله - : "الصحابة رضي الله عنهم بلغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعاً كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يُعلم بالضرورة عن عاداتهم، فإن الرجل لو صنَّف كتابَ عِلْمٍ في طِبِّ أو حسابٍ أو غير ذلك، وحفظه تلامذته؛ لكان يُعلم بالاضطرار أن هممهم تشوق إلى فهم كلامه ومعرفة مُرادِه...، وهل يتوهَّم عاقلٌ أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم ولا ما يقرؤونه، ولا تشناق نفوسهم إلى فهم هذا القول، ولا يسألونه عن ذلك، ولا يبتدئ هو بيانه لهم! هذا مما يُعلم بطلانه" (٢).

الفريق الثاني: قالوا: أن الرسول ﷺ لم يُبيِّن لأصحابه إلا القليل من معاني الآيات، وأدلتهم في

ذلك:

١- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "ما كان النبي ﷺ يُفسِّر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد، علّمه إياه جبريل" (٣).

٢- أن الحكمة في ذلك: أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه؛ لذلك لم يأمر نبيه بالتخصيص على المراد في جميع آياته" (٤).

٣- أن الرسول لو بيّن كل معاني القرآن؛ لَمَا كان لدعائه ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي

(١) المرجع السابق: (١٧٥/٥).

(٢) ابن تيمية، بُغِيَّة المُرْتَاد: (ص ٣٣٠-٣٣٢).

(٣) قال ابن كثير: (حديث منكر غريب). وقد أخرجه الطبري في تفسيره: (١/٧٨-٧٩)، ثم قال الطبري: (١/٨٣) - أثناء بحثه ومناقشته في معنى الحديث - : "... هذا مع ما في الخبر الذي رُوِيَ عن عائشة من العلة التي في إسناده، التي لا يجوز معها الاحتجاجُ به لأحدٍ من علم صحيح سَنَد الآثار وفاسدًا في الدين؛ لأن راويه ممن لا يُعرف في أهل الآثار، وهو: جعفر بن محمد الزبيري".

(٤) السيوطي، الإِتقان في علوم القرآن: (٤/١٩٧).

الدِّينَ وَعَلِمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١) فائدة، ولما كان له هذا الفضل في التفسير.

الراجع:

أن النبي ﷺ بَيَّنَّ لِلأُمَّةِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا مَاتَ حَتَّى أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَحَتَّى بَلَغَ الرِّسَالَةَ حَقَّ الْبَلَاغِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْبِغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَبَلَاغُهُ إِيَّاهُ يَتَضَمَّنُ بَلَاغَ أَلْفَاظِهِ، وَبَلَاغَ مَعَانِيهِ، وَخَرَجَ مِنْ هَذَا الْبَلَاغِ الْأُمُورَ الْغَيْبِيَّةَ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا، وَالْأُمُورَ الَّتِي لَا طَائِلَ مِنْ مَعْرِفَتِهَا مِثْلَ: لَوْنِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِ الشَّجَرِ، وَالآيَاتِ الَّتِي تُفْهَمُ بِمَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَهْلُهَا، وَالآيَاتِ الَّتِي يَسْتَهْلُ عَلَى الذِّهْنِ فَهْمُهَا أَوَّلَ مَا تَرِدُ عَلَيْهِ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، أَنْ الْمُرَادَ بِهَا تَحْرِيمَ الْوَطْءِ، وَلَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ غَيْرُهُ.

وهذا هو حاصل كلام شيخ الإسلام حيث قال: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لاسيما علماءهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين»^(٢).

أمثلة تطبيقية لتفسير الرسول للقرآن:

يجب أن يُعتمد التفسير النبوي الوارد بطرقه الصحيحة في تفسير القرآن، ومن أمثلة ذلك:

١ - عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودَ، وَالضَّالِّينَ:

النَّصَارَى»^(٣).

(١) صحيح ابن حبان: ذكر وصف الفقه والحكمة للذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بهما: (ح ٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٥/١٣).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٤/٣٧٨-٣٧٩) (ح ١٩٣٨١)، قال الألباني: (الحديث صحيح)، وقال: وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، وصرح بثبوت ابن أبي العز الحنفي في آخر شرحه للعقيدة الطحاوية، وجزم بنسبته إلى =

٢- وعن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ» ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] بِشِرْكٍ، أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١). ففسر النبي ﷺ الشرك بالظلم، فلا يُعدَل عنه إلى غيره.

٣- وعن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ»^(٢). فهذا تصريح بتفسير القوة بالرمي، فيقبل هذا التفسير، ويُردُّ ما سواه.

منهج النبي ﷺ في التفسير:

١. لم يفسر الرسول ﷺ القرآن كله سورةً سورةً وآيةً آيةً، وإنما بيَّن ما أمر ببيانه من الوحي غير المتلو، الذي نزل عليه تفصيلاً لمجمل، أو تقييداً لمطلق، أو تخصيصاً لعام، أو تعريفاً لمبهم، أو دفعا لإيهام، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.
٢. فسّر النبي ﷺ ما حَفِيَ على الصحابة ﷺ من المعاني التي لا يمكنهم التوصل إليها باللغة أو الاجتهاد.
٣. كان تفسيره ﷺ سهلاً واضحاً بعبارةٍ بليغةٍ وجيزةٍ، دون استطرادٍ إلى ما لا صلة له بالتفسير.
٤. أما عن مصادره ﷺ في التفسير، فلقد اعتمد الرسول ﷺ في تفسيره على القرآن الكريم

= النبي ﷺ شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى": (١٢٧/٣)، وعقب عليه بقوله: "وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم".

(١) صحيح البخاري: باب قول الله تعالى: ﴿وانخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، (ح ٣٣٦٠).

(٢) صحيح مسلم: باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه: (ح ١٩١٧).

باعتباره المصدر الأوّل في التفسير، كما اعتمد على تفسير القرآن بالسنة التي أنزلها الله ﷺ بياناً للقرآن، واعتمد أيضاً على فهمه الواسع باللغة، واجتهاده فيما لا وحي فيه، إلى جانب مدارسته لأمين الوحي جبريل عليه السلام، ومعايشته لنزول القرآن، ومباشرته لقرائته وملايساته.

ثانياً: تفسير الصحابة رضوان الله عليهم:

الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمناً، ومات على ذلك^(١).

كان الصحابة رضي الله عنهم عرباً خلصاً، يفهمون القرآن، ويُدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهما لا تُعكره عجمة، ولا يشوبه تكدير، ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع، وتَحكم العقيدة الزائفة الفاسدة، وكان لهم ﷺ وفتات أمام بعض النصوص القرآنية التي دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات؛ إذ كانوا يرجعون في مثل ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فيكشف لهم ما دقّ عن أفهامهم، ويُجلى لهم ما خفي عن إدراكهم^(٢)، وإن لم يتيسر لهم ذلك رجعوا إلى اجتهادهم، وكان التفاوت بينهم واضحاً في هذه الرتبة، فكان بعضهم يرجع إلى بعض؛ إذ التفاوت بينهم راجع إلى التفاوت في قوة الفهم والإدراك، والتفاوت فيما أحاط بالآية من ظروف وملايسات، بل كانوا يتفاوتون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناها على بعض الصحابة^(٣).

أمثلة لما خفي على الصحابة من معاني المفردات:

- ١- خفي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى الأب في قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ وَأَبًا﴾ [عبس: ٣١]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ عمرُ ابنُ الخطابِ: ﴿وَفَكَهْمٌ وَأَبًا﴾، ومعه عصا في

(١) يُنظر: ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث: (ص ٣٩٦).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٦/١).

(٣) المرجع السابق: (١/٣٤).

- يده، فقال: ما الأَبُّ؟، ثمَّ قَالَ: بِحَسْبِنَا مَا قَدْ عَلِمْنَا، وَأَلْقَى الْعَصَا مِنْ يَدِهِ" (١).
- ٢- وَأَشْكَلَ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مَعْنَى التَّخَوُّفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، حَتَّى قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ: "التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ فِي لُغَتِنَا" (٢).
- ٣- وَخَفِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مَعْنَى فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ؟ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا، يَقُولُ: أَنَا ابْتَدَأْتُهَا» (٣).
- ٤- وَخَفِيَ عَنِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مَعْنَى الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، رَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، عَمَدْتُ إِلَى عِقَالِ أَسْوَدٍ وَإِلَى عِقَالِ أَبِيضٍ؛ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وَسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي؛ فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ» (٤).

أسباب تفاوت الصحابة في فهم معاني القرآن:

- لم يكن الصحابة رضي الله عنهم في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكى على بعضهم ما ظهر لبعضٍ آخرٍ منهم، وهذا يرجع إلى عدّة أسباب، وهي كما يلي:
- ١- تفاوتهم في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية، قال مسروق: "جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاد - يعني الغدير - فالإخاد يروي الرجل، والإخاد يروي الرجلين، والإخاد يروي العشرة، والإخاد يروي المائة، والإخاد لو نزل به أهل الأرض

(١) الطبري، جامع البيان: (٥٩/٣٠).

(٢) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: (١٠٥/٢).

(٣) السيوطي، الإتيقان: (١٤٩/١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصور، باب قوله تعالى: (كُلُوا وَاشْرَبُوا): (ح١٨١٧).

لأصدرهم" (١).

- ٢- تفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، وغير ذلك من الأمور التي لا يستغني عنها المفسر. عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: "وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أَنْزَلْتُ، وَلَا أَنْزَلْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيهِمَ أَنْزَلْتُ، وَلَوْ أَعْلَمَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ" (٢).
- ٣- أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة ﷺ، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يُحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كُلف فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.
- ٤- تفاوتهم في ملازمة الرسول ﷺ، فمنهم من كان يُلازم النبي ﷺ؛ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، كان أبو هريرة ﷺ ملازمًا لرسول الله ﷺ لا يكاد يفارقه، روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة ﷺ قال: "إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى مِلءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا عَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأًا مَسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّقَّةِ أَعْيَ حِينَ يَنْسُونَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: «إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ» فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٣٦/١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ: (١٨٧/٦)، (ح ٥٠٠٢).

نَسِيْتُ مِنْ مَقَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ" (١).

٥- تفاوت معرفتهم بأيام العرب وعاداتهم في الجاهلية وأحوال اليهود، فلا شك أن لمعرفة أيام العرب وأحوالهم وعاداتهم في الجاهلية، أثر مهم في فهم القرآن الذي جاء مُبطلًا لذميم عاداتهم ومدحضًا لفساد تصوراتهم، وقد يخفى معنى الآية أو يقع الإشكال؛ بسبب عدم معرفة أحوال العرب الذين نزلت فيهم: مثال ذلك: عن عُرْوَةَ بن الزبير، قَالَ: "قُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا أَرَى عَلَيَّ جُنَاحًا أَنْ لَا أَتَطَوَّفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ"، قَالَتْ: "لَمْ؟" قُلْتُ: لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فَقَالَتْ: "لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ، لَكَانَ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَ هَذَا فِي أَنْاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانُوا إِذَا أَهَلُّوا، أَهَلُّوا لِمَنَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَنْ يَطَّوَّفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا قَدِمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ، ذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَلَعَمْرِي، مَا أَتَمَّ اللَّهُ حَجَّ مَنْ لَمْ يَطْفُفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ". (٢)

٦- تنوع اهتمامات الصحابة رضي الله عنهم، فمنهم من عني بالتفسير، ومنهم عني بمسائل الحلال والحرام، ومنهم من بدع في الفرائض، ومنهم من عني برواية الحديث، روى الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَاهُمْ أَبِي، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ» (٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب (١)، (ح ١٩٤٢)، والنمرة: بُرْدَةٌ من صوفٍ، أو من غيره مُحَطَّطَةٌ.
 (٢) صحيح البخاري، كتاب الحج، بابٌ وَجُوبِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ: (١٥٧/٢)، (ح ١٦٤٣)، وصحيح مسلم واللفظ له: (٩٢٨/٢)، (ح ٣٦٠) - (ح ١٢٧٧).
 (٣) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، (ح ٢١٥٠)، قال الألباني: (صحيح).

مميزات تفسير الصحابة رضي الله عنهم:تميّز تفسير الصحابة بمزايا منها رضي الله عنهم:

- ١- توضيح بعض المفردات الغريبة والمعاني المُشكِلة، أو بيان ما يتعلق بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك، ولم يكن تفسيراً شاملاً لكلِّ القرآن الكريم؛ وذلك لأنهم كانوا عرباً حُلُصاً يفهمون المعنى دون شرح، إضافة إلى إلمامهم الواسع بأحوال نزول الآيات ومعرفة أسباب النزول وزمانه ومكانه؛ مما يُعين على فهم المعنى؛ ولذا فإنَّ أقوالهم في التفسير جاءت في أمورٍ مهمةٍ، لا يُمكن لأحدٍ ممن بعدهم أن يستغني عنها.
- ٢- اعتمدوا في تفسيرهم على الكلمات الجامعة والعبارة الواضحة التي تدل على المعنى، دون استطراد إلى ما لا صلة له بالتفسير، أو لا فائدة كبيرة في الخوض في تفاصيله.
- ٣- الصفاء من كلِّ أنواع البدع التي وقعت بعدهم في الأمة، فأقوالهم أصفى الأقوال عقيدةً ومنهجاً؛ وذلك لعدم ظهور أهل الأهواء في تلك الحقبة المباركة.
- ٤- قلة الاختلاف بينهم في التفسير، وما وُجد يرجع غالبه إلى اختلاف التنوع لا التضاد؛ وذلك لأنه كُلمًا قُرب الإنسان من عهد النبوة نجد الاجتماع والاتلاف علمًا وعملاً كان هو الذي يسود، وكلّما بُعد الإنسان عن تلك الحقبة المباركة وجد العكس تمامًا، والله المستعان، ولم يُنقل عنهم خلافٌ إلا في رؤية النبي ﷺ لله تعالى في ليلة الإسراء والمعراج.
- ٥- قِلَّةُ الأخذ بالإسرائيليات وتناولها في التفسير، ولعلَّ لتربية النبي ﷺ الخاصة لهم لها أثرٌ على ذلك في الاعتزاز بما عندهم، وعدم الالتفات إلى ما عند أهل الكتاب؛ خاصة وهي روايات أغلبها محرّفة وفيها الكثير من الأباطيل والخرافات، ولهذا غضب ﷺ حينما رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة من التوراة، كما جاء عن جابر بن عبد الله، أنَّ عمرَ بن الخطاب أتى النبي ﷺ وسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ، وَقَالَ: «أُمَّتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً،

لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكْذِبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(١).

- ٦- كان تفسيرهم منقولاً بالرواية شأنه شأن الحديث، فلم يُدَوَّن التفسير في عصرهم.
- ٧- التزموا أحسن طرق التفسير من تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وتفسير القرآن بمن يعلم من أصحاب النبي ﷺ، وتفسير الاجتهاد القائم على الإمام الكامل بلغة القرآن، وأحوال نزول الآيات، وأحوال العرب عند نزول القرآن، مع معرفة تامة بعاداتهم وتقاليدهم، إضافة إلى ما كانوا عليه من تقوى وورع؛ جعلهم لا يتكلمون إلا بعلم، كما جاء عن حماد بن زيد قال: حدثنا عبيدالله بن عمر قال: "لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليغلظون القول في التفسير منهم: سالم بن عبدالله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيّب، ونافع"، وقد جاء عن أيوب عن ابن أبي مُليكة: "أن ابن عباس سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضكم لقال فيها، فأبي أن يقول فيها"، وعن يحيى بن سعيد عن ابن المسيّب: "أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن"^(٢).

مصادر الصحابة في التفسير:

كان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:
الأول: تفسير القرآن بالقرآن.

الثاني: النبي ﷺ.

الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الرابع: أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

ونوضح كلّ مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول:

(١) مسند الإمام أحمد: (١٤٨٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: (ح ١٧١).

(٢) الطبري، جامع البيان: (٦٢/١).

المصدر الأول: تفسير القرآن بالقرآن:

التأمل في القرآن الكريم يجد أن ما أُوجزَ في مكان قد يُبسطُ في مكان آخر، وما أُجْمِلَ في موضع قد يُبيِّنُ في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عامّاً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويُقابل الآيات بعضها ببعض؛ ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مُبيّناً على فهم ما جاء مُجْمَلًا، وليحمل المُطلق على المقيّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسّر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذا أحسن طرق التفسير.

مثال تطبيقي:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، قال:

تزوئجها: أن يؤلف كل قوم إلى شبيههم، وقال: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصفافات: ٢٢] ^(١).

المصدر الثاني: تفسير القرآن بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم:

المصدر الثاني: الذي كان يرجع إليه الصحابة رضي الله عنهم في تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله؛ رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فبيّن له ما خفي عليه؛ لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

أمثلة تطبيقية:

عَنْ عَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، فَقَالَ: «يَوْمُ النَّحْرِ». وَعَنْ أَبِي بِنِ

(١) السيوطي، الدر المنثور: (٤٣٠/٨).

كعبٍ أنه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).
وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ»، قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قال: «ذَلِكَ الْعَرْضُ»^(٢).

وكان عليه السلام يُفَسِّرُ وإن لم يُسأل، رَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكُوْثُرُ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

المصدر الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خُلص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب، كما يقول عمر

رضي الله عنه.

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يُفَسِّرُ بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعني طريق الرأي والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتي:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

(١) المرجع السابق: (٢٢/٢٥٣).

(٢) صحيح البخاري، باب من نوقش الحساب عذب: (ح٦٥٣٦).

(٣) السنن الكبرى للنسائي: سورة الكوثر (ح١١٦٣٩)، قال الألباني: (صحيح)، صحيح الجامع الصغير وزياداته: (ح٧٠٢١).

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تُعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب، ومعرفة عادات العرب تُعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، لا يمكن فهم المراد منه إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تُعين على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تُعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدي - رحمه الله - : "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قِصَّتِهَا وبيان نزولها"^(١)، وقال ابن دقيق العيد - رحمه الله - : "بيان سبب النزول طريقٌ قويٌّ في فهم معاني القرآن"^(٢)، وقال ابن تيمية - رحمه الله - : "معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يُورث العلم بالمُسبب"^(٣).

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يُؤتيه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن يدقُّ معناها، ويخفي المراد منها، ولا يظهر إلا لمن أُوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بذلك حيث قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٤).

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص ٤-٥).

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (١/٨٣).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ١٦).

(٤) صحيح ابن حبان: ذكر وصف الفقه والحكمة الذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بهما: (ح ٧٠٥٥)، قال الألباني: (صحيح).

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة رضي الله عنه أنه قال: "قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر"^(١).

هذه هي أدوات الفهم والاستنباط التي استعان بها الصحابة رضي الله عنهم على فهم كثير من آيات القرآن، وهذا هو مبلغ أثرها في الكشف عن غوامضه وأسراره.

أشهر المفسرين من الصحابة:

اشتهر بالتفسير من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد ابن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين. وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة رضي الله عنهم غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبدالله ابن عمر، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعائشة، غير أن ما نُقل عنهم في التفسير قليل جداً.

كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسطٍ أغلب أهله علماءً بكتاب الله، واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدةً طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمنٍ كثرت فيه حاجة الناس إلى من يُفسر لهم ما خفى عنهم من معاني القرآن؛ وذلك ناشئ من اتساع رُقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية. وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب؛

(١) صحيح البخاري: باب العاقلة: (ح ٦٩٠٣).

لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكّنت لهم ولعليّ بن أبي طالب أيضاً في التفسير، هذه الصفات هي:

- ١- فوّتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها.
- ٢- عدم تحرّجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم.
- ٣- مخالطتهم للنبي ﷺ مخالطةً مكّنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي ﷺ في شبابه؛ لوفاة النبي ﷺ وهو في سنّ الثالثة عشرة أو قريباً منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة رضي الله عنهم، يأخذ عنهم ويروى لهم^(١).

مدارس التفسير:

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميّزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن، وعبدالله بن وهب"^(٢).

مدرسة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في مكة:

هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأُمّه لُبابة الكبرى بنت الحارث بن خزّن الهلالية. ولّد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشَّعب بمكة، فأُتي به النبي ﷺ فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي ﷺ في صغره؛ لقربته منه؛ ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وقد توفي سنة (٦٨هـ).

كان ابن عباس يُلقَّب بالحُزْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/٥٠).

(٢) ابن تيمية، مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: (ص ١٥).

بمعنى كتاب الله؛ ولذا انتهت إليه الرِّياسة في الفتوى والتفسير.

قال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: "نِعَمَ تُرجمان القرآن ابن عباس" ^(١)، وقيل لطاووس: لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله - قال: "إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارعوا في أمرٍ صاروا إلى قول ابن عباس" ^(٢).

وروى الأعمش عن أبي وائل شقيق ابن سلمة، قال: "قرأ ابن عباس سورة البقرة، فجعل يُفسِّرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم؛ لأسلمت" ^(٣).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم" ^(٤).

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء ابن أبي رباح، وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى.

مدرسة عبدالله بن مسعود في الكوفة:

هو عبدالله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مُضَرَ، ويكنى بأبي عبدالرحمن الهُدَلي، وأُمُّه أُمُّ عبد بنت عبدود، من هُدَيل، وكان يُنسب إليها أحياناً فيقال: ابن أم عبد، أسلم قديماً. روى الأعمش، عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبيه قال: قال عبدالله - يعني ابن مسعود - : "لقد رأيتني سادس سِتَّةٍ ما على ظهر الأرض مسلمٍ غيرنا" ^(٥)، وهو أوَّل مَنْ جَهَرَ بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوذى في الله من أجل ذلك، وكان ابن مسعود رضي الله عنه من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحب أن يسمع منه القرآن، روى البخاري بسنده عن عبدالله قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، فَقُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «**إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». قَالَ:

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: (٣/٤٧٣).

(٢) ابن حجر، الإصابة: (٢/٣٣٣).

(٣) الطبري، جامع البيان: (١/٨١).

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب: (٥/٢٧٨).

(٥) صحيح ابن حبان، ذكر البيان بأن عبد الله بن مسعود كان سُدس الإسلام: (ح٦٢٠٧٠).

فَأَفْتَحْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال لي: «كُفَّ - أو أَمْسِكْ -»، فَرَأَيْتُ عَيْنِيهِ تَذَرِفَانِ (١).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أَنْزَلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ» (٢).

وقد أقام ﷺ بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث، والتفسير، والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأي حيث لا يوجد النص، ولمَّا قَدِمَ عَلَيَّ الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله ﷺ، وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلاً أحسن حُلُقًا، ولا أَرْفَقَ تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشدَّ ورعًا من ابن مسعود ﷺ، قال عليُّ ﷺ: "أَنْشُدْكُمْ اللهُ أَهْوُ الصِّدْقِ مِنْ قُلُوبِكُمْ؟" قالوا: نعم، قال: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ أُنِي أَقُولُ مِثْلَ مَا قَالُوا وَأَفْضَلُ" (٣).

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

أبي بن كعب ﷺ ومدرسة المدينة:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً، وهو أوَّل مَنْ كَتَبَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عند مَقْدِمِهِ المدينة، وقد أثنى عليه عمر ﷺ فقال: "أَبِي سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ" (٤)، وقد اُخْتُلِفَ في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

كان أبي بن كعب سيّد القُرَاءِ، وأحدُ كُتَّابِ الوحي لرسول الله ﷺ، وقد قال فيه ﷺ: «وَأَقْرَأُهُمْ

(١) صحيح البخاري، باب البكاء عند قراءة القرآن: (ح ٥٠٥٥).

(٢) صحيح ابن خزيمة، باب الجهر بالقراءة في صلاة الليل: (ح ١١٥٦).

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة: (٣/٣٨١).

(٤) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (١/١٠٩).

أبي بن كعب»^(١)، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي ﷺ، فقد أخرج الترمذي بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي ﷺ لأبي: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]»، قال: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَجَعَلَ أَبِي يَبْكِي^(٢).

"كان أبي بن كعب من أعلم الصحابة رضي الله عنهم بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله، هو أنه كان حبراً من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومقدّم القرآن ومؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يُعقل بعد ذلك أن تمرّ عليه آية من القرآن يُشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ؛ لهذا كلّه عدّ أبي بن كعب من المكثرين في التفسير، الذين يُعتدّ بما صح عنهم، ويُعوّل على تفسيرهم"^(٣).

من أشهر تلاميذ أبي بن كعب: أبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وابنه الطفيل بن أبي بن كعب.

حكم تفسير الصحابي:

إذا لم يجد المفسّر التفسير في القرآن والسنة رجع إلى أقوال الصحابة، قال ابن تيمية - رحمه الله - : "...إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اقتصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيّما علماؤهم وكبرائهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة

(١) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم، (ح ٢١٥٠). قال الألباني: (صحيح).

(٢) سنن الترمذي: باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي، وأبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم، (٣٧٩٢)، قال الألباني: (صحيح).

(٣) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٢٤/٢).

المهدين؛ مثل: عبدالله بن مسعود^(١).

ويكون حكم تفسير الصحابي على النحو التالي:

أولاً: له حكم المرفوع؛ إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكلّ ما ليس للرأي فيه مجال، أما ما يكون للرأي فيه مجال، فهو موقوفٌ عليه ما دام لم يُسنده إلى رسول الله ﷺ.

ثانياً: ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأيّ حال.

ثالثاً: ما حُكِمَ عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به؛ لأنه لَمَّا لم يرفعه، عُلِمَ أنه اجتهد فيه، واجتهد يُخطئ ويُصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر: إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه؛ لظنّ سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم إن فسروا برأيهم فأصوب؛ لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، وليركة الصحابة والتخلق بأخلاق النبوة، ولَمَّا شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولَمَّا لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، وعبدالله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم^(٢).

ثالثاً: التفسير في عهد التابعين:

للتابعين رضي الله عنهم دورٌ بارزٌ في التفسير؛ حيث نقلوا لنا علم الصحابة، فضلاً عن اجتهاداتهم المبنية على علمٍ غزيرٍ وفهمٍ صحيح؛ لذا فإن تفسيرهم يُعدُّ من المصادر المهمة بعد تفسير الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ولقد بدأ تدوين التفسير في نهاية القرن الأول الهجري، بجهود مباركة من بعض المفسرين إلى جانب تدوين موضوعات علوم القرآن، حتى ظهرت المؤلفات الموسوعية في مطلع القرن الثالث

(١) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ٢٥٤).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/٧٢).

الهجري.

التابعي: هو من لقي الصحابي وهو مؤمن، ومات على ذلك^(١).

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "... إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة؛ فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"^(٢).

وقد اعتمد المفسِّرون من التابعين في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في القرآن الكريم، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

مصادر التابعين ومنهجهم في التفسير:

لم يختلف منهج التابعين عن طرق التفسير التي كان عليها أصحاب النبي ﷺ إلا في إضافات يسيرة؛ نتيجة لبعض المستجدات التي عاشوها بعد أصحاب النبي ﷺ بسبب توسع الفتوحات الإسلامية؛ وكذلك؛ لأنهم تلاميذهم ومنهم أخذوا، ونجد منهجهم كان قائمًا على ما يلي:

١. تفسيرُ القرآنِ بالقرآن، فكان للتابعين اجتهاداتهم في فهم القرآن، والجمع بين الآيات، والنظرة الكلية لها، واستنباط المعاني، ودفع الإشكال.
٢. تفسيرُ القرآنِ بالسُّنة النبوية، فهي المصدر الثاني للتفسير، والتابعون هم الحلقة الثانية في سلسلة رواية الأحاديث.
٣. تفسيرُ القرآنِ بأقوال الصحابة، فهُم تلامذة الصحابة ﷺ، وعنهم أخذوا التفسير.
٤. تفسيرُ القرآنِ بالرأي والاجتهاد، فكان للتابعين اجتهاداتهم في التفسير وآراؤهم المعتبرة.
٥. الرجوعُ إلى مسَلِّمة أهل الكتاب، فيما يتعلَّقُ بقصص الأنبياء والأُمم السابقة، فكان من التابعين أمثال وهب بن منبه، وكعب الأُجبار، وغيرهما من أجبار اليهود الذين

(١) يُنظر: ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث: (ص ٤٠٥).

(٢) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ٢٨).

أسلموا، ونقلوا مروياتٍ عن الكتب السابقة من تلقاء أنفسهم أو جواباً عن سؤالٍ وُجّه إليهم، وكان من التابعين من يرجع لمسلمة أهل الكتاب فينقلُ عنهم من باب الاستشهاد والاستئناس، وهذا العمل مع خطورته إلا أنه لا يخلو من فوائد، فالإسرائيليات كما سنُبين لاحقاً ليست مرفوضةً كليّةً، ولا يُمكن أن نقبلها كافةً، بل منها المقبول ومنها المردود.

مميزات تفسير التابعين:

تميّز التفسير في عهد التابعين بمزايا عديدة منها:

- ١- دخول الإسرائيليات في التفسير.
- ٢- الاهتمام بالإسناد في الرواية، ونسبة كل قول لصاحبه حتى تُعرف الأقوال، وتُميّز بين قوَيها وضعيفها، وصحيحها وسقيمها.
- ٣- الاحتفاظ بطابع التلقي والرواية، وقد تلقى وروى أهل كلِّ مِصرٍ التفسير عن إمامهم، فالمكيون يروون عن عبدالله ابن عباس - رضي الله عنهما - ، والمدنيون يروون عن أبيّ رضي الله عنه، والعراقيون يروون عن عبدالله بن مسعود ^(١).
- ٤- التوسع في التفسير أكثر مما كان عليه في عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى شمل القرآن كاملاً؛ وذلك لتوسع الدولة، ودخول العجم، وبرز الحاجة إلى اجتهاد أوسع.
- ٥- كثرة الخلافات في التفسير أكثر مما كان عليه الوضع في عهد الصحابة رضي الله عنهم، فنجد أقوالاً متعددة في معنى الآية، وإن كانت أحياناً تُحمل على اختلاف التنوع لا التضاد.
- ٦- بُروز نواة الخلاف المذهبي.

حُجّة تفسير التابعي:

اختلف العلماء في الرجوع إلى تفسير التابعين، والأخذ بأقوالهم؛ إذا لم يُؤثر في ذلك شيء من الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. فنقل عن الإمام أحمد - رضي الله عنه - روايتان في ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول،

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١٣١).

وذهب بعض العلماء: إلى أنه لا يُؤخذ بتفسير التابعي، واختاره ابن عقيل، وحكي عن شُعبة.

واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه بما يلي:

- أن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي: إنه محمول على سماعه من النبي ﷺ.

- أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلاً.

- عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نُصَّ على عدالة الصحابة.

وذهب أكثر المفسرين: إلى أنه يُؤخذ بقول التابعي في التفسير؛ لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة، فمجاهدٌ مثلاً يقول: "عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفهُ عند كل آية منه وأسأله عنها"^(١)، وقتادة يقول: "ما في القرآن آية إلا وقد سمعتُ فيها شيئاً"^(٢)؛ ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين في كتبهم، ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها.

الرأي الراجح:

أنَّ قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يُؤخذ به حينئذٍ عند عدم الرِّبِّية، فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأيٍ فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره، قال ابن تيمية - رحمه الله - : "إذا أجمعوا على الشيء؛ فلا يُرتاب في كونه حُجَّةً، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حُجَّةً على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُنَّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"^(٣).

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق شاکر: (٩٠/١).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١٢٩/١).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ٢٩).

أشهر المفسرين من التابعين:

اشتهر بالتفسير من التابعين عدد كبير على رأسهم:

- ١- سعيد بن جبیر بن هشام الأسدي الكوفي: المقرئ، المفسر، الفقيه، والمحدث، أحد الأعلام الذين عُرفوا بالعلم وكثرة العمل الصالح، ورأى خلقًا من أصحاب النبي ﷺ، قُتل في سنة (٩٥هـ).
- ٢- مجاهد بن جبر الإمام الحَبْرُ المكيّ: قال مجاهد: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة"، وفي رواية: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"^(١)، وقال عنه سفيان الثوري - رحمه الله - : "إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك به"، تُوفي سنة (١٠٣هـ) بمكة وهو ساجد.
- ٣- عكرمة مولى ابن عباس: أحد أعلام التابعين، والمفسرين الكثيرين، والعلماء الربانيين، والرحالين الجوالين، قال عنه الإمام الشعبي: "ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب الله من عكرمة"^(٢)، توفي سنة (١٠٥هـ).
- ٤- شهر بن حوشب الأشعري الحمصي: ويُقال إنه دِمَشقي، قرأ القرآن على ابن عباس ﷺ، وكان عالمًا كبيرًا، توفي سنة (١٠٠هـ).
- ٥- زيد بن أسلم العدوي: الفقيه العابد المفسر، مولى عمر بن الخطاب ﷺ كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالتفسير والعبادة، وله تفسير يرويه عنه ابنه عبدالرحمن، توفي سنة (١٣٦هـ).
- ٦- الحسنُ البصريّ: وهو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري إمام أهل البصرة، وخير أهل زمانه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ كان فقهياً ورعاً زاهداً شجاعاً في الحق، وقال أبو بكر الهذلي: قال لي السفاح: "بأي شيء بلغ حسنكم ما بلغ؟ فقلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها،

(١) ابن جرير، تفسير الطبري، تحقيق شاکر: (٩٠/١).

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: (٢٤١/٤).

وفيما أنزلت"، فقال: "بهذا بلغ الشيخ ما سمع عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه"، توفي في سنة (١١٠هـ).

٧- **قتادة بن دعامة الدوسي**: وهو أبو الخطاب الضرير الأكمه، مفسر كتاب الله، كان آية في الحفظ، قال: "ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً"، مات بواسط في الطاعون، في سنة (١١٧هـ).

٨- **أبو العالية الرياحي**: وهو أبو العالية رفيع بن مهران، كان إماماً في القراءة والتفسير والعلم والعمل، قرأ القرآن على أبي بن كعب، قال أبو بكر بن أبي داود: "ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير"^(١)، توفي سنة (٩٣هـ).

٩- **سعيد بن المسيب المخزومي**: المدني، أحد أعلام الدنيا، وسيد التابعين، قال ابن عمر: لو رأى رسول الله ﷺ هذا لسره، وقال مكحول، وقتادة، والزهري، وغيرهم: "ما رأينا أعلم من ابن المسيب"^(٢)، وقال علي بن المدني: "لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، وهو عندي أجلّ التابعين"^(٣)، وقد جمع بين الحديث، والتفسير، والفقه، والورع، والعبادة، وقال عن نفسه: "حججت أربعين حجة، وما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة"، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وتوفي بالمدينة سنة (٩٤هـ).

١٠- **أبو عبد الرحمن السلمي**: وهو عبد الله بن حبيب، مقرئ أهل الكوفة بلا مُدافعة، قرأ القرآن على عثمان بن عفان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم، وسمع من جماعة من الصحابة، وأقرأ القرآن من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج، أي نحو أربعين سنة، توفي بالكوفة سنة (٧٣هـ)، أو بعدها في إمرة بشر بن مروان في خلافة عبد الملك بن مروان.

(١) ابن العماد العكري، شذرات الذهب: (٩٦/١).

(٢) المرجع السابق: (١٠٢/١).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب: (٨٤/٤).

رابعاً : التفسير في عصر التدوين :

مرّ تدوين التفسير بثلاثة مراحل يُمكن أن نُجملها في الآتي:

المرحلة الأولى: تدوين التفسير في باب من أبواب الحديث:

بدأ العلماء أولاً في تدوين المرويّات والأقوال في التفسير إلى جانب المرويّات في سائر كتب السنة، كما نجد ذلك اليوم في بعض كتب السنة، كالبخاري، ومسلم، وغيرها، نجد فيها كتاباً يُسمّى كتاب التفسير، ولم تُفرد له مؤلفات خاصة.

وأشهر من دَوّن التفسير في هذه المرحلة هم:

١- يزيد بن هارون السُّلمي (ت: ١١٧هـ).

٢- شُعْبَة بن الحجاج (ت: ١٦٠هـ).

٣- وَكَيْع بن الجِرَّاح (ت: ١٩٧هـ).

٤- سُفْيَان بن عيينة (ت: ١٩٨هـ).

٥- عبد الرزّاق بن همام (ت: ٢١١هـ).

٦- وآدم بن أبي إياس (ت: ٢٢٠هـ).

٧- وعبد بن حميد (ت: ٢٤٩هـ).

أبرز مميزات هذه المرحلة:

تميزت هذه المرحلة بمزايا منها:

١. الاهتمام بالإسناد في الرواية.
٢. جمع ما ورد من تفسير للآية من أقوال النبي ﷺ ، والصحابة، وأئمة التابعين.
٣. جمع التفسير ككتابٍ من أبواب الحديث، ولم يكن مستقلاً في مصنفات خاصة، ثم جاءت المرحلة الثانية التي أُفردَ فيها التفسير بمؤلفات خاصة.

المرحلة الثانية: إفراد التفسير في مؤلفات خاصة:

انتقل التفسير في هذه المرحلة الثانية إلى رحابٍ أوسع حيث أُفرد بالتأليف، وصار عِلْمًا مستقلًا له مؤلفاته الخاصة، وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية^(١)، وابن خلكان^(٢)، على أن أوَّل من صنَّف تفسيرًا لآيات القرآن وسوره مُرتبًا حسب ترتيب المصحف هو: "عبد الملك بن جريج" (ت: ١٤٠هـ)، ثم تتابعت المؤلفات والكتابات في التفسير من بعده، فمن أشهر من كتبوا وصنفوا في التفسير:

- ١- ابن ماجة (ت: ٢٧٣هـ).
- ٢- ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).
- ٣- أبو بكر المُنذري النيسابوري (ت: ٣١٨هـ).
- ٤- ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ).
- ٥- ابن حِبَّان (ت: ٣٦٩هـ).
- ٦- والحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ).
- ٧- وابن مردويه (ت: ٤١٠هـ).

أبرز مميزات هذه المرحلة:

- ١- فُسِّر القرآن الكريم تفسيرًا كاملاً شاملاً لآيات القرآن وسوره مرتبًا حسب ترتيب المصحف بما أثير عن النبي ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم، والتابعين - رحمهم الله - .
- ٢- الاعتناء في رواية التفسير بالإسناد إلى صاحب التفسير المروي عنه، دون الاعتناء بتحري الصِّحَّة في الرواية، تاركين مهمة البحث والحكم لمن يأتي من بعدهم من خلال دراسة ما جمعوه رواية ودراية.
- ٣- التوسع في رواية الإسرائيليات في التفسير، ودُوِّن الكثير منها في هذه المرحلة.
- ٤- جُمِّع أقوال السابقين، ومناقشتها، ومحاولة الترجيح بينها.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٣٢٢/٢٠).

(٢) ابن خلكان، وفَيَات الأعيان: (٣٣٨/٢).

٥- بُرُوز اجتهادات المفسرين بصورة واسعة، ومحاولة استنباط معاني خاصة بهم برزت من خلال تفاسيرهم مع الاعتناء بالرواية، كما فعل محمد بن جرير الطبري في تفسيره.

المرحلة الثالثة: اختصار الأسانيد والتوسع في التفسير:

ثم جاءت المرحلة الثالثة، وهي مرحلة اختصار الأسانيد والتوسع في التفسير، وظهر المصنفات المتنوعة من حيث الاختصار والتوسع، والتباين من حيث الاتجاهات والمناهج. هذه المرحلة هي مرحلة واسعة وممتدة إلى يومنا هذا، وقد أخذ التفسير فيها منح شتى، ولكن أبرز ملامح هذه المرحلة ما يلي:

- ١- أُلِّف في التفسير خلقٌ كثير، فاختصروا الأسانيد، وتركوا عَزْوَ الأقوال إلى قائلها؛ مما أدى إلى اختلاط الصحيح والضعيف، وزُحمت كتب التفاسير بالروايات الضعيفة والموضوعة.
- ٢- التوسع في التفسير بالرأي المحمود والمذموم؛ مما جعل أصحاب المِلَلِ المنحرفة من معتزلة، ورافضة، وأشاعرة، وغيرهم، يُحرفون تفاسير الآيات وفق عقائدهم الباطلة، ومذاهبهم المنحرفة، كما فعل الزمخشري في تفسيره (الكشاف)^(١).
- ٣- توسّع الناس في رواية الإسرائيليات والخوض فيما لا فائدة في معرفته، واشتغلوا بهذا عن البحث الجاد الأسمى في أمور الدين.
- ٤- تنوعت اهتمامات المفسرين، واعتنى أصحاب كلِّ علم بتقليب علمهم في التفسير، فالفقيه المفسر؛ نجده يعتني في تفسيره بالمسائل الفقهية واستنباط الأحكام الشرعية كما فعل ابن العربي، والقرطبي، والجصاص، وغيرهم. والنحوي؛ تجده ركز على الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه، وقد ينتصر لمذهبه النحوي، أو يردّ قراءة متواترةً بحجة مُخالفتها لوجه نحوي لا يوافق مذهبه النحوي كالزجاج، والواحدي، وأبي حيان. وصاحب العلوم العقلية؛ ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وشُبّههم والرد عليهم، كالفخر الرازي. وصاحب البلاغة؛ يهتم بإبراز جانب البلاغة والإعجاز، كما فعل الزمخشري في الكشاف. والإخباري؛ ليس له همٌّ إلا سردُ القصص واستيفائها كالثعلبي. وهكذا

(١) الرُّزْقاني، مناهل العرفان: (١/٥٠١).

تعددت مناهج المفسرين، واختلفت اتجاهاتهم.

٥- تعدد الأقوال في الآية الواحدة.

ونتيجة لهذه المرحلة الواسعة في التفسير، والتي تأثر فيها التفسير بصورة واضحة وكبيرة بعقائد ومذاهب وثقافة مؤلفيه، ودخل في كتب التفسير الغث والسمين، والصحيح والعليل، وأصبح الأخذ من كتب التفاسير يحتاج إلى معرفة كاملة بمنهج كل مفسر، والأسس التي بنى عليها تفسيره، وأبرز المؤثرات والملاحظات عليه؛ لذا وضع العلماء مادة أصول التفسير ومناهج المفسرين؛ لتوضيح المنهج السليم، وتكشف عن مناهج المفسرين أمام الباحثين والدارسين، وتزويدهم بأسس ومعالم تجعلهم يتعاملون مع هذه التفاسير بصورة علمية صحيحة، يأخذون ما فيها من خير وحق، ويدعون ما سواه.

أشهر من دؤن التفسير في هذه المرحلة:

- ١- معالم التنزيل، للبغوي.
- ٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية.
- ٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي.
- ٤- الكشاف للزمخشري.
- ٥- مفاتيح الغيب للرازي.

* * *

ملف الإنجاز:

- (١) ترجمي خمسة من أشهر المفسرين من التابعين؟
- (٢) قارني بين تفسير الصحابة وتفسير التابعين، من حيث مصادر كل منهما وسماته.
- (٣) اذكرني ثلاثة نماذج لتفسير التابعين.
- (٤) قارني بين منهج الطبري ومنهج ابن أبي حاتم في التعامل مع تفسير التابعين.
- (٥) اكتبني مقالاً عن أهمية تفسير التابعين.
- (٦) اكتبني مقالاً في تاريخ التفسير من بدايته بالرواية حتى التدوين؟
- (٧) اذكرني خمسة مراجع عُنت بتفسير التابعين.

مصادر التعلم:

- (١) الاستماع لمحاضرة: قصة التفسير لشيخنا الدكتور حكمت بشير (محاضرة صوتية).
- (٢) تلخيص كتاب التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور.
- (٣) مقدمة تفسير ابن جرير الطبري.
- (٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية.
- (٥) التفسير النبوي مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثة لأحاديث التفسير النبوي الصحيح، الدكتور خالد بن عبد العزيز الباتلي، دار كنوز أشبيليا، السعودية، (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).
- (٦) تفسير الصحابة، عبدالله أبو السعود بدر، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- (٧) تفسير التابعين: عرضٌ ودراسةٌ مُقارَنة، مُحمد عبد العزيز الخضير، دار الوطن للنشر، السعودية، بدون تاريخ.

التقويم:

- (١) اذكر في نقاط الخطوات التي مرَّ بها التفسير من التلقي شفاهة حتى التدوين؟
- (٢) ما القيمة العلميَّة لتفسير التابعين؟ وما مدى حُجيتهم؟
- (٣) لماذا كان لتفسير التابعين هذه القيمة البالغة؟
- (٤) كيف تُرَّجَّح بين أقوال التابعين إن تعارضت؟
- (٥) متى يُقبل تفسير التابعي؟ ومتى يُرد؟
- (٦) اذكر ثلاثة من بَوَاكِرِ كتب التفسير المُسنَّدة.
- (٧) ما الفرق بين التفسير والتأويل؟
- (٨) ما فائدة علم أصول التفسير لمن يقرأ في كتب التفاسير؟
- (٩) اذكر أسباب تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في فهم معاني القرآن.

* * *

الموضوع الثالث

طرق التفسير



أولاً: التفسير بالمأثور:

تعريفه:

هو الذي يعتمد على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة؛ لأنها جاءت مبيّنة لكتاب الله، أو بما رُوي عن الصحابة؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين؛ لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية فيذكرها، ولا يجتهد في بيان معنى من غير أصل، ويتوقف عمّا لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح.

فضله ومكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلىها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الله تعالى؛ فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الرسول ﷺ؛ فهو المبيّن لكلام الله تعالى، وإما أن يكون بأقوال الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم فهم الذين شاهدوا التنزيل، وهم أهل اللسان، وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول، ومن التابعين من أخذ التفسير كلّهُ عن الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم، فعن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أستوقفه عند كلّ آية وأسأله عنها"^(١).

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق شاکر: (٩٠/١).

أسباب الوضْع في التفسير بالمأثور:

نشأة الوضْع في التفسير:

نشأ الوضْع في التفسير مع نشأته في الحديث؛ لأنهما كانا أول الأمر مزيجًا لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد في الحديث: الصحيح، والحسن، والضعيف، وفي زواته: مَنْ هو موثوقٌ به، ومَنْ هو مشكوكٌ فيه، ومَنْ عُرف بالوضْع، نجد مثل ذلك فيما رُوِيَ من التفسير، ومَنْ رَوَى من المفسرين. وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسياً، وتفرقوا إلى شيعة، وخوارج، وجمهور، ووُجدَ من أهل البدع والأهواء مَنْ رَوَّجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام مَنْ تَبَطَّنَ الكفر والتَّحَفَ الإسلام؛ بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة؛ ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة، ورجبتهم الخبيثة^(١).

أسبابه:

يرجع الوضع في التفسير إلى أسباب متعددة، منها:

- ١- **التعصب المذهبي:** فإنَّ ما جَدَّ من افتراق الأمة إلى شيعة تطرَّفوا في حبِّ عليٍّ عليه السلام، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العدا، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهنَّ شيءٌ من ابتداع التشيع أو الخروج؛ جعل كلَّ طائفة من هذه الطوائف تُحاول بكلِّ جهودها أن تؤيد مذهبها بشيءٍ من القرآن؛ فنسب الشيعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وإلى عليٍّ وغيره من أهل البيت - رضی الله عنهم - أقوالاً كثيرة من التفسير تشهد لمذهبهم، كما وَضَعَ الخوارج كثيراً من التفسير الذي يشهد لمذهبهم، ونسبوه إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى أحدِ أصحابه، وكان قصد كلِّ فريقٍ من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى أحدِ أصحابه؛ الترويج للمروى، والإمعان في التدليس، فإن نسبة المروي إلى الرسول صلى الله عليه وآله أو إلى أحد الصحابة رضي الله عنهم، تُورث المروي ثقةً وقبولاً لا يوجد شيءٌ منهما عندما يُنسب المروي لغير النبي صلى الله عليه وآله أو لغير صحابي.
- ٢- **اللون السياسي:** في هذا العصر يتزكُّ له أثرًا بيِّنًا في وَضْعِ التفسير، ويُلاحظ أن المروي عن عليٍّ

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١١٦).

وابن عباس - رضی الله عنهما - قد جاوز حدَّ الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضع عليهما في التفسير أكثر مما وُضع على غيرهما، والسبب في ذلك أنَّ عليًّا وابن عباس - رضی الله عنهما - من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضوع ثقةً وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشيء مما يُنسب إلى غيرهما، وفوق هذا فقد كان لعليٍّ من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يُعلي من قدره، ويرفع من شأنه، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوجد من الناس مَنْ تزلّف إليهم، وتقرّب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس رضي الله عنه، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثرٌ ظاهر في وضع التفسير.

٣- ما قصده أعداء الإسلام: الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدسِّ والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحجّة^(١).

٤- الترغيب أو الترهيب مع الجهل بالدين:

مع أن في الصحيح مندوحة عن الضعيف والموضوع؛ فقد لجأ بعض الجهال إلى وضع أحاديث لترغيب الناس في أعمالٍ مُعيّنة، منها ذلك الحديث الموضوع في فضائل القرآن سورةً سورةً، ووضعه قومٌ يُنسبون إلى الزُّهد؛ وضعوه حسبةً، أي احتساباً للأجر عند الله في زعمهم، فقُبلت موضوعاتهم - عند بعض العوام - ثقةً بهم ورؤوفاً إليهم لما تُسبوا إليه من الزُّهد والصَّلاح، ولهذا قال يحيى القطان: "ما رأيتُ الكذب في أحدٍ أكثر منه فيمن يُنسب إلى الخير"؛ أي لعدم علمهم بتفرقة ما يجوز لهم وما يمتنع عليهم، أو لأنَّ عندهم حُسْنُ ظنٍّ وسلامةٌ صدرٍ؛ فيحملون ما سمعوه على الصدق، ولا يهتدون لتمييز الخطأ من الصواب، لكن الوضّاعون منهم وإن حَفِيَ حاهم على كثيرٍ من الناس فإنه لم يخفَ على جهابذة الحديث وثقاده، وقد قيل لابن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعه؟ فقال: "تعيش لها الجهابذة"^(٢).

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١/١١٦).

(٢) زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)

ومن أمثلة ما وُضِعَ حِسْبَةً ما رواه الحاكمُ بسندهِ إلى ابنِ عمَّارِ المَرْوَزِيِّ أنه قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم: "من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورةً سورةً، وليس عند أصحابِ عكرمة هذا؟" فقال: "إني رأيت الناسَ قد أعرضوا عن القرآنِ واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي ابنِ إسحاق؛ فوضعتُ هذا الحديثَ حِسْبَةً"، وكان يُقال لأبي عصمة هذا: نوحُ الجامع، قال ابن حبان: "جمَع كلَّ شيءٍ إلا الصِّدقَ!"^(١)

"ومن هؤلاء الوضَّاعينَ غُلامُ خَلِيل، وقد كان زاهداً متخلِّياً عن الدُّنيا وشهواتها، منقطعاً إلى العبادة والتقوى، محبوباً من العامة، ومع ذلك فقد زَيَّنَ له الشيطان وضعَ أحاديث في فضائل الأذكار والأورادِ حتى قيل له: هذه الأحاديث التي تَحَدَّثَ بها من الرقائق؟ فقال: "وَضَعْنَاهَا لِنُرَقِّقَ بِهَا قُلُوبَ الْعَامَّةِ".^(٢) ومن العجيب أن بغداد أغلقت أسواقها يوم وفاته حُزناً عليه، قال الذهبي في السير في ترجمة (غُلام خليل): "الشيخ، العالم، الزاهد، الواعظ، شيخ بغداد... سكن بغداد وكان له جلاله عجيبة، وصَوْلَةٌ مهيبة، وأمرٌ بالمعروف، وأتباعٌ كثير، وصحة معتقد، إلا أنه يروي الكذب الفاحش، ويرى وضع الحديث. نسأل الله العافية".^(٣)

أنواع التفسير بالموضوع:

ينقسم التفسير بالموضوع إلى قسمين:

القسم الأول: وضع في القول المفسِّر:

لو نظرنا إلى هذا القسم من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية؛ لأنه مهما كثر الوضع في التفسير؛ فإن الوضع ينصبُّ على الرواية نفسها، أما

شرح عِلل الترمذي، تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد ط. مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن. ط. ١. (١٤٠٧هـ): (٤٧٧/١).

(١) السيوطي، تدريب الراوي، مكتبة الرياض الحديثة: (٢٨٣/١).

(٢) مصطفى السباعي، السُّنة ومكانتها للسباعي ط. المكتب الإسلامي: (٨٧/١).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء: (٢٨٣/١٣).

التفسير في حد ذاته فليس دائماً أمراً خيالياً بعيداً عن الآية، وإنما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علمي له قيمته.

فمثلاً مَنْ يضع في التفسير شيئاً وينسبه إلى عليّ أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يُلقيه على عواهنه، وإنما هو رأى له، واجتهاد منه في تفسير الآية، بناه على تفكيره الشخصي، وكثيراً ما يكون صحيحاً، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولاً، فنسبه إلى مَنْ نُسب إليه من الصحابة، ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى عليّ أو ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية غالباً، وإنما الشيء الذي لا قيمة له فيه هو نسبته إلى عليّ أو ابن عباس.

القسم الثاني: وضع في الرواية المُسندة ونسبتها:

هذا النوع يُهم الباحث في التفسير درسه وبجته، ومعرفة صحيحه وسقيمه.

مصادر التفسير بالمأثور:

١- القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير، ومن أمثله تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَلَقَّحْ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

٢- السنة:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - : "السنة تفسر القرآن وتبينه"^(١).
ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة، تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وتفسير الحيط الأبيض والحيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل.

(١) القرطبي، جامع لأحكام القرآن: (٣٩/١).

٣- أقوال الصحابة:

وإذا لم نجد تفسير القرآن في القرآن، ولا في السنة؛ فعليك بتفسير الصحابة - ﷺ - فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول ﷺ ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤- أقوال التابعين:

وقد اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة ﷺ، فمنهم من عدّ أقوال التابعين مصدرًا من مصادر التفسير بالمأثور، ومنهم من عدّها كسائر أقوال العلماء.

** إثراء:

أوجه بيان السنة للكتاب:

السنة النبوية: هي المصدر الثاني من مصادر التفسير، ولقد جاءت مبيّنة للقرآن الكريم، ومن أوجه بيانها:

الوجه الأول: بيان المُجمل في القرآن، وتوضيح المُشكّل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق:

فمن الأول: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج.

ومن ذلك قوله ﷺ: «... وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» ^(١)، وعن جابرٍ ﷺ قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ» ^(٢).

ومن الثاني: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، بأنه بياض النهار وسواد الليل.

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث مالك بن الحويرث ﷺ، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة: (١/١٥٤)، (ح ٦٣١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»: (٢/٩٤٣)، (ح ١٢٩٧).

ومن الثالث: تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] بالشرك، فإن بعض الصحابة رضي الله عنهم فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قالوا: وأئنا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «لَيْسَ بِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكَ».

ومن الرابع: تقييده اليد في قوله تعالى: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] باليمين، وأنه إلى مِفْصَلِ الكَفِّ.

الوجه الثاني: بيان معنى لفظٍ أو مُتعلِّقِهِ، كبيان: (المغضوب عَلَيهِمْ) باليهود، و(الضالين) بالنصارى، وكبيان قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]، بأنها مُطَهَّرَةٌ من الحيض والبُرْاق والتُّخامة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم، كتحریم نكاح المرأة على عماتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحسن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يُبَيِّن رسول الله ﷺ أن آية كذا نُسِخَتْ بكذا، من ذلك نسخُ آياتِ الموارِيثِ لآيةِ الوصية للوارث: روى الترمذي في السُّنَنِ عن أبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول في حُطْبَتِهِ عامَ حَجَّةِ الوداعِ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لوارثٍ»^(١).

فلقد نُسِخَتْ آياتُ الموارِيثِ آيةَ الوصيةِ، كما جاء بيانُ ذلك في السُّنَّةِ.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتي السُّنَّةُ موافقة لما جاء به الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته، وذلك كقوله ﷺ: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»^(٢)، فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

(١) رواه الترمذي في سُنَنِهِ كتاب الوصايا عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، باب ما جاء لا وصية لوارث: (ح-٢٢٠٣)، وقال: (هذا حديثٌ حسنٌ)، ورواه ابن ماجة في السُّنَنِ، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث: (ح-٢٧١٤)، وقال صاحب الزوائد: (إسناده صحيح).

(٢) السُّنَنِ الكُبرى للبيهقي، باب من غَصَبَ لَوْحًا فأدخله في سفينة، أو بنى عليه جدارًا: (ح-١١٥٤٥).

حُكم التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

- ١- ما توافرت الأدلة على صحته؛ فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العُدُول عنه.
- ٢- ما لم يصح؛ فيجب رده، ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به؛ إلا للتحذير منه^(١).

أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور:

١. جامع البيان في تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، وهذا الكتاب عُمْدَةٌ في باب التفسير بالمأثور، وموسوعة في اللغة والقراءات، وللإمام الطبري اجتهادات واختيارات مُوقَّعة.
٢. تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم، الإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، وهو موسوعةٌ فريدةٌ في أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.
٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي: أبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت: ٤٢٧هـ)، وهو مرجعٌ أساسيٌّ استفاد منه البغوي كثيرًا.
٤. الثُكَّت والعيون (تفسير الماوردي): لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت: ٤٥٠هـ)، وهو جامعٌ مختصر للتفسير بالمأثور عن السلف.
٥. معالم التنزيل: للبغوي الحسين بن مسعود (ت: ٥١٦هـ)، وله أسانيدُه التي ذكرها في مقدمة كتابه، فضلاً عن استفادته من تفسير الثعلبي، وله عنايةٌ باللغة والقراءات.
٦. زاد المسير في علم التفسير: للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٦هـ)، وهو جامعٌ مختصر للتفسير بالمأثور عن السلف.
٧. تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، وهو مرجعٌ أساسيٌّ لا غنى عنه، وقد جمع فيه الأحاديث والآثار، وله صياغةٌ رصينةٌ، وتحقيقاتٌ علميةٌ، وتتبعٌ للإسرائيليات، وعنايةٌ بالفقه.

(١) دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي: (ص ١٥٤).

٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، وقد جمع فيه من مراجع أصيلة مُسنّدة، منها ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود، كتفسير ابن مردويه.
٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت: ١٢٥٥هـ)، وقد اعتمد على تفسير القرطبي في جانب الرأي والدر المنثور في جانب الرواية، مع دقة ورصانة، وإسقاطات كثيرة على عصره وانتقادات للبدع والأهواء. هذا فضلاً عن أبواب التفسير بالمأثور في كتب السنة.

* * *

ثانياً: التفسير بالرأي:

المراد منه: الرَّأْيُ: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ لِمَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فالرَّأْيُ بِمَعْنَى الاجْتِهَادِ، والرَّأْيُ بِمَعْنَى الاعتقاد، والرَّأْيُ بِمَعْنَى القِيَّاسِ، والرَّأْيُ: التَّفَكُّرُ فِي مَبَادِيءِ الْأُمُورِ، والنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِهَا^(١).
والمرادُ بالرَّأْيِ هُنَا هُوَ الاجْتِهَادُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ.

التعريف بالتفسير بالرأي:

التفسير بالرأي: عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد^(٢).

شرطه:

تفسير القرآن بالاجتهاد؛ بما لا يُخالف نصًّا، ووفقًا للقواعد والأصول التي بيَّنها المفسِّرون، ومع الدِّرَايَةِ الكافيةِ بكلِّ ما يحتاجه المفسِّر من علومٍ وأدوات.

أقسام التفسير بالرأي:

ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

القسم الأول: التفسير بالرأي المحمود:

"وهو ما كان على علم، أو غلبة ظن، فيكون بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، ومستندًا للنصوص، والأدلة الشرعية".

و هذا النوع هو الذي دعا به رسول الله ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما - : «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي

الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٣).

حُكْمُ التفسير بالرأي المحمود:

أجاز العلماء هذا النوع، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتي:

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٥٣٧/٣)، والفيومي، المصباح المنير: (٢٤٧/١).

(٢) الذهبي، التفسير والمفسرون: (١٨٣/١).

(٣) صحيح ابن حبان: ذِكْرُ وَصْفِ الْفِئَةِ وَالْحِكْمَةِ اللَّذَيْنِ دَعَا الْمُصْطَفَى ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ بِهَمَّا، (ح٧٠٥٥)، قال

الألباني: صحيح.

أولاً - بنصوصٍ وردت في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ

قُلُوبٍ أَقْفَالهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

﴿٣٩﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهٖ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ

وَالِإِلَى الْأُمَمِ الْأَمْرُ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ووجه الدلالة في هذه الآيات: أنه

تعالى حثَّ في الآيتين الأولتين على تدبُّر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلَّت الآية الأخيرة على أن في القرآن ما يستنبطه أولوا الألباب باجتهادهم، ويصلُّون إليه بإعمال عقولهم.

ثانياً - قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطلٌ بيِّن البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم أمام أربابه، والمجتهد في حكم الشرع مأجور، أصاب أو أخطأ، والنبي ﷺ لم يُفسر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثاً - استدلوا بما ثبت من أن الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ، إذ أنه لم يُبيِّن لهم كل معاني القرآن، بل بيَّن لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم.

رابعاً - قالوا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس - رضِيَ اللهُ عنهما - ، فقال في دعائه له: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١)، فلو كان التأويل مقصوراً على السَّماعِ والتَّقْلِ كالتَّنْزِيلِ، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء؛ فدَلَّ ذلك على أن التأويل الذي دعا به الرسول ﷺ لابن عباس أَمْرٌ آخِرٌ وراء النقل والسَّماعِ، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، وهذا بيِّنٌ لا إشكال فيه.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ - يعني في التفسير - بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حَرَجَ عليه"^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (ص ١١٤).

القسم الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

تعريفه: "هو تفسير القرآن الكريم دون مراعاة لأصول التفسير وقواعده؛ تعصباً لمذهبٍ ضالٍّ، كالمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والرافضة".

ظهر الرأي المذموم في التفسير وانتشر؛ لما ظهرت البدع؛ لأن أهل البدع يعتقدون رأياً، ثم يكون لهم مع النصوص طريقان:

الأول: نفي الدلالة الظاهرة التي تُخالف مذهبهم.

الثاني: حملُ المعنى على ما يعتقدون، وإن لم يكن يُراد به المعنى الذي ذهبوا إليه.

وفي مثل هؤلاء قال ابن تيمية - رحمه الله - : "أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم"^(١).

حكم التفسير بالرأي المذموم:

حَرَّمَ العلماء هذا النوع من التفسير، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتي:

أولاً: فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَنَا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا

تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا

﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

في هذه الآيات نَهْيٌ وتشنيع على القول على الله بغير علم؛ ففي الآية الأولى جعله من المحرمات، وفي الآية الثانية جعله من اتباع خطوات الشيطان، وفي الآية الثالثة جعله منهيًا عنه، وفي هذا كله

(١) المرجع السابق: (ص ٢١).

دليل على عدم جواز القول على الله بغير علم.

ثانياً: استدلووا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ

﴾ [النحل: ٤٤]، فقد أضاف البيان إليه، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

ثالثاً: استدلووا بما ورد في السنة من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك:

١- رَوَى التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «اتَّقُوا

الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

٢- رَوَى التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ جُنْدُبٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ

فَأَصَابَ فَقَدْ أَحْطَأَ»^(٢).

رابعاً: ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التي تدل على أنهم كانوا يُعَظِّمُونَ

تفسير القرآن ويتحرَّجون من القول فيه بأرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبي مليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من

القرآن فقال: "أيُّ سماءٍ تُظَلِّي، وأيُّ أرضٍ تُقَلِّي، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلتُ في حرفٍ من

كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى"^(٣)؟

وما ورد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سُئِلَ عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سُئِلَ عن تفسير

آية من القرآن سَكَتَ كأن لم يسمع شيئاً^(٤).

وما رُوِيَ عن الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "ثَلَاثٌ لَا أَقُولُ فِيهِنَّ حَتَّى أَمُوتَ: الْقُرْآنَ، وَالرُّوحَ، وَالرَّأْيَ"^(٥).

(١) سنن الترمذي: باب الذي يُفسر القرآن برأيه: (ح ٢٩٥١)، قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن).

(٢) سنن الترمذي: باب الذي يُفسر القرآن برأيه: (ح ٢٩٥٢).

(٣) الطبري، جامع البيان: (٧٨/١).

(٤) المرجع السابق: (٧٨/١).

(٥) المرجع السابق: (٧٨/١).

وهذا ابن مجاهد يقول: "قال رجل لأبي: أنت الذي تُفسّر القرآن برأيك؟ فبكى أبي، ثم قال: إني إذن لجريء، لقد حملتُ التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ورضى عنهم" (١).

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولةٌ على تحرّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما مَنْ تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا زوي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كلّ أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَبَيَّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طريق: «مَنْ سئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» (٢) «(٣).

وقال النووي - رحمه الله - : "ويحرمُ تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقدٌ عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائزٌ حسنٌ، والإجماع مُنعقدٌ عليه...، وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامعٍ لأدواته؛ فحرامٌ عليه التفسير؛ لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله" (٤).

إذا عُلِمَ هذا؛ فينبغي الحذر الشديد من القول في التفسير بغير علم.

أهم الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي المحمود:

- معاني القرآن: للفرّاء الحافظ أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الكوفي اللغوي المقري البغدادي (ت: ٢٠٧هـ).
- المحرر الوجيز: لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ).

(١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: (١٢/١).

(٢) سنن ابن ماجة: باب من سئل عن علم فكتمه: (ح ٢٦٤)، قال الشيخ الألباني: (صحيح).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (١١٤-١١٥).

(٤) النووي، التبيان في آداب حملة القرآن: (ص ١٦٥).

- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوي عبدالله بن عمر (ت: ٦٨٥هـ).
- البحر المحيط: لأبي حيان محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت: ٧٥٤هـ).
- اللُّبَاب فِي عُلُومِ الْكِتَاب: لابن عادل الحنبلي الدمشقي، فرغ من تأليفه في رمضان من سنة (٨٧٩هـ).
- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٦٨٤هـ)، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد مصطفى العمادي الحنفي (ت: ٩٨٢هـ).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ).
- تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار": للسيد محمد رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ).
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت: ١٣٩٣هـ).
- أيسر التفاسير: للشيخ أبي بكر جابر الجزائري.
- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: لمحمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهري الشافعي.

أهم الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي المذموم:

- ١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ).
- ٢- هيمان الزاد إلى دار المعاد: لمحمد بن يوسف أطفيش.
- ٣- حقائق التفسير: أبو عبدالرحمن السلمي.
- ٤- تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضي عبد الجبار المعتزلي.
- ٥- غرر الفوائد ودرر القلائد: الشريف المرتضي علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين الشيعي.
- ٦- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي.
- ٧- تفسير كتاب الله العزيز: هود بن مُحَكَّم الهواري.
- ٨- تفسير القرآن العظيم: أبو محمد سهل التستري.
- ٩- الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي.
- ١٠- البيان في تفسير القرآن: محمد جواد مَغْنِيَة.

نموذج من التفسير الصوفي المنحرف:

ذكر ابن عربي في تفسيره لقوله تعالى في سورة نوح: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] يقول: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا﴾، فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهو الحيرة، ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ في عين الماء، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد" (١).

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون: (٣٠٤/٢).

الموضوع الرابع

مناهج المفسرين

جامع البيان في تأويل أي القرآن لابن جرير الطبري

أولاً: مع المفسر: هو الإمام الفقيه المؤرخ المحدث المفسر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ).

ثانياً مع التفسير: طريقته في التفسير: قام المفسر - رحمه الله - بتقسيم الآيات إلى مقاطع يبدأ كل مقطع بقوله: "القول في تأويل قوله تعالى...". ثم يفسر الآية ويستشهد على ما يذكره بالمأثور عن الصحابة والتابعين، وإذا كان في تفسير الآية اختلاف بين المفسرين فإنه يعرض له، ثم يذكر أدلة كل فريق، ويرجح بين الآراء بعد عرضه لأدلة كل فريق.

● مصادره: اعتمد الطبري في تفسيره على مصادر التفسير بالمأثور، كما رجع إلى كتب اللغة، واستعان بكتب الفقه وغيرها، فجمع بين المأثور والرأي، وأثرى تفسيره بتنوع مصادره. موقفه من اللغة: إلى جانب عنايته بالتفسير المأثور، فإن الطبري يعتبر اللغة العربية مصدراً أساسياً من مصادر التفسير فيرجع إليها، ويحتكم إلى كلام العرب، ويستشهد بالشعر وهو ديوان العرب.^(١)

(١) نموذج من تفسيره: عند تفسيره لقوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]: أورد أقوال المفسرين في معنى ﴿التَّنُّورُ﴾، فقال: "قال بعضهم: معناه: انبجس الماء من وجه الأرض، وفار التنور، وهو وجه الأرض، وقيل التنور: هو تنوير الصبح من قولهم: نور الصبح تنويراً، وقيل: التنور أشرف الأرض، والمعنى: أشرف الأرض وأرفعها فار الماء منه، وقال آخرون: هو التنور الذي يُخْتَبَز فيه، أي: إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فإنه هلاك قومك، عن=

تفسير القرآن الكريم وتدبره / الجزء الأول

موقفه من الأسانيد: تميّز هذا التفسيرُ بأسانيدهِ المتصلة إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين، لكن جُلَّ اهتمامه انصرف إلى جمع أكبرِ قدرٍ من الروايات المسندة؛ حتى يتمكن من يأتي بعده من البداية من حيث انتهى - رحمه الله - ، فيمحصوا تلك الروايات ويُحققوها سندًا وامتثًا، وقد قيل: "من أسند لك فقد حملك"، أي حملك مهمة البحث في الإسناد؛ لذا لم يهتم - رحمه الله - بنقد الروايات إلا في أحيان قليلة، نجده يقف من الروايات موقف الناقد البصير:

من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَدَا الْقُرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]، ينتقد ما روي عن عكرمة في بيان معنى السد فيقول: "قال عكرمة: ما كان من صنعة بني آدم فهو السد، يعني بالفتح، وما كان من صنع الله فهو السد، وكان الكسائي يقول: هما لغتان بمعنى واحد، والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنهما قراءتان مُستفِيضَتَانِ في قراءة الأُمصار، ولُغَتَانِ مُتَّفَقَتَا المعنى غير مختلفتان، فبأَيُّهُمَا قرأ القارئُ فمُصِيبٌ، ولا معنى للفرق الذي ذكّر عن أبي عمرو بن العلاء، وعكرمة بين السد والسُد، لأنَّ ما لم نجد لذلك شاهدًا يبيّن عن فرقانٍ ما بين ذلك على ما حُكي عنهما. ومما يُبيّن ذلك أن جميع أهل التأويل الذي روي لنا عنهم في ذلك قول، لم يُحك لنا عن أحدٍ منهم تفصيلٌ بين فتح ذلك وضمّه، ولو كانا مختلفي المعنى لنقل الفصل مع التأويل إن شاء الله، ولكن معنى ذلك كان عندهم غير مُفترقٍ، فيفسّر الحرف بغير تفصيل منهم بين ذلك، وأما ما ذكر عن عكرمة في ذلك، فإن الذي نقل ذلك عن أيوب: هارون، وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقات

=مجاهد قال: نبع الماء في التنور، فعلمت به امرأته فأخبرته". ثم قال بعد أن ذكر اختلاف المفسرين في معنى التنور: "وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿التَّنُورُ﴾ قول من قال: هو التنور الذي يُخبز فيه؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسَلَّم لها، وذلك أنه جلّ ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به". جامع البيان للطبري: (٢٥/١٢). كما يُكثّر من استشاده بالشّعر في بيان المعنى وفي المسائل النحويّة، يُراجع ما ذكره في معنى كلمة السورة والآية في جامع البيان: (٣٦/١).

أصحابه، والسُّدُّ والسُّدُّ جميعًا: الحاجز بين الشيئين، وهما هاهنا فيما ذُكر جبلان سُدٌّ ما بينهما، فَرَدَمَ ذو القرنين حاجزًا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادة غوائلهم وعيشتهم عنهم^(١).
 وكان - رحمه الله - دقيقًا في ذكر السنن وفي تسجيل أسماء الرواة، لأنه اتصل بكثير من العلماء وسمع منهم، فإذا كان قد سمع هو وغيره قال: "حدثنا"...، وإذا كان قد سمع وحده قال: "حدثني"...، وإذا نسي واحدًا من سلسلة الرواية صرح بنسيان اسمه.

عنايته بالقراءات: عَرَضَ وجوه القراءات وَعَزَّاهَا إلى من قرأ بها من الأئمة القراء ورجح ما ارتضاه فقد كان عالمًا بالقراءات، وإن كان لا يجوز الترجيح بين قراءتين متواترتين، ولا تضعيف إحداها طالما أنها قراءة متواترة موافقة لوجه من وجوه اللغة، ولرسم المصحف ولو احتمالاً كما ذكر أئمة القراءات.
موقفه من الفقه: للطبري كتاب اختلاف الفقهاء...، فهو فقيه دارس لاختلاف الفقهاء، بل ومجتهد صاحب آراء واجتهادات...، ومن البداهة أن يعرض للآراء الفقهية ويناقشها في مناسباتها من آيات الأحكام...، وينتهي في مناقشة كل منها إلى ما يستصوبه لكنه لا يسترسل كثيراً في هذا الأمر، ولا يتوسّع فيه.

عرضه للمسائل العقدية: ولقد اهتم الطبري بعرض آراء المتكلمين ومناقشتها ومناصرة مذهب أهل السنة، والرّد على الفرق الضالة، لكنه لم يتوسّع في ذلك^(٢).
القيمة العلمية لهذا التفسير: لقد أثنى عليه المحققون من العلماء، من ذلك ما ورد عن أبي حامد الإسفراييني قال: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً"^(٣).

(١) المرجع نفسه: (١٣/١٦).

(٢) يُراجع ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٨]، جامع البيان للطبري: (١٢٥/٣)، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، نفس المرجع: (٨٨/١)، وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، نفس المرجع: (١٩٤/٦).

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموي: (٤٢/١٨).

وسئل ابن تيمية عن أيّ التفاسير إلى الكتاب والسنة أقرب؟ الزمخشري، أو القرطبي، أم البغوي، أم غير هؤلاء؟ فأجاب - رحمه الله - : "الحمد لله، أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحّها تفسير محمد بن جرير الطبري فإنه يذكّر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي".^(١)

معالم التنزيل للبغوي

أولاً: التعريف بالمفسر: هو العلامة الفقيه المحدث المفسر: الحسين بن مسعود بن محمد البغوي^(٢). يُعرف بابن الفراء^(٣)، ويُلقب بمحيي السنة وركن الدين، ولد سنة (٤٣٣هـ)، وكانت وفاته في شهر شوال سنة (٥١٦هـ) وقد جاوز الثمانين^(٤).

ثانياً: التعريف بالتفسير: مصادره في التفسير:

○ اعتمد البغوي في تفسيره على التفسير بالمأثور، وقد ذكر في مقدمة تفسيره أسانيدُه التي اعتمد عليها غالباً في روايته عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

○ كما أنه استفاد كثيراً من تفسير الثعلبي "الكشف والبيان" مع تجنُّبه - في الأعم الأغلب - ما في هذا التفسير من إسرائيليّات.

○ هذا فضلاً عن رُجوعه إلى كتب اللغة ونقله عن كثيرٍ من علماء اللغة: كابن الأنباري، والأخفش، والأزهري، والخليل بن أحمد الفراهيدي، والزجاج، وسيبويه، والفراء، والكسائي،

(١) مقدمة التفسير ضمن مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية: (٣٨٥/١٣).

(٢) نسبة على غير قياس إلى بلدته (بغشور)، وهي بلدة من بلاد (خراسان) بين (هراة) و(مرو الروذ)، و(هراة) مدينة كبيرة من مدن (خراسان)، فيها بساتين كثيرة، وميأة غزيرة، وهي من المدن التي خربها التتار، و(مروروذ) مدينة على نهر عظيم إليه تنسب - معجم البلدان: (١١٢/٥).

(٣) نسبة إلى صنعة أبيه.

(٤) طبقات المفسرين، للدواودي: (١٥٨/١)، وطبقات الحفاظ: (٤٥٧/١)، وطبقات الشافعية الكبرى: (٧٥/٧)، وشذرات الذهب: (٢١٣/٣).

وقطرب، والمبرّد، وغيرهم.

قال ابن تيمية: "والبغويّ تفسيره مختصر من الثعلبيّ، لكنّه صانَ تفسيره عن الأحاديثِ الموضوعية، والآراءِ المبتدعة"، وقد سئلَ عن أيّ التفاسيرِ أقربُ إلى الكتابِ والسنة؟ الزمخشري أم القرطبي أم البغوي؟ أو غير هؤلاء؟ فأجاب: "... أما التفاسيرُ الثلاثةُ المسئولُ عنها فأسلمها من البدعة والأحاديثِ الضعيفة: البغوي" (١).

موقفه من الإسرائيليات: تجنّب البغويّ في تفسيره كثيراً من الإسرائيليات، لكنه في أحيانٍ قليلةٍ قد يذكرها بدونٍ تعقيبٍ عليها.

موقفه من القراءات: عُني المفسّر بالقراءاتِ فحَرَصَ على عزوها وتوجيهها في ضوء علمه الغزير بها؛ فهو علّم من أعلام القراءات، وله فيها كتاب بعنوان الكفاية (٢)، ولقد ذكّر في مقدمة تفسيره مصادره في القراءات.

موقفه من المسائل النحويّة والبلاغيّة: الملاحظ أنه لا يستطرد إلى بيان ذلك كثيراً، إلا في حدود ما يخدم المعنى، أو يُبيّن معنى القراءة وتوجيهها، أو يدفع إشكالاً.

موقفه من الفقه: اهتمّ البغويّ بإبراز المسائلِ الفقهية، وعَرَضَ الآراءَ مع الترجيح تارةً، وتارةً أخرى يعرضُ دون أن يرحح، لكنّه لم يتوسّع في ذلك (٣).

موقفه من قضايا العقيدة: التزم المفسّر بمنهج أهل السنة في فهم العقيدة، لكنّه لم يتوسّع في عرض قضايا العقيدة، كما أنه انتقَد من خلال تفسيره الفرق الضالّة دون إسهاب (٤).

(١) فتاوى ابن تيمية: (٣٨٦/١٣).

(٢) أشار إليه صاحب كشف الظنون: (١٤٩٩/٢).

(٣) نموذج من التفسير: يُراجع على سبيل المثال ما ذكره البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، معالم التنزيل للبغوي: (٢٦١/١).

(٤) نموذج من التفسير: يُراجع على سبيل المثال ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ =

قيمة هذا التفسير العلميّة: يُعدُّ هذا التفسيرُ من أهمِّ مراجعِ التفسيرِ بالمأثور، وقد كُتِبَ له الانتشارُ والقبولُ وأثنى عليه العلماءُ، قال الإمامُ الذهبيُّ: "وله القَدَمُ الرَّاسِخُ في التفسير"، وقال الإمامُ السُّبكيُّ: "وقدرُهُ عالٍ في الدينِ والتفسيرِ"^(١)، وقال السيوطيُّ: "وكان إمامًا في التفسير"^(٢).

تفسير القرآن العظيم، لابن كثير

أولاً: مع المفسر: هو الإمامُ الحافظُ إسماعيلُ بنُ عُمَرَ بنِ كَثِيرٍ بنِ ضَوْءِ المعروفِ بـ (عماد الدين أبي الفداء) الدمشقي، محدِّثٌ، مؤرِّخٌ، مفسِّرٌ، فقيهٌ، ولد سنة (٧٠١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٧٤هـ)، وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ في التفسيرِ، والحديثِ، وعلومِ الحديثِ، وفي التاريخِ.

ثانياً: مع التفسير: طريقته في التفسير: يذكر الإمام ابن كثير الآية أو الآيات فيشرحها بعبارة سهلة مُوجزة، ثم يوضح ما ورد في تفسيرها من المأثور معتمداً على القرآن والسُّنة وأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

ومن سمات هذا التفسير: عقده فصولاً في موضوعات معينة من خلال التفسير^(٣)، هذا إلى جانب اهتمامه بالمأثور الوارد في سياق التفسير، وفي فضائل السُّور، وأسباب النزول.

■ ومن مميزات هذا التفسير:

● تنبيهه على الإسرائيليات، والأحاديث الضعيفة والموضوعة التي ساقها كثير من المفسرين دون إشارة إلى وضعها وضعفها.

= السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿ [الأعراف: ٥٤]، معالم التنزيل: (٢٣٦/٣)، ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُهَا وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ [الأنعام: ١٠٣]، معالم التنزيل: (١٧٤/٣).

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسُّبكي: (٧٦/٧).

(٢) طبقات المفسرين للسيوطي: (ص ١٢).

(٣) على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره في تفسير سورة الإسراء تحت عنوان: (ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء): (٢/٣)، وما ذكره في تفسير سورة لقمان تحت عنوان: (فصل في الخُمُول والتواضع): (٤٤٧/٣).

- كما أنه يُشير في بعض المواضع إلى المناسبة بين الآيات.
- هذا إلى جانب استعراضه للأحكام الفقهية الواردة من خلال التفسير^(١)، وترجيحه بين المذاهب الفقهية، ولكنه في هذا مُقتصد لا يُسرف في عرض الأحكام الفقهية، ولا يستطرد إلى ذكر التفريعات، والاختلافات المذهبية التي تخرج عن نطاق التفسير^(٢).

الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي

الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: من أشهر المؤلفات في التفسير بالمأثور، ومن المراجع الأساسية في بابِه: ومؤلفُه عَلَمٌ من أعلام التفسير، له إسهاماتٌ عديدةٌ في هذا العلم، وفيما يلي نتحدثُ عن المفسِّر والتفسيرِ:

أولاً: المفسِّر: اسمه ونسبه: هو الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي، وفاته سنة (٩١١هـ)^(٣).

ثانياً: التعريف بالتفسير: هذا التفسير ملخَّصٌ من تفسير "ترجمان القرآن"، حيث اختصر السيوطي الأسانيد واكتفى بذكر الراوي الأعلى مع عزو الأحاديث إلى مواضعها من كتب السنة، وكتب التفسير المسندة، وفي ذلك يقول في مقدمة تفسيره بعد حمد الله ﷻ والصلاة والسلام على النبي ﷺ: "وبعد: فلما ألفتُ كتابَ "ترجمان القرآن"، وهو التفسيرُ المُسنَدُ عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِه ﷺ، وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فخلَّصتُ منه هذا المختصرَ مقتصرًا فيه على متنِ الأثر، مُصدِّراً بالعزو والتخريج إلى

(١) يُراجع التفسير: (٣/٣٣٦، ٢٢٩، ١٨٩).

(٢) يُراجع التفسير: (٤/٣٨٤، ٣٣٧).

(٣) تُراجع ترجمته لنفسه في مقدمة كتابه: "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، وكتاب: "جلال الدين السيوطي" تأليف: مصطفى الشكعة.

كُلِّ كتاب مُعتبر، وسميته: "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، والله أسأل أن يُضاعف لمؤلفه الأجور، ويعصمه من الخطأ والزور، بِمَنِّه وكرمه إنه البرُّ الغفور"^(١).

مصادره: رجع المفسر إلى كُلِّ ما تيسر له الرجوع إليه من كتب السنة: الصحيحين، والسُنن، والمسَانيد، والمصنِّفات، والمعاجم، والأجزاء، بالإضافة إلى كتب التفسير المُسنَّدة: كجامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن مردويه، ومعالم التنزيل للبغوي، وتفسير الثعلبي، والمصنفات في أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وفضائل السُّور والآيات.

طريقته في التفسير: يذكر ما ورد مرفوعاً إلى النبي ﷺ من تفسير مأثور، وما رُوي من أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وما نُقل عن التابعين، لكنه يعتمدُ على مجرد النقلِ دون تعقيبٍ وتمحيصٍ، ومن ثمَّ فقد اشتمل الكتابُ على الصحيح والضعيف، ومع ذلك فللكتابِ قيمتهُ العلميَّةُ: حيث يُعدُّ مرجعاً أساسياً للباحثين في التفسير بالمأثور^(٢).

* * *

(١) الدر المنثور، للسيوطي: (٢/١).

(٢) نفس المرجع: (٢٥/١) باختصار.

التفسير الكبير للرازي

التعريف بالمفسر:

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري الطبرستاني، ابن خطيب الرّي المشهور بفخر الدين الرازي، الفقيه، المتكلم، اللغوي، الخطيب: (ت: ٦٠٦هـ).

منهجه في التفسير:

عنايته بإبراز المناسبات بين السور والآيات؛ وفي ذلك إثراء للمعنى وكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن من خلال تناسق السور وتناسب الآيات.

موقفه من اللغة:

لا يتوسّع الرازي في عرض المسائل النحوية والنكات البلاغية، لكنه يذكر منها ما يُعين على فهم المعنى أو يوجّه قراءة أو يوضح إشكالاً، أو يدفع إبهاماً.

موقفه من الفقه:

يستطرّد الرازي كثيراً لعرض المسائل الفقهية، فيذكر المذاهب في المسألة، وكثيراً ما يميل إلى مذهبه الشافعي.

موقفه من الإسرائيليات:

الرازي مُقلِّدٌ جدّاً في هذا الشأن، وكثيراً ما يتعقّبها ويردّ عليها، لا سيّما تلك التي تقدح في سلامة العقيدة؛ فتنال من عصمة الأنبياء والملائكة عليهم السلام.

موقفه من القراءات:

يتعرّض المفسر لها فيوجّهها ويُفسرّها مع عزوها للأئمة الأعلام الذين رُويت عنهم.

اهتمامه البالغ بقضايا العقيدة وعلم الكلام:

وقد شغّل ذلك حيزاً كبيراً من تفسيره، حتى غلب عليه هذا الجانب، فكان مؤلّماً بعرض آراء وحجج الفرق المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة كالمعتزلة وغيرها.

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

التعريف بالمفسر:

هو الإمام النحوي الفقيه المفسر: محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأندلسي النَّفْزِيُّ. أثيرُ الدِّين، توفي رحمه الله في القاهرة عام (٧٤٥هـ)^(١).

التعريف بالتفسير:

يُعَدُّ هذا الكتابُ من أهمِّ كتبِ التفسيرِ بالرأيِ ومرجعًا من مراجعِ التفسيرِ اللغوي للقرآنِ الكريمِ، حيث يغلبُ عليه الاهتمامُ بالجانبِ النحوي والعناية بالقراءاتِ القرآنية، روايةً وعزواً وحكمًا وتوجيهًا. ومع هذا الاهتمامِ البالغِ بمسائلِ النحوِ، فلقد اهتمَّ المفسرُ بالجوانبِ الأخرى، فتراه يُبيِّنُ معانيِ المفرداتِ، وأسبابَ النُّزولِ، والناسخِ والمنسوخِ، ويستطرِدُ إلى ذكرِ الأحكامِ، ويُورِدُ التفسيرَ بالمأثورِ، وغير ذلك من موضوعاتِ التفسيرِ.

مصادره في التفسير:

من المصادرِ الأساسيةِ لهذا التفسيرِ كتاب "التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير"، وهو من جمع شيخه جمال الدين أبي عبدالله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي المعروف بابن النقيب، كما أكثر أبو حيان النقل عن "الكشاف" للزمخشري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، خاصة ما يتعلق بالمسائل النحوية والأساليب البلاغية مع كثرة تعقُّبِهِ لهما في مسائلِ النحوِ، فضلاً عن انتقاده لِمَا في الكشاف من اعتزاليَّات، ونظرًا لكثرة هذه التعقيبات؛ فلقد قام تلميذه تاج الدِّين أحمد بن عبد القادر بن أحمد (ت: ٧٤٩هـ) بجمع هذه التعقيبات ودراستها، وذلك في كتابه "الدُّر اللقيط من البحر المحيط"، وهو مطبوع بهامش البحر المحيط، كما قام الشيخ يحيى الشاوي المغربي بجمع تعقيبات أبي حيان على الزمخشري في كتاب بعنوان "بين أبي حيان والزمخشري".

(١) الوافي بالوفيات: (٢٦٧/٥)، شذرات الذهب: (١٤٥/٦)، نفح الطيب: (٢٢٩/٣-٣٢١-٣٤٠)، النجوم الزاهرة: (١١١/١٠)، الدُّر الكامنة: (٢٦٦/٢)، فوات الوفيات: (٥٥٥/٢)، الأعلام: (٢٦/٨).

هذا ولقد أبان في مقدمة تفسيره عن طريقته ومنهجه: وفي ذلك يقول - رحمه الله - : "وترتبي في هذا الكتاب أي أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية لفظاً لفظاً فيما يُحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو أكثر؛ ذكرت ذلك في أوّل موضع لتلك الكلمة؛ لئِنظَر ما يُناسب لها من تلك المعاني في كلِّ موضعٍ تقع فيه فُتحمل عليه، ثم أُشْرِعُ في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سببٌ، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءاتِ شاذّها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلّماً على جليّها وخفيّها، بحيثُ أني لا أعادُر منها كلمةً وإن اشتهرت حتى أتكلّم عليها، مُبدِئاً ما فيها من غوامض الإعرابِ ودقائق الآدابِ، من بديعٍ وبيانٍ، مجتهداً أني لا أكرّر الكلامَ في لفظٍ سبق، ولا في جملةٍ تقدّم الكلامُ عليها، ولا في آيةٍ فسّرت، بل أذكر في كثيرٍ منها الحوالةَ على الموضع الذي تُكلّم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرّض تكريراً فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلقٌ باللفظ القرآني، مُحيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أُحيلُ في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكرُ الدليلَ إذا كان الحكمُ غريباً أو خلافَ مشهورٍ ما قال معظمُ الناس، بادئاً بمقتضى الدليل وما دلّ عليه ظاهرُ اللفظ، مرجّحاً له لذلك ما لم يصدّ عن الظاهر ما يجبُ إخراجُه به عنه معرضاً عن الوجوه الإعرابية التي تنزّه القرآنُ عنها، مبيناً أنّها مما يجبُ أن يُعدّل عنه، وأنه ينبغي أن يُحمَل على أحسنِ إعرابٍ وأحسنِ تركيبٍ، إذ كلامُ الله تعالى أفصحُ الكلام فلا يجوزُ فيه جميعُ ما يُجوزُهُ النُحاةُ في شعرِ الشّماخ، والطرماح، وغيرهما، من سلوكِ التقادير البعيدة والتراكيبِ القلقةِ والمجازاتِ المعقّدة، ثم أختتمُ في جملةٍ من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علمِ البيانِ والبديعِ ملخّصاً، ثم أتبعُ آخرَ الآيات بكلامٍ منشورٍ أشرح به مضمونَ تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعاني ملخّصاً جُمَلها أحسنَ تلخيصٍ، وقد ينجُرُ معها ذكرُ معانٍ لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أُمودَجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألممتُ بشيءٍ من كلام الصّوفية بما فيه بعضُ مناسبةٍ

لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يُحْمِلُونَهَا الألفاظ، وتركت أقوال الملمحدین الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيانٍ افتروه على الله ﷻ، وعلى عليٍّ ﷺ، وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل!"^(١).

ومن خلال هذه المقدمة، فضلاً عن التأمل في الكتاب: نضع أيدينا على المنهج الذي سلكه أبو حيان، حيثُ يُمكننا تلخيصه في النقاط الآتية:

طريقته في التفسير:

يقوم المفسر بتقسيم السورة إلى مقاطع، ويتناول كل مقطع على حدة، ثم يبدأ ببيان بعض المفردات، فإذا كان للكلمة أكثر من معنى؛ بيّن ذلك، ثم بيّن المعنى الذي يتناسب مع السياق. وإذا كان للآية سبب نزول بيّنه، وقد يذكر مناسبتها وارتباطها بما قبلها وما بعدها، كما يتناول القراءات الواردة في الآية مع توجيهها، وبيان معانيها، وإذا كان في الآية أحكامٌ بينها ناقلاً كلام الفقهاء بدون توسع في هذا الشأن.

سمات التفسير:

- التوسع في عرض المسائل النحوية، مع بسط الكلام في المسائل الخلافية بين النحويين في ضوء الآيات القرآنية.
- العناية بالقراءات: عزوا، وتوجيهها، وتفسيراً.
- بيان الأحكام الفقهية الواردة والمستنبطة من الآيات بدون توسع في ذلك، مع الإحالة إلى الكتب الفقهية.
- إيراد المناسبات بين الآيات.
- الإحالة إلى المواضع السابقة في التفسير تجنباً للإطالة.
- نقل بعض كلام الصوفية مما فيه مناسبة بين الآيات، مع تجنب تلك الأقاويل والتأويلات التي لا تتوافق مع ظاهر الكتاب والسنة.

(١) البحر المحيط، لأبي حيان: (٤،٥/١).

■ كما تعقب أبو حيان الرمخشري في مواضع كثيرة من تفسيره، حيث أنكر عليه كثيراً من الاعتزاليات وغيرها.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود

يُعدُّ هذا الكتاب من أهمِّ كتُب التفسير بالرأي، فهو مرجعٌ من المراجعِ القِيَمَةِ في بابِه، وفيما يلي نتحدَّثُ عن التفسيرِ والمفسِّرِ، فنقولُ وباللهِ التوفيقُ:

التعريف بالمفسِّرِ:

هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الفقيه المفسِّرِ، ولد في شهر صفر سنة ست وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية (استانبول)، في بيت من بيوت العلم، فيه نشأ وترعرع وأزهر وأينع، وقرأ على والده، وتنقَّل في المدارس، واكتسب علماً كثيراً، ودَرَسَ عند (مؤيِّد زاده)، و(قادري جلي)، ثم دَرَسَ في مُدُنٍ متعددةٍ، وتقلَّد القضاء، ثم أُضيف إليه الإفتاء سنة (٩٥٢هـ)، وصار مرجع الحنفية في الديار الرُّومية، وكان يُجيد اللغات: العربية، والفارسية، والتركية، وكان سريع البديهة، واسع الفكر.

له مؤلفات عدة منها: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، وله حاشية على تفسير "الكشاف" بلَغَ فيها إلى آخر سورة الفتح، وكانت تُقرأ عقيب درس التفسير وسماها "معاقد النَّظَر"، وله رسالة في المسح على الحُقَّين، و"تحفة الطلاب في المناظرة"، وكتاب فتاوى جمعه أحد تلامذته. وكانت وفاته: سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة^(١).

(١) تُراجع ترجمته في العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، لعلاء الدين الرومي: (ص ٤٣٩)، الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي دمشقي: (٣/٣٥)، كشف الظنون لحاجي خليفة: (٢/١٢١٩)، شذرات الذهب في أخبار من قد ذهب، لابن العماد الحنبلي دمشقي: (٨/٣٩٨)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: (١/٢٦١) برقم (١٨٠)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، لعبد الحي اللكنوي: (ص ٨١)، هداية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنِّفين، إسماعيل باشا البغدادي: (٢/٢٥٣)، الأعلام، لخير الدين الزركلي: (٥٩/٧)، معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة: (١١/٣٠١).

التعريف بالتفسير:

هذا التفسير من أهم كتب التفسير بالرأي، يتسم بحسن الصياغة ودقة العبارة، كتبه صاحبه حين لاح له الفرصة لكتابه، مع كثرة مشاغله وأعبائه في القضاء، والفُتيا، والخروج للجهاد. قال عنه الشيخ محمد حسين الذهبي - رحمه الله - : "والحق إن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حُسن الصَّوغ وجمال التعبير، كَشَفَ فيه صاحبه عن أسرارِ البلاغةِ القرآنيةِ بما لم يسبقه أحدٌ إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرةُ هذا التفسيرِ بين أهلِ العلمِ، وشهدَ له كثيرٌ من العلماء..."^(١). وقال عنه صاحبُ الفوائدِ البهيَّةِ في تراجمِ الحنفيةِ: "وقد طالعتُ تفسيره وانتفعتُ به، وهو تفسيرٌ حسنٌ، ليس بالطويلِ المُملِّ، ولا بالقصيرِ المُخلِّ، متضمِّنٌ لطائفَ ونكاتٍ، ومشمِّلٌ على فوائدٍ وإشاراتٍ"^(٢).

مصادره في التفسير:

رجع المفسر إلى كثيرٍ من كتب التفسيرِ بالمأثورِ والرأي، ومن أهم الكتب التي استفاد منها: "الكشاف للزمخشري"، و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، مع حدِّره الشديد مما في الكشاف من اعتراضاتٍ.

سمات التفسير:

- اهتمامه في تفسيره بإبراز بلاغة القرآن الكريم في جمال عباراته، وروعة أساليبه، وسبك تراكيبه.
- عنايته بعرض المسائل النحوية؛ لإبراز المعاني.
- توجيهه للقراءات مع عزوه لها دون توسع في ذلك.
- عنايته بعلم المناسبات لا سيما بين الآيات، وفي هذا أيضاً ما يكشف عن روعة النظم

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي: (٣٤٧/١).

(٢) الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفية، للكنوي: (ص ٨٢).

وجمالِ السَّبْكِ^(١).

■ تجنُّبه للإسرائيليات وتحذيره منها:

● من ذلك رُدُّه على ما وَرَدَ في قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ من إِسْرَائِيلِيَّاتٍ تَقْدُحُ في عِصْمَةِ هَذَيْنِ الْمَلَكَيْنِ^(٢)، لَكِنَّه في مَوَاطِنَ قَلِيلَةٍ يَنْقُلُهَا دُونَ تَعْقِيْبِ عَلَيْهَا مَكْتَفِيًّا بِرَوَايَتِهَا بِصِيغَةِ التَّمْرِيبِ فيقول رُؤْيِي، أو حُكْيِي، من ذلك ما أوردته في شأن هدية بلقيس لسليمان عليه السلام مما هو منقول عن الإسرائيليات^(٣).

قَلَّةٌ اسْتِطْرَادِهِ إلى ذِكْرِ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ: لَكِنَّه يَتَنَاوَلُ آيَاتِ الْأَحْكَامِ بِالتَّفْسِيرِ وَالبَيَانِ دُونَ تَوْسُّعٍ في ذلك.

● ومن المآخذ عليه: إيرادُه للحدِيثِ الْمَوْضُوعِ في فِضَائِلِ السُّورِ دُونَ تَعْقِيْبِ عَلَيْهِ، مَتَأَثِّرًا في ذلك بِالزَّمْخَشَرِيِّ وَالبِيضَاوِيِّ، من ذلك ما ذكره في خاتمة سورة آل عمران^(٤).

(١) من ذلك قوله في بيان الصلة بين قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وبين ما قبلها: "﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾" كلام مستأنف؛ سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، وترهيد الناس فيها، وتوجيه رغبتهم إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها"، نفس المرجع: (١٤/٢)، ويُراجع تفسيره: (٢٥/٢).

(٢) يُراجع تفسيره: (١٢٨/١).

(٣) يُراجع تفسيره: (١٣١/٤)، وقد يقع فيها بحسن نية من ذلك ما أوردته في قصة امرأة (أوريا) أن داود عليه السلام لما أُعْجِبَ بِهَا؛ طَلَبَ من زَوْجِهَا أَنْ يَطْلُقَهَا لِيَتَزَوَّجَ بِهَا، وَزَعَمَهُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا في شَرِيعَتِهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ لَاتِقٍ بِمَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَالقِصَّةُ مَكْذُوبَةٌ مُفْتَرَاةٌ، نفس المرجع: (٢٢١/٧)، وأقول: "إن هذه القصة برمّتها لا أساس لها من الصحة، ولقد بينت ذلك في كتابي "المرأة في القصص القرآني"، وأثبتُّ بطلانَ هذه القصة سندًا وممتنًا، وأن مَرَجَعَهَا إلى العهدِ القديمِ، وهي إفكٌ عظيمٌ افتراه اليهودُ لَعَنَهُمُ اللهُ، يُراجع كتابي "المرأة في القصص القرآني": (٥٧٤/٢: ٥٨٧).

(٤) التفسير: (١٣٧/٢).

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي

يُعَدُّ هذا الكتاب من أهم كتب التفسير وأشهرها، وفيما يلي نتحدّث عن مؤلفه ومنهجه فيه:
فنقول وبالله التوفيق:

التعريف بالمفسّر:

هو الإمام شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. (ت: ١٢٧٠هـ)^(١).

التعريف بالتفسير:

- سَلَكَ الأُلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْهَجَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَرَدَّ عَلَى الْمَخَالِفِينَ لَهُمْ.
- تَوَسَّعَ فِي ذِكْرِ الْمَسَائِلِ النَّحْوِيَّةِ، وَالتَّحْقِيقِ فِي الْخِلَافَاتِ بَيْنَ النَّحَاةِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْفَاضِلُ ابْنُ عَاشُورَ: "وَيُعْرَقُ الأُلُوسِيُّ إِغْرَاقًا يُسْرِفُ فِيهِ فِي مَسَائِلِ الْاِشْتِقَاقِ وَالْإِعْرَابِ حَتَّى يَتَجَاوَزَ مَحَلَّ الْبَيَانِ إِلَى الْقَوَاعِدِ وَالْمُبَاحِثِ"^(٢).
- تَوَسَّعَ فِي بَيَانِ النَّكَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ وَإِبْرَازِ رُوعَةِ وَجَمَالِ الْأَسَالِبِ الْقُرْآنِيَّةِ.
- عُيِّنَ بِإِيرَادِ الْقِرَاءَاتِ مَعَ عَزْوِهَا وَتَوْجِيهِهَا.
- اِهْتَمَّ بِتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ بِذِكْرِ الرَّائِي الْأَعْلَى، وَعَزْوِ الْأَحَادِيثِ إِلَى مَوَاضِعِهَا مِنْ كِتَابِ السُّنَّةِ، مَعَ حَرَصِهِ عَلَى الدِّقَّةِ وَالتَّحْرِي فِي النِّقْلِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ عَاشُورَ: "وَيَتَحَرَّى فِي إِيرَادِ الْأَحَادِيثِ فَيَتَجَنَّبُ الْأَحَادِيثَ الْوَاهِيَّةَ، وَيَحْرُصُ عَلَى ذِكْرِ الْأَسَانِيدِ"^(٣).
- كَمَا يَتَمَيَّزُ هَذَا التَّفْسِيرُ بِشِدَّةِ انْتِقَادِهِ لِلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، سَيِّمًا تِلْكَ الَّتِي تَخَالَفُ النِّقْلَ وَالْعَقْلَ وَتَقْدَحُ فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(١) تُرَاجِعْ تَرْجَمَتَهُ فِي أَعْيَانِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ، لِخَلِيلِ مَرْدَمِ بَك: (ص ٤٧-٥٢)، وَمَعْجَمِ الْمُؤَلِّفِينَ، لِعَمْرِ رِضَا كَحَالَةَ:

(١٢/١٧٥)، وَالْأَعْلَامُ، لِلزَّرْكَلِيِّ: (٥٣/٨).

(٢) التَّفْسِيرُ وَرِجَالُهُ، لِلْفَاضِلِ بِنِ عَاشُورَ: (ص ١٣٨) بِاخْتِصَارِ.

(٣) نَفْسِ الْمَرْجِعِ وَالصَّفْحَةِ.

- كما عُني المفسر ببيان المناسبات بين السور والآيات عنايةً بالغة.
- وتميّز بتحقيقاته العلمية الموسوعية في موضوعات شتى.
- ومن المآخذ عليه استطراده إلى الحديث عن موضوعات لا صلة لها بالتفسير، والإسهاب في أشياء تصرف القارئ عن المعاني والمقاصد القرآنية.

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التعريف بالمفسر:

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبدالله القرطبي، الفقيه المفسر، (ت: ٦٧١هـ)^(١).

التعريف بالتفسير:

يقع هذا التفسير في عشر مجلدات فهو كبير في حجمه، كبير في قيمته العلمية، عُني فيه المفسر بالجوانب الآتية:

- التحليل اللغوي للألفاظ، مع الاستطراد للمسائل النحويّة والنكات البلاغيّة دون إسرافٍ في ذلك.
- عنايته أيضًا بتوجيه القراءات وبيان معانيها، بعد عزوها إلى من قرأ بها من الأئمة الأعلام.
- تجنُّبه للإسرائيليات، وتعقُّبه لها، لكنّه في أحيانٍ قليلةٍ يذكرها دون أن يُعقّب عليها تاركًا الحكم لعقلية القارئ وثقافته.
- ذكره للمناسبات بين الآيات دون توسّع في ذلك.
- توسُّعه في عرض الأحكام الفقهيّة، وكثرة الاستنباطات، دون تعصّبٍ لمذهبه المالكيّ.
- رُجوعه إلى كثيرٍ من كُتب: التفسير، واللغة، والقراءات، والفقه، وربّما ينقل دون أن

(١) طبقات المفسرين، للداوودي: (٦٥/٢)، وطبقات المفسرين، للسيوطي: (ص ٢٨)، والأعلام، للزركلي: (٢١٧/٦).

يعزّو النّقل، وهذه من المآخذ على هذا التفسير، لكنّه يتميّزُ باعتداليه وإنصافه وتعليقاته.

- عنايته بالقضايا العقديّة، مع رده على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة
- كثرة إحالاته على المواضع السابقة في تفسيره؛ خشية الإطالة، وكثيراً ما يُحيل على كتبه، خاصة كتابه "الأسنى" و"التذكرة".

* * *

أنشطة / ملف الإنجاز:

أنشطة

١. اذكر في كتابًا في التفسير بالمأثور وبين مزاياه.
٢. ما هي مصادر الطبري في تفسيره؟
٣. قارن بين منهج ابن أبي حاتم ومنهج الثعلبي في التفسير بالمأثور.
٤. اذكر ثلاثة من صور التفسير بالرأي المذموم؟
٥. اذكر نموذجًا للتفسير الصوفي المنحرف، وناقشيه؟
٦. اذكر نموذجًا لتفسير المعتزلة المخالف لأهل السنة، وناقشيه؟
٧. اذكر نموذجًا لتفسير الرافضة المخالف لأهل السنة، وناقشيه؟
٨. اذكر نموذجًا لتفسير الأشاعرة المخالف لأهل السنة وناقشيه.

ملف الإنجاز

١. اكتب مقالة رصينةً حول التفسير بالمأثور.
٢. اخصي ما تضمنته مقدمة الطبري في تفسيره.
٣. ما هي مصادر السيوطي في الدر المنثور؟
٤. اخصي ما تضمنته مقدمة البغوي في تفسيره.
٥. اخصي ما تضمنته مقدمة السيوطي في الدر المنثور.
٦. اخصي ما تضمنته مقدمة ابن عطية في المحرر الوجيز.

مصادر التعلم:

١. شيخ الإسلام ابن تيمية، مقدمة التفسير.
٢. د. محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة بالقاهرة.

٣. د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون.
٤. د. محمد بن لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير المكتب الإسلامي.
٥. د. فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن.
٦. د. فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة.
٧. الشيخ محمد بن صالح العثيمين، شرح (مقدمة التفسير) لابن تيمية، إعداد وتقديم: الدكتور عبدالله الطيّار، ط. دار الوطن، الرياض.
٨. الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط. ١ (١٤٢٠هـ) - (١٩٩٩م).
٩. التفسير بالرأي والمأثور، د. مساعد بن سليمان الطيّار، الموقع الإلكتروني للدكتور.

التقويم:

١. بيّن أهمية التفسير بالمأثور.
٢. عرّف التفسير بالمأثور لغة واصطلاحًا؟
٣. ما هي طرق التفسير بالمأثور؟
٤. ما هي أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور؟
٥. كيف نتعامل مع الإسرائيليات؟
٦. ما هي أوجه بيان السنة للقرآن؟
٧. عرّف التفسير بالرأي لغة واصطلاحًا؟
٨. ما هي أقسام التفسير بالرأي وحكم كل قسم؟
٩. بيّن أدلة المُجيزين والمانعين للتفسير بالرأي؟
١٠. كيف نُوجّه الآثار التي تحرّج القول في التفسير بالرأي؟
١١. اذكر أهم المؤلفات في التفسير بالرأي المحمود.
١٢. اذكر أهم المؤلفات في التفسير بالرأي المذموم.

الوحدة الثانية



مفاهيم أساسية تتعلق بالمشروع

أهداف الوحدة:

يُتوقع من الدارس بعد إنجائه هذه الوحدة أن:

- (١) يشرح شروط المفسّر.
- (٢) يشرح آداب المفسّر.
- (٣) يُناقش أبرز القواعد التي يحتاج إليها المفسّر.

مفردات الوحدة:

- الموضوع الأول: شروط المفسّر.
- الموضوع الثاني: آداب المفسّر.
- الموضوع الثالث: القواعد التي يحتاج إليها المفسّر.

عدد المحاضرات:

- الدبلوم: (١٢) محاضرة.
- الدبلوم العالي: (٦) محاضرات.

تمهيد:

البحث العلمي النزيه؛ أساس المعرفة الحقّة التي تعود على طلابها بالنفع، وثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر وتنمية العقل؛ ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأي باحثٍ أمرٌ له اعتباره في نُضح ثماره ودُنوّ قُطوفه، والبحث في العلوم الشرعيّة عامّةً، وفي التفسير خاصّةً، من أهم ما يجبُ الاعتناء به، والتعرّف على شروطه وآدابه، حتى يصنّفوا مشرّبُهُ، ويحفظُ روعةَ الوحي وجماله.

* * *

الموضوع الأول

شروط المفسر



ذكر العلماء للمفسر شروطاً نُجملها فيما يأتي:

أولاً: سلامة العقيدة:

فإنَّ مَنْ انْحَرَفَتْ عَقِيدَتُهُ يَعْتَقِدُ رَأْيًا؛ ثُمَّ يَحْمِلُ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَلْفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ^(١)، فَإِذَا فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوَّلَ الْآيَاتِ الَّتِي تُخَالِفُ مَذْهَبَهُ الْبَاطِلَ، وَحَرَّفَهَا حَتَّى تُوَافِقَ مَذْهَبَهُ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَطْلُبُ الْحَقَّ فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْهُ! وَمِنْ هَؤُلَاءِ فَرَّقَ: الْخَوَارِجُ، وَالرُّوَافِضُ، وَالْمُعْتَزِلَةُ، وَغَلَاةُ الصُّوفِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ.

قال ابن القيم - رحمه الله - : " لا يُدْرِكُ معاني القرآن ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرّامٌ على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه"^(٢).

مثال:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال الزمخشري - رحمه الله - : " وهذا دليلٌ بيِّنٌ على تخليد المُسْتَأَقِ"^(٣)، وقد بنى الزمخشري هذا الدليل على مذهب المعتزلة الذين يروون تخليد مُرتكب الكبيرة، وهم لا يخلّدون عند أهل السنة.

(١) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية: (ص ٨٥).

(٢) التبيان في أقسام القرآن: (ص ١٤٣)، ط. دار الكتاب العربي - بيروت (١٤١٤هـ).

(٣) الكشاف: (١/٣٢١).

قال ابن المنير - رحمه الله - في تعقيبه على قول الزمخشري: "وهو بينى على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة، ولا يُساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به، فإن الذي وقع العود إليه مسكوتٌ عنه في الآية، ألا تراه قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فلم يذكر المعود إليه؛ فيحمل على ما تقدّم، كأنه قال: ومن عاد إلى ما سلف ذكره ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، والذي سلف ذكره فعل الربا واعتقاد جوازه، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع.

ولا شك عندنا - أهل السنة والجماعة - أن من تعاطى معاملة الربا مُستَحِلًّا لها، مُكَابِرًا في تحريمها، مسندًا إحلالها إلى معارضة آيات الله البيّنات بما يتوهمه من الخيالات؛ فقد كفر ثم ازداد كفرًا، وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود في الآية من يُقال إنه كافرٌ مُكذِّبٌ غيرُ مؤمن، وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل للزمخشري إذاً على اعتزله في هذه الآية" (١).

ومذهب أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يخلد في النار إلا المشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ثانيًا: التجرد عن الهوى:

فإن الهوى يحمل صاحبه على نُصرة مذهبه ولو كان باطلاً، ويصرفه عن غيره ولو كان حقًا.

قال الشاطبي - رحمه الله - : "جعل الله اتباع الهوى مضادًا للحق، وعدّه قسيماً له؛ كما في قوله تعالى ﴿يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْاَرْضِ فَاٰمُرُكَ بِالنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى﴾ (٢) ﴿اِنَّ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحٰى﴾ [النجم: ٤]، فقد حصّر الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى؛ فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان. وحين توجه الحق في الوحي توجه للهوى ضده" (٢).

(١) تفسير الزمخشري: (٣٢١/١)، تعليق ابن المنير في الحاشية.

(٢) الموافقات: (١٢٩/٢).

مثال:

قال الجصاص - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]: "فيه دلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة؛ لأن الله استخلفهم على الأرض، ومكّن لهم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية؛ لأنه لم يكن مؤمناً في ذلك الوقت"^(١)، وإخراج معاوية من تلك الأوصاف ليس إلا لهوى في نفسه، قال د. محمد حسين الذهبي: "وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابي، ويُفوّض أمره إلى الله، ولا يلوي مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه"^(٢).

ثالثاً: أن يكون المفسر عالماً بأصول التفسير وقواعده:

وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير، وقواعد الترجيح مفتاح للترجيح عند التعارض أو الجمع بين الأقوال إذا أمكن ذلك، ومراعاة السياق والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن الأصل هو الأخذ بظاهر النص، وحمل اللفظ على أشهر معانيه وغير ذلك.

رابعاً: أن يكون عالماً بالحديث رواية ودراية:

إذ إن أحاديث الرسول ﷺ هي المبيّنة للقرآن، بل قد قال الإمام الشافعي - رحمه الله - تعالى: "كلّ ما حكّم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن"^(٣)، وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - : "السنة تفسر القرآن وتبينه"^(٤).

خامساً: أن يكون عالماً بأصول الدين:

وهو "علم التوحيد"؛ حتى لا يقع في آيات الأسماء والصفات في التشبيه، أو التمثيل، أو التعطيل.

(١) أحكام القرآن، للجصاص: (١٩١/٥).

(٢) التفسير والمفسرون: (٣١١/٢).

(٣) المرجع السابق: (ص ٩٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: (٣٩/١).

سادساً: أن يكون عالماً بأصول الفقه:

إذ به يُعرف كيف تُستنبطُ الأحكام من الآيات، ويُستدل عليها، ويُعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والمطلق المقيد، ودلالة النص وإشارته، ودلالة الأمر والنهي... وغير ذلك^(١).

سابعاً: معرفةً بسائر علوم القرآن الكريم:

كالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمناسبات، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والقراءات.

ثامناً: أن يكون عالماً باللغة وعلومها:

كالنحو، والصرف، والاشتقاق، والبلاغة بأقسامها الثلاثة: "المعاني، والبيان، والبديع"؛ ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهذه العلوم مما يُتوصَّلُ به إلى معرفة المعنى، وخواص التركيب، ووجوه الإعجاز فيه.

تاسعاً: معرفةً الدَّخِيل في التفسير:

لتجنُّبه، كالإسرائيليات، والموضوعات، وبدع بعض المفسرين، وآراء أهل الفرق الضالة.

عاشراً: دِقَّةُ الفَهْم:

والتي تُمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة. وهذه الشروط عزيزة المنال؛ ولهذا تخرج كثير من السلف من القول في القرآن بغير علم؛ لتمكُّن الإيمان من قلوبهم، واستحضارهم الخوف من الله تعالى، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم؛ فاعلم أنه من نقص إيمانه.

* * *

(١) أصول التفسير وقواعده، خالد العك: (ص١٨٧).

الموضوع الثاني

آداب المفسر



لا يحصل للتأخر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره؛ وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو هو على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسرٍ ليس عنده علمٌ أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كلها حُجُبٌ وموانعٌ بعضها أكد من بعض، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال سفيان بن عيينة - رحمه الله - : "أنزع عنهم فهم القرآن"^(١).

وكما أن للمفسر شروطاً؛ فإن له آداباً ينبغي عليه الالتزام بها، وهي كثيرة منها:

- (١) **حسن النية وصحة المقصد:** فإنما الأعمال بالنيات، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، وإسداء المعروف لصالح الإسلام، وأن يتطهر من أعراض الدنيا؛ ليسدد الله خطاه، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه.
- (٢) **حسن الخلق:** فالمفسر في موقف المؤدب، ولا تبلغ الآداب مبلغها في النفس؛ إلا إذا كان المؤدب مثلاً يُتذى في الخلق والفضيلة، والكلمة النابتة قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره.
- (٣) **الامتثال والعمل:** فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سُمومٍ معارفه ودقة مباحثه، وحسنُ السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يُقرره من مسائل الدين، وكثيراً ما يُصدُّ الناس عن تلقي العلم من بحر زاخر في المعرفة؛ لسوء سلوكه وعدم تطبيقه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١٥٦٧/٥)، رقم الأثر (٨٩٨٢).

- (٤) تحري الصدق والضبط في النقل: فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يرويه حتى يكون في مأمن من التصحيف واللحن.
- (٥) التواضع ولين الجانب: فالصِّلْفُ العلمي حاجزٌ حصين يُحُولُ بين العالم والانتفاع بعلمه.
- (٦) عزة النفس: فمن حق العالم أن يترقّع عن سَفَاسِفِ الأمور، ولا يغشى أعتاب الجاه والسلطان كالسائل المتكفف.
- (٧) الجهر بالحق: فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.
- (٨) حسن السَّمْتِ: الذي يُكسب المفسّر هَيْبَةً ووقارًا في مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف.
- (٩) الأناة والروية: فلا يسرد الكلام سردًا، بل يُفصِّله، ويبين عن مخارج حروفه.
- (١٠) تقديم من هو أولى منه: فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات، بل يُرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم.
- (١١) حسن الإعداد وطريقة الأداء: كأن يبدأ بذكر سبب النزول، ثم معاني المفردات وشرح التراكيب، وبيان وجوه البلاغة والإعراب الذي يتوقف عليه تحديد المعنى، ثم يُبين المعنى العام، ويصله بالحياة العامة التي يعيشها الناس في عصره، ثم يأتي إلى الاستنباط والأحكام.
- (١٢) استشعار جلالة هذا العلم: فعلم التفسير من أجل العلوم، ذكر الشوكاني في تفسيره: "... فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالترتيب على الاستحقاق، وأرفعها قدرًا بالاتفاق، هو علم التفسير لكلام القوي القدير"^(١)، وهذه الفكرة - وهي جلالة علم التفسير وعلو مكانته - إن امتلأت بها نفس طالب العلم؛ دفعته إلى مضاعفة جهده، وحثَّته على مواصلة ليله بنهاره في البحث، والدرس، والتنقيب، وجعلت التعب لديه راحة، وحوّلت ألم الحرمان من النوم والطعام والمسرات إلى لذة؛ لأن السعي إلى الغايات يكون

(١) الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: (١٧/١) بتصرف، وقريب من ذلك ما ذكره البيضاوي في مقدمة تفسيره، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للإمام البيضاوي: (٣/١).

بحسب أهميتها وقيمتها^(١).

(١٣) **الجدّ والمثابرة في طلب هذا العلم:** كما كان يفعل سلفنا الصالح الذين ضربوا أروع الأمثلة في الطلب، وعرفوا بالدقة والتحري، مهما كابدوا في سبيل ذلك من مشقة، قال ابن عباس رضي الله عنهما - : "مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يمنعني إلا مهابته، فسألته فقال: هما حفصة وعائشة". وقال عكرمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]: "طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله أربع عشرة سنة حتى وجدته". وقال مجاهد - رحمه الله - : "أحب الخلق إلى الله تعالى، أعلمهم بما أنزل"، وقال الحسن - رحمه الله - : "والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيم أنزلت وما يعني بها". وقال الشعبي - رحمه الله - : "رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقبل له: إن الذي يفسرهما رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام، حتى علم تفسيرها"^(٢).

(١٤) **الاستعانة بالله تعالى على فهم كلامه:** إذا كان علم التفسير من أجل العلوم وأشرفها؛ فإنه من أجل النعم وأعظمها؛ لذا ينبغي على كل من طرقت هذا الباب أن يستعين بالعزيم الوهاب، وأن يتوجه إليه سبحانه بإخلاص وتجرّد كي يفتح عليه ويبصره بكلامه تعالى، فالعلم والفهم فضل إلهي، والحكمة عطاء رباني، قال بعض السلف : "فإذا أقبلت على الله تعالى بصدق نية ورغبة لفهم كتابه باجتماع همّ متوكلا عليه أنه هو الذي يفتح لك الفهم لا على نفسك فيما تطلب ولا بما لزم قلبك من الذكر؛ لم يخينك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله".



(١) محمد بن لطف الصباغ، بحوث في أصول التفسير المكتب الإسلامي ط. ١٠ (١٤٠٨هـ): (ص ٢٠).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المقدمة: باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله" (١/٥٩).

الموضوع الثالث

القواعد التي يحتاج إليها المفسر



كما أن لمعرفة القواعد الفقهيّة والقواعد اللغويّة أهمية بالغة، كذلك لمعرفة القواعد التفسيرية؛ لذا اعتنى العلماء بهذه القواعد وتمثلوا بها في كتبهم، وعُني بعض المتقدمين والمتأخرين بجمعها، وتأصيلها، وتطبيقاتها، وفيما يلي نتحدث عن هذه القواعد، ونُفصّل القول في بعضها.

تعريف قواعد التفسير وبيان أهميتها ومصادرها:

أولاً: القواعد لغةً: جمع قاعدة، وهي الأساس الذي يُبنى عليه، وكلُّ قاعدة تُعدُّ أصلاً لما فوقها، ومعنى القواعد اصطلاحاً: هي: "كلُّ حكمٍ كَلِّمِي يُتَعَرَّفُ مِنْ خِلَالِهِ عَلَى أَحْكَامٍ مَا يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ مِنْ جُزْئِيَّاتٍ".

وقواعد التفسير هي: "أحكامٌ كَلِّمِي تُعَيَّنُ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَاسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِهِ".

ثانياً: أهميتها: ولا بد لمن طرّق باب التفسير أن يكون على دراية بقواعده التي يُسْتَضَاءُ بها في هذا الطريق؛ فمن خلالها يسيرُ المفسر على بَيِّنَةٍ من أمره، ويستعينُ بمعرفتها على فهم كلام الله ﷻ واستخلاص المعاني واستنباط الأحكام والوقوف على العبر والفوائد، ويتجنّب الأخطاء التي وَقَعَ فيها بعضُ المفسرين. قال الإمام الزركشي - رحمه الله - : "ومعلومٌ أن تفسيره يكونُ بعضُهُ من قبيلِ بَسْطِ الألفاظِ الوجيزة وكشفِ معانيها، وبعضُهُ من قبيلِ ترجيحِ بعضِ الاحتمالاتِ على بعضِ لبلاغتهِ ولُطْفِ معانيه؛ ولهذا لا يُسْتَعْنَى عن قانونٍ عامٍّ يُعَوَّلُ في تفسيره عليه ويُرجَعُ في تفسيره إليه: مِنْ معرفةِ مفرداتِ ألفاظِهِ ومركباتِهَا، وسياقه، وظاهره، وباطنه، وغير ذلك مما لا يدخلُ تحتَ الوهم، ويدقُّ عنه الفهم"^(١).

وفي هذا تتفاوتُ الأذهانُ وتتسابقُ في النظرِ إليه مسابقةَ الرهانِ، فَمَنْ سَابَقَ بِفَهْمِهِ وَرَاشَقَ كَبِدَ

(١) البيهق لابن المعتز، والأحاديثُ القصار: الجامعةُ المفيدة، الزبيدي، تاج العروس: (١/٣٤٠٦).

الرَّمِيَّةِ بِسَهْمِهِ، وَآخِرُ رَمَى فَأَشْوَى وَحَبَطَ فِي النَّظَرِ حَبِطَ عَشْوَا، كما قيل: وأينَ الدقيقُ؟

ثالثاً: مصادرها: وهذه القواعدُ يُمكنُ الرجوعُ إليها واستخلاصُها من القرآن الكريم فهو المصدرُ الأولُ للتفسير، فالقرآنُ يُفسَّرُ بعضُهُ بعضاً، ثم من السُّنَّةِ وهي الشارحةُ للقرآن، ثم بالرجوعِ إلى أقوالِ الصحابةِ والتابعين، فلهم القدمُ الراسخُ في فهمِ كتابِ الله تعالى واستنباطِ أحكامِهِ واستخلاصِ دُرِّهِ، إضافةً إلى كتبِ أصولِ الفقهِ واللغةِ فهي من المصادرِ الأساسيةِ في استمدادِ القواعدِ واستخلاصِها، كذلك الرجوعُ إلى كتبِ التفسيرِ وجمعِ القواعدِ الواردةِ في مقدماتها أو المبتوثةُ في ثناياها، فضلاً عن الرجوعِ إلى كُتُبِ علومِ القرآنِ فقد حَوَتْ الكثيرَ والكثيرَ من تلكِ القواعدِ المهمةِ، كذلك الرجوعُ إلى الكتبِ التي تناولتْ مناهجَ المفسِّرينَ، واتجاهاتهمُ في التفسيرِ، ومن الكتبِ التي اشتملت على جملة من القواعد:

- إيثار الحق على الخلق لابن الوزير: مُحمد بن إبراهيم الوزير اليماني (ت: ٨٤٠هـ)، حيث عقد فصلاً كاملاً بعنوان: "الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير".
- التيسير في قواعد علم التفسير، للكافيحي: مُحمد بن سليمان (ت: ٨٧٩هـ).
- القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، وقد اشتمل مع قواعد التفسير على جملة من الفوائد واللطائف المُعينة على فهم كتاب الله تعالى، واستخلاص الأحكام والعبر.
- أصول التفسير وقواعده، للشيخ خالد بن عبدالرحمن العك: وقد أورد عديداً من القواعد، إلى جانب تناول بعض موضوعات علوم القرآن.
- قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله ﷻ، للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، وقد ضمَّنه العديد من القواعد إلى جانب الفوائد التي نقلها عن سبقه أو استخلصها من خلال تدبره لكتاب الله تعالى ومعرفته باللغة العربية.
- قواعد التفسير: جمعاً ودراسة: للشيخ خالد بن عثمان السَّبِّت، وهذا الكتاب من أجمع الكتب في هذا الباب، حيث اشتمل هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين على (٣٨٠) قاعدة، منها

(٢٨٠) قاعدة أصليّة، و(١٠٠) قاعدة تَبَعِيّة تقريبًا، استنبطها من بطون كتب الأصول واللغة والتفسير.

● قواعد الترجيح بين المفسّرين للشيخ الدكتور حسين الحربي، وهو دراسة لقواعد الترجيح من خلال "جامع البيان" للطبري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، و"أضواء البيان" للشنقيطي. وقواعد التفسير يمكن الرجوع إليها أيضًا: في بعض مقدمات كتب التفسير، ويمكن استخراجها من ثناياها، وقد قام بعض الباحثين في رسائل جامعيّة بجمع القواعد من أمّهات كتب التفسير، ومن كتب علوم القرآن، فضلًا عمّا يمكن جمعه من كتب أصول الفقه، والقواعد الفقهية، وكتب اللغة.

القاعدة الأولى: كلّ عامٍ يبقى على عمومته حتى يأتي ما يُخصّصُهُ:

بمعنى أن لفظ الآية الذي يحتمل أكثر من معنى يُفسّر بكلّ هذه المعاني حتى يقوم دليل على تخصيص أحدها دون الباقي، قال الطبري - رحمه الله - : "غيرُ جائزٍ ادّعاءُ خصوصٍ في آية عامّ ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها"^(١)؛ أي: أن الخبر على عمومته؛ حتى يأتي ما يُخصّصه.

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿وَالِدٌ وَمَا وُلِدَ﴾ [البلد: ٣].

قيل: آدم وولده. وقيل: إبراهيم وولده. وقيل: عامّ في كلّ والد وما ولد.

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله - : "والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: إن الله أقسم بكلّ والدٍ وولده؛ لأنّ الله عمّ كلّ والدٍ وما ولد".

وغير جائز أن يُخصّ ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا بُرهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومته كما عمّه"^(٢).

(١) الطبري، جامع البيان: (٥٠٨/١).

(٢) المرجع السابق: (١٢٥/٣٠).

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ ۗ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ ﴿۱۱۶﴾﴾ [البقرة: ۱۱۶].

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم: معنى ذلك: مُطيعون.

وقال آخرون: معنى ذلك: كلُّ له مقرون بالعبودية.

وقال آخرون: كلُّ له قائمٌ يوم القيامة.

ولـ "القنوت" في كلام العرب معان: أحدها الطاعة، والثاني القيام، والثالث: الكفُّ عن الكلام والإمساك عنه.

وأولى معاني "القنوت" في قوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ﴾، الطاعة والإقرار لله ﷻ بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصَّنْعَةِ، والدلالة على وحدانية الله ﷻ، وأن الله - تعالى ذكره - بارئها وخالقها؛ وذلك أن الله جلَّ ثناؤه أكذب الذين زعموا أن الله ولدًا بقوله: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾، مُلْكًا وخلقًا. ثم أخبر عن جميع ما في السماوات والأرض أنها مُقَرَّةٌ بدالاتها على ربها وخالقها، وأن الله تعالى بارئها وصانعها، وإن جحد ذلك بعضهم، فألستهم مُدْعِنَةً له بالطاعة، بشهادتها له بآثار الصَّنْعَةِ التي فيها بذلك، وأن المسيح أحدهم، فأنتى يكون لله ولدًا وهذه صفته؟

وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته، أن قوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ﴾، خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة، وغير جائز ادّعاء حُصوصٍ في آية عام ظاهرها، إلا بحجة يجب التسليم لها^(١).

القاعدة الثانية: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

إذا قيل في آية: إنها نزلت في كذا، فهذا لا يعني أنها تُقَصِّرُ على هذا السبب، بل المراد هنا الألفاظ، ولذا تُعَمَّمُ هذه الألفاظ وإن كان السبب خاصًا.

(١) المرجع السابق: (١٢٥/٣٠).

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي.

وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقيل: نزلت في جماعة من قريش.

قال ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يُقال: إن الله - تعالى ذكّره - أخبر أن مُبْعَضَ رسول الله ﷺ هو الأقلّ الأذلّ المنقطع عَقْبُهُ، فذلك صِفَةٌ كلّ من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه" (١).

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَّبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعُهُمْ فِيءِ إِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ

الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

قال الشنقيطي: "والآية التي نحن بصددنا وإن كانت في المنافقين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب" (٢).

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "ومثل ذلك قولهم: هذه الآية نزلت في كذا... لم يقصدوا أن حكم الآية مختصّ بأولئك دون غيرهم؛ فإن هذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق" (٣).

القاعدة الثالثة: اختلاف القراءات في الآية يُعدُّ معانيها:

لا يُخلو اختلاف القراءات من حالتين:

الأولى: أن يكون الاختلاف في وجوه النطق بالحروف والحركات، كالإظهار، والإدغام، والإمالة،

(١) تفسير الطبري: (٥٣٩/٢).

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان: (١١٣/١).

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: (٤٤).

والمد، ونحو ذلك، وهذا لا تعلق له بالتفسير كبير.

الثانية: أن يكون الاختلاف في الكلمات، أو اختلاف الحركات الذي يؤدي إلى اختلاف المعنى، وهذا له تأثير في التفسير.

فإن الاختلاف في القراءات يؤدي إلى تعدد المعاني للآية، فلكل قراءة معناها الخاص بها.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : "القراءتين كالأيتين، فزيادة القراءات لزيادة الآيات".^(١)

وقال ابن عاشور - رحمه الله - : "على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المتواترة؛ لأن في

اختلافها توفيراً لمعاني الآية غالباً، فيقوم تعدد القراءات مقام تعدد كلمات القرآن".^(٢)

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قال تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

القراءات في قوله تعالى: ﴿نُنشِزُهَا﴾:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب: (نُنشِزُهَا) بالراء، وَقَرَأَ عَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَمَزَةُ،

وَالْكِسَائِيُّ: (نُنشِزُهَا) بالزاي.^(٣)

الجمع بين القراءتين:

حاصل القراءتين أن الله بيّن كيفية إحياء الموتى، وذلك بإحياء العظام وبعثها من موتها الذي

كانت فيه كما دلّت عليه القراءة بالراء، وبيّنت القراءة بالزاي كيفية إحياء العظام، وذلك برفع بعضها

إلى بعض حتى التأمّت، فضمّن الله تعالى المعنيين في القراءتين.

وفي هذا يقول الداني - رحمه الله - : "المراد بهاتين القراءتين جميعاً هي العظام، وذلك أن الله

تعالى أنشزها، أي: أحيهاها، وأنشزها أي: رفع بعضها إلى بعض حتى التأمّت، فأخبر سبحانه أنه جمع

(١) ابن تيمية، إقامة الدليل على إبطال التحليل: (٣/٣٧٩).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١/٥٥).

(٣) الداني، الأحرف السبعة للقرآن: (١/١٨٩).

لها هذين الأمرين من إحيائها بعد الممات ورفع بعضها إلى بعض؛ لِتَلْتَمِتُمْ، فضمن تعالى المعنيين في القراءتين؛ تنبيهاً على عظيم قدرته".^(١)

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

القراءات في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾:

قرأ أبو عمرو: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ بقطع الهمزة وفتحها، وإسكان التاء والعين، ونونٍ وألفٍ بعدها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وتشديد التاء، وفتح العين، وتاءٍ ساكنة بعدها.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: قرأ البصريان وابن عامر بألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد، وكسر التاء أبو عمرو وحده، وضمها الباقون.^(٢)

الجمع بين القراءتين:

إن القراءتين كالأيتين، وبالتدبر فيهما نلاحظ دلالتهما على نوعين من الأبناء:

الأبناء البالغين بإيمانهم بأنفسهم:

في قراءة من قرأ: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فهذا من حق البالغين الذين تصحَّح نِسْبَةُ فِعْلِ الأَتْبَاعِ إليهم.

الأبناء الصغار بإيمان آبائهم:

في قراءة من قرأ: (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) فهذا من حق الصغار الذين أتبعهم الله بآبائهم في الإيمان حكماً.

ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - حيث قال: "إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء"^(٣).

(١) المرجع السابق: (١٣/١-١٤).

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٤١٧/٢).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: (ص ٣٩٨).

القاعدة الرابعة: المعنى يختلف باختلاف رسم الكلمة:

فقد يكون لبعض الكلمات أكثر من معنى إلا أن رسمها في المصحف يُرَجِّحُ أحد المعنيين.

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿سُنُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

قيل في (لا) قولان:

الأول: أنها نافية.

الثاني: أنها ناهية.

ويترجح الأول؛ لأن رسم (تَنْسَى) في المصحف بإثبات الألف المقصورة، والفعل المضارع إذا تقدمت عليه (لا) الناهية جزمته، فإذا جُزِمَ وفي نهايته حرف علة حُذِفَ، ولمَّا كان حرف العلة هنا غير محذوف؛ دلَّ على أنّ (لا) هنا غير ناهية.

قال القرطبي: "والأول هو المختار، أي: كونها نافية؛ إن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتًا، وأيضًا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء."^(١)

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣].

في الضمير (هم) في (كَالُوهُمْ) و(وَزَنُوهُمْ) قولان:

الأول: أنه يعود على الناس، ويكون الضمير في موضع نصب.

ويكون المعنى: إذا كال المطففون الناس، أو وزن المطففون للناس.

الثاني: أنه يعود على واو الجماعة في كالوا، ووزنوا، ويكون الضمير في موضع رفع مؤكد لواو الجماعة.

ويكون المعنى: إذا كال المطففون هم، وإذا وزن المطففون هم.

(١) تفسير القرطبي: (١٩/٢٠).

وقد رجَّح العلماء الأول؛ لأنه المُوافق لرسم المصحف، والثاني مخالفٌ له. قال الزجاج: "والاختيار أن تكون (هم) في موضع نصب، بمعنى كالوا لهم، ولو كانت على معنى كالوا، ثم جاءت (هم) توكيداً؛ لكان في المصحف ألف مثبتة قبل (هم)".^(١)

القاعدة الخامسة: السِّياق القرآني:

على المفسِّر أن لا ينظر في الكلمة أو الجملة مستقلة بنفسها؛ بل عليه أن ينظر إليها في سياق النص القرآني؛ فإن ذلك مُعينٌ على تحديد المعنى المراد لاسيما إذا كان للكلمة أو الجملة أكثر من معنى.

قال العزُّ بن عبد السلام - رحمه الله - : "إذا احتمل الكلامُ معنيين، وكان حملُهُ على أحدهما أوضح وأشدَّ موافقَةً للسِّياق؛ كان الحملُ عليه أولى".^(٢)

وقال الزركشي - رحمه الله - : "... من الأمور التي تُعين على المعنى عند الإشكال دلالة السِّياق فإنها تُرشد إلى تبيينِ الجملِ، والقطعِ بعدمِ احتمالِ غيرِ المرادِ، وتخصيصِ العامِّ وتقييدِ المطلقِ، وتنوعِ الدلالةِ، وهو من أعظمِ القرائنِ الدالةِ على مُرادِ المتكلمِ فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته".^(٣)

أمثلة تطبيقية:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ مَخْتَاوِينَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِشِرْوَاهُنَّ

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ففي تأويل: ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾:

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٥/٩٢٨)؛ وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/٩١)؛ وإعراب القرآن، للنحاس: (٥/١٧٤)؛

مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب: (٢/٨٠٦، ٨٠٥).

(٢) العزُّ بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ)، الإشارة إلى الإيجاز، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة: (ص ٢٢٠).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (٢/٢٠٠).

قيل: هو الولد. وقيل: ليلة القدر. وقيل: ما أحلَّه الله لكم ورخص لكم. قال ابن جرير الطبري: "والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يُقال: إن الله - تعالى ذكره - قال: ﴿وَابْتَغُوا﴾ يعني: اطلبوا ما كتب الله لكم، يعني الذي قضى الله تعالى لكم، وإنما يُريد الله - تعالى ذكره - : اطلبوا الذي كتبت لكم في اللوح المحفوظ أنه يُباح فيُطلق لكم، وطلب الولد إن طلبه الرجل بجماعه المرأة مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، وكذلك إن طلب ليلة القدر، فهو مما كتب الله له، وكذلك إن طلب ما أحلَّه وأباحه، فهو مما كتبه في اللوح المحفوظ".

وقد يدخل في قوله: "﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾" جميع معاني الخير المطلوبة، غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال معناه: وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد؛ لأنه عقيب قوله: ﴿فَالْتَنَبَشْرُوهُنَّ﴾ بمعنى: جامعوهن، فلأن يكون قوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمعنى: وابتغوا ما كتب الله في مباشرتكم إياهنَّ من الولد والنسل أشبهه بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبر عن الرسول ﷺ".^(١)

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. نقل الطبري - رحمه الله - عن قتادة قوله: "هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به".

وروى عن غيره أنهم علماء بني إسرائيل الذين اتبعوا محمدًا، ثم رجَّح القول الثاني؛ فقال: "وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدلَّ منهم كتاب الله، وتأولهم إياه على غير تأويله، وإدعاءهم على الله الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد في الآية التي قبلها ذكرٌ، ولا لهم بعدها ذكرٌ في الآية التي تنلوها".^(٢)

(١) الطبري، جامع البيان: (١٦٩/٢-١٧٠).

(٢) المرجع السابق: (٥٦٥/٢).

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، قيل في السبيل قولان:
الأول: خروجه من بطن أمه.

الثاني: طريق الحق والباطل، بيّناه له وأعلمناه، وسهّلنا له العمل به.

قال ابن جرير الطبري: "وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه، وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده" (١).

القاعدة السادسة: التفسير يكون بالأغلب الظاهر من اللغة:

وذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فلا يصح تفسيره بغير الأظهر والأغلب والأبين من كلام العرب، قال الإمام الطبري - رحمه الله - : "غير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير الأغلب المفهوم بالظاهر من الخطاب في كلام العرب ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب سبيل" (٢).

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبا: ٢٤].

قيل في البرد قولان:

الأول: هو برد الهواء الذي يُبرد جسم الإنسان. الثاني: النوم.

قال ابن جرير - رحمه الله - معلّقًا على القول الثاني: "والنوم وإن كان يُبرد غليل العطش، فقيل له من أجل ذلك: البرد، فليس هو باسمه المعروف، وتأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام

(١) المرجع السابق: (٥٥/٣٠).

(٢) المرجع السابق: (٥٧٧/٨).

العرب دون غيره" (١).

وقال أبو جعفر النَّحَّاس - رحمه الله - : "وأصح هذه الأقوال القول الأول؛ لأن البرد ليس باسم من أسماء النوم، وإنما يحتال فيه فيقال للنوم: برد؛ لأنه يهدّي العطش، والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جلّ وعزّ على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك" (٢).

المثال الثاني:

نموذجٌ لترك المعنى الظاهر إلى معنى شاذ نادر الاستعمال:

ترك المعنى الظاهر إلى معنى آخر لا علاقة له بالآية من قريب أو من بعيد، وليس له أصلٌ صحيح في لغة العرب: من ذلك تفسير الضحك بالحيز في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن معنى (فَضَحِكَتْ) أي: (فحاضت).

قال القرطبي - رحمه الله - : "قال مجاهد وعكرمة: حاضت وكانت آيسة، تحقيقًا للبشارة، وأنشد على ذلك اللغويون:

وَضِحْكُ الْأَرْزَبِ فَوْقَ الصَّفَا ... كَمِثْلِ دَمِ الْجَوْفِ يَوْمَ اللَّقَا

والعرب تقول ضحكت الأرنب إذا حاضت، وقد أنكر أئمة اللغة أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، وقال الجمهور: الضحك المعروف، وليس الضحك الحيز في اللغة بمستقيم، وأنكر الفراء ذلك، وقال لم أسمعه من ثقة، وإنما هو كناية" (٣).

وقال ابن المنير وهو يرُدُّ على من زعم أن ضحكها بمعنى حيزها: "... ويعد هذا التأويل أنها قالت

(١) الطبري، جامع البيان: (١٦٤/٢٤).

(٢) الأنصاري، إعراب القرآن: (١٣٢/٥)، وانظر: القطع والائتناف، للنحاس: (ص٧٥٨)، والتحرير والتنوير: (٣٧/٣٠).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٦٦، ٦٧/٩) بتصرف، وفي معاني القرآن وإعرابه للزجاج: "فأما من قال (ضحكت) حاضت فليس بشيء، وإنما ضحكت سرورًا بمجيئ الأمر بإهلاك المكذبين"، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٦٢/٣).

بعد: ﴿قَالَتْ يَوْتِلَيْهِ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٣﴾﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ، عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ [هود: ٧٢-٧٣]، فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة علامة على إمكان الحمل^(١).

"والرأي المختار: ما ذهب إليه جمهور المفسرين: أن الضحك هنا على حقيقته، وسببه الفرخ والتعجب، فرحت حين سمعت الملائكة الكرام يُخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه، وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوتيه، وتعجبت من حال الهالكين، كيف يتمادون في الضلال ويُصِرُّون على الانحلال مع قرب هلاكهم؛ فالأولى بهم أن يتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان"^(٢).

القاعدة السابعة: تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي:

إذا كان للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر، أحدهما لغوي والآخر شرعي، واختلف المعنيان قُدِّم المعنى الشرعي على اللغوي؛ لأن القرآن الكريم نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة، إلا أن تدل قرينة على إرادة المعنى اللغوي^(٣).

المثال الأول: تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] ففي قوله: ﴿وَلَا

تُصَلِّ﴾ فالصلاة لها معنيان:

الأول: لغوي: وهو: الدعاء. الثاني: شرعي: وهو هنا صلاة الجنازة.

فيُقدِّم هذا المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب^(٤).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٦٦، ٦٧/٩) بتصرف، الإسكندري أحمد بن المنير، الانتصاف بهامش الكشاف:

(٢/٤١١، ٤١٠) بتصرف.

(٢) الشرقاوي، أحمد بن محمد، المرأة في القصص القرآني، ط. دار السلام بالقاهرة ط. ٣ (١٤٣٥هـ)، (١/١٦٦:

١٦٩).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٧/٢).

(٤) ابن عثيمين، أصول التفسير: (ص ٢٩).

المثال الثاني: تقديم المعنى اللغوي لقريظة:

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلَيْهِمْ ﴿١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣]، فقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن عبدالله بن أبي أوفى قال: "كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقة فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى» (١)» (٢).

قال الزركشي - رحمه الله - : "وكلّ لفظٍ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوزُ لغير العلماء الاجتهادُ فيه، وعليهم اعتمادُ الشواهدِ والدلائلِ دون مجردِ الرأي، فإن كان أحدُ المعنيين أظهرَ؛ وجب الحملُ عليه، إلا أن يقومَ دليلٌ على أن المرادَ هو الخفيُّ، وإن استويا والاستعمالُ فيهما حقيقة لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣]" (٣)، فالصلاة هنا تُحمل على معناها اللغوي وهو: الدعاء.

* * *

(١) صحيح مسلم: باب الدعاء لمن أتى بصدقة: (ح ١٧٩١).

(٢) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٧/٢)، وأصول التفسير لابن عثيمين: (ص ٢٩، ٣٠).

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: (١٦٦، ١٦٧/٢).

ملف الإنجاز/ أنشطة:

أنشطة

١. من قواعد التفسير "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب"، اشرح هذه القاعدة مع ذكر مثال لها.
٢. استخرجي ثلاث ترجيحات من تفسير ابن عطية اعتمد فيها على هذه القاعدة السابقة.
٣. من قواعد التفسير "كلّ عام يبقى على عمومه، حتى يأتي ما يُخصّصه"، اشرح هذه القاعدة مع ذكر مثال لها.

ملف الإنجاز

١. استخلصي قواعد التفسير من تفسير الطبري، [يتم توزيع ٣٠ صفحة على كلّ طالبة].
٢. استخلصي قواعد التفسير من مقدمة ابن عطية.
٣. اذكر نموذجًا للخطأ في التفسير بسبب الاعتماد على اللغة وحدها دون الرجوع لأصول التفسير الأخرى.
٤. اذكر نموذجًا للخطأ في التفسير؛ بسبب إغفال قاعدة تقديم المعنى الظاهر.
٥. اذكر نموذجًا للخطأ في التفسير؛ بسبب إغفال سبب النزول.
٦. اذكر نموذجًا لأهمية معرفة رسم المصحف في الترجيح.
٧. اذكر نموذجًا لأهمية معرفة اختلاف القراءات في التفسير.
٨. اذكر نموذجًا لأهمية النظر في السياق عند الترجيح.

مصادر التعلم:

١. القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن السعدي.
٢. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني.
٣. قواعد التفسير جمعًا ودراسة، د خالد عثمان السبت، ط. دار ابن عفان.
٤. قواعد الترجيح بين المفسرين، للشيخ الدكتور حسين الحربي، وهو دراسة لقواعد الترجيح من خلال جامع البيان للطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية.
٥. أسباب الخطأ في التفسير دراسة تأصيلية، د. طاهر محمود محمد يعقوب، ط. دار ابن الجوزي.
٦. أصول التفسير وقواعده، خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس بيروت.

التقويم:

١. بيّن أهمية دراسة قواعد التفسير.
٢. ما هي أهم مصادر قواعد التفسير؟
٣. ما هي شروط المفسّر وما آدابه؟

* * *

الوحدة الثالثة



التفسير التحليلي وتطبيقات عليه

أهداف الوحدة:

- يُتوقع من الدارس بعد إنجائه هذه الوحدة أن:
- (١) يشرح مفهوم التفسير التحليلي.
 - (٢) يُناقش أسلوب التفسير التحليلي.
 - (٣) يُطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة الأعراف من خلال كتب التفسير المشهورة.
 - (٤) يطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة الكهف من خلال كتب التفسير المشهورة.
 - (٥) يطبق أسلوب التفسير التحليلي لسورة النور من خلال كتب التفسير المشهورة.

مفردات الوحدة:

- الموضوع الأول: مفهوم التفسير التحليلي.
- الموضوع الثاني: التفسير التحليلي لآيات من سورة الأعراف [الآيات: ١-٣٠].
- الموضوع الثالث: التفسير التحليلي لآيات من سورة الكهف [الآيات: ٦١-١١٠].
- الموضوع الرابع: التفسير التحليلي لسورة النور.

عدد المحاضرات:

- الدبلوم: (٢٤) محاضرة.
- الدبلوم العالي: (١٢) محاضرة.

تمهيد:

للتفسير مناهج متعددة، منها التفسير بالمأثور، أي المنقول عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين، كما اصطلح عليه المعاصرون، والتفسير بالرأي، وهو الذي يغلب عليه جانب الرأي والاجتهاد، كذلك قسم العلماء التفسير إلى تحليلي وموضوعي ومُقارن:

فالتفسير الموضوعي: "الدراسة الموضوعية للموضوع القرآني، أو لموضوع في سورة واحدة، أو لما اشتملت عليه سورة من موضوعات، تدور حول محور واحد أو هدف واحد".

والمقارن: "هو المقارنة بين مفسرين فأكثر؛ للوقوف على دقائق المعاني، والترجيح بين الأقوال، أو الجمع بينها، ومعرفة منهج المفسر".

والتحليلي: هو التفسير المُتعارف عليه، والذي يسلكه في العادة المفسرون من تفسير القرآن سورة سورة، حسب تنوع اتجاهاتهم في التفسير، فمنهم من يُعنى باللغة، كأبي حيان في "البحر المحيط"، وتلميذه السمين الحلبي في "الدُر المصُون"، ومنهم من يُعنى بعلم الكلام، كالرازي في "التفسير الكبير"، ومنهم من يُعنى بالأحكام الفقهية، كالقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن"، ومنهم من أولى عنايةً بالبلاغة القرآنية، كالزحشري في "الكشاف"، وأبي السعود في "إرشاد العقل السليم"، وابن عاشور في "التحرير والتنوير"، ومنهم من عُني بالمناسبات بين السُور وبين الآيات، كصنيع البقاعي في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسُور"، وهكذا تنوعت اهتماماتهم في تفاسيرهم.

ومنهج التفسير التحليلي منهج يغوص في أعماق النص القرآني، حيث يقوم المفسر ببيان الآيات القرآنية بياناً مُستفيضاً من جميع نواحيها، بحيث يسير في هذا البيان مع آيات السُورة آية آية، شارحاً مفرداتها، وموجِّهاً إعرابها، وموضحاً معاني جملها، وما تهذف إليه تراكيبها من أسرار وأحكام، ومُبيِّناً أوجه المناسبات بين الآيات والسُور، مستعيناً في ذلك بالآيات القرآنية الأخرى ذات الصلة، وبأسباب النزول، وبالأحاديث النبوية، وبما صحَّ عن الصحابة والتابعين، وبغير ذلك من العلوم التي تُعينه على فهم النص القرآني وتوضيحه للقراء، مازجاً ذلك بما يستنبطه عقله من هدايات وحكم وأحكام.

الموضوع الأول مفهوم التفسير التحليلي

تعريف التفسير التحليلي:

التفسير التحليلي "مركب وصفي"، يحتاج لبيان جزأيه قبل تعريفه: تم تعريف التفسير سابقاً. وسوف نقوم بتعريف التحليلي، ثم التفسير التحليلي في الاصطلاح. التحليلي في اللغة:

التحليلي: مأخوذ من الحلّ بمعنى: الفتح، ونقض المنعقد، قال ابن منظور: "وَحَلَّ الْعُقْدَةَ يَحْلُهَا حَلًّا: فَتَحَهَا وَنَقَضَهَا، فَانْحَلَّتْ"^(١)، والتحليل يُطلق على إرجاع الشيء إلى عناصره. التفسير التحليلي في الاصطلاح:

هو أن يلتزم المفسّر تسلسل النّظم القرآني والسير معه سورةً سورةً، وآيةً آيةً^(٢)، فيبين سبب نزولها، وبيان غريبها، وإعراب مُشكلها، وبيان مُجملها، ومن أمثلته: تفسير ابن عطية، والآلوسي، والشوكاني، وغيرهم^(٣).

وقيل هو: هو منهج في تفسير القرآن الكريم يُراعى فيه الترتيب التعبدي للآيات والسُّور، أو الآيات لقطاع معيّن داخل السُّورة الواحدة، يقوم على توضيح مراد الله تعالى من كلامه قدر الطاقة البشرية^(٤).

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٦٩/١١).

(٢) الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: (٨٦٢/٣).

(٣) مساعد الطيار، فصول في أصول التفسير: (ص ٣٣).

(٤) متولي صبري، التفسير التحليلي للقرآن الكريم: (ص ٩).

قواعد التفسير التحليلي:

- وهي التي لا غنى لأي مفسر عنها أيًا ما كان اتجاهه فهي تتمثل في أفضل الطرق لتفسير القرآن:
- ١- تفسير القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل في موضع فصّل في موضع آخر.
 - ٢- تفسير القرآن بالسنة؛ فالمهمة الأولى للسنة بيان التنزيل.
 - ٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، فهم أظهر أجيال الأمة قلوبًا، وأكثرهم علمًا وأقلهم تكلفًا.
 - ٤- تفسير القرآن بأقوال التابعين إذا أجمعوا على رأي، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم.

خطوات التفسير التحليلي:

الخطوة الأولى: بين يدي السورة، ويتضمن هذا العنوان النظر في:

- أسماء السورة.
 - كونها: مدنية، أو مكية.
 - عدد آياتها.
 - فضلها.
 - مقصدها العام.
 - أغراض السورة (موضوعاتها الفرعية).
 - مناسبة السورة لما قبلها.
- والهدف من هذه الخطوة: أن تكون كالمقدمة للسورة المدروسة؛ لتكوين تصوّر شامل لها. ومصادر هذه الخطوة: (مقدمات كتب التفسير، ومنها التحرير والتنوير لابن عاشور).
- الخطوة الثانية: تقسيمها إلى مقاطع، مع بيان المناسبات بين آيات كلّ مقطع.
- ومن مصادر هذه الخطوة: (نظم الدرر للبقاعي - تفسير الرازي).

الخطوة الثالثة:

- معاني الغريب: ومن مصادره: (المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي).
- إعراب المُشكِل: ومن مصادره: (التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري - إعراب القرآن، للنحاس).
- القراءات: ومن مصادرها: (النشر في القراءات العشر، لابن الجزري - وكتب توجيه القراءات، مثل الحجة للقراء السبعة، لابن علي الفارسي).
- النكات البلاغية: ومن مصادرها: (الكشاف، للزمخشري - إرشاد العقل السليم، لأبي السعود - تفسير الألوسي - التحرير والتنوير، لابن عاشور).
- الخطوة الرابعة: ذكر سبب النزول إن وجد، ومن مصادر هذه الخطوة: (أسباب النزول، للواحي - لُباب القول في أسباب النزول، للسيوطي).
- الخطوة الخامسة: ذكر المعنى الإجمالي للآيات، ومصادر هذه الخطوة: (تفسير السعدي - التفسير الميسر - المختصر في تفسير القرآن الكريم، لمركز تفسير).
- الخطوة السادسة: استنباط الهدايات والحِكَم والأحكام، ومن مصادر هذه الخطوة: (تفسير السعدي - تفسير ابن عثيمين - المختصر في تفسير القرآن الكريم).

أهمية التفسير التحليلي:

- ١- أهم ما يميز هذا النوع من التفسير هو الشُّمولية، وتناوله للآية الكريمة من جوانبها المختلفة؛ مما يُعطي القارئ صورة متكاملة عن معناها، وأوجه البلاغة فيها، وبيان القراءات، وأقوال أهل العلم، والفوائد المستنبطة منها إلى غير ذلك من الجوانب التي يتناولها التفسير التحليلي.
- ٢- المفسر في التفسير التحليلي ينظر في القرآن وسوره وآياته، يبدأ منه وينتهي إليه، ويجلس أمام القرآن، ويتلقى منه، ويستمتع إليه، ويسجّل ما يأخذه منه.

- ٣- يُقدّم فيه المفسّر للمسلمين علمًا تفسيريًا نظريًا، ومعلومات تفسيرية ثقافية، ومجالات علمية متنوعة في: العقيدة، والحديث، والفقه، واللغة، والبلاغة، والنحو، وغير ذلك.
- ٤- يخدم المفسّر في التفسير التحليلي الآية، والجملة، والمفردة القرآنية.
- ٥- المحافظة على الوحدة العضوية لكلّ سورة، والتي تتجلى بالملامح الشخصية المميزة، وحينئذٍ يتسنى لنا تطبيق علم المناسبة بين الآيات والسُّور.
- ٦- هذا النوع من التفسير لا يستغني عنه الباحث في التفسير: الإجمالي، أو الموضوعي، أو المقارن؛ وذلك لأن التفسير التحليلي ينصبُّ علي معرفة دلالة الكلمة اللغوية، ودلالاتها الشرعية، والتعرّف علي الرّابط بين الكلمات والجملة، وبين الجمل في الآية الواحدة، وبين الآيات في السُّورة، وكذلك التعرف علي القراءات وأثرها علي دلالة الآية، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانيّة وإعجاز القرآن الكريم، وغيرها من الوجوه التي تُساعد علي إجلاء المعني.

استراتيجيات التدريس في التفسير التحليلي :

- تفسير السُّور والآيات تفسيرًا تحليليًا، مع بيان: فضل السُّورة، وأسباب النزول، وبيان غريب القرآن، وإعجازه، والعناية بالقراءات المؤثّرة في المعني، وأوجه الإعراب، وبيان ما ترشد له الآيات من: الفوائد العامة، والعقائد، والأحكام، والأخلاق، والعظات، والعبر.
- تُدرّس مقدمات السُّورة كاملة، مع محاولة التركيز علي زمان نزول السُّورة عامة من حيث المكّي والمدني من جهة، وخاصة تحديد سنّة نزول بعض الآيات حسب أسباب النزول وموضوع الآيات، مع إلقاء الضوء علي أن معرفة ذلك يؤثّر مباشرة علي تحديد محور السُّورة والموضوع الرئيسي فيها.
- تُقسّم السُّورة إلى وحدات موضوعية.
- تُدرّس الآيات في كلّ وحدة تحليليًا، ثم موضوعيًا، مع العناية بصلة كلّ آية بما قبلها، وكلّ وحدة بما قبلها.

- في نهاية السّورة يتم الربط بين الوحدات الموضوعية؛ ليصل الأستاذ مع الدّارس في النهاية إلى تحديد الموضوع الرئيسي فيها، مع بيان وجه ارتباط كلِّ موضوع تناولته السّورة بالموضوع الرئيسي.
- المناقشة والحوار خلال المحاضرات.
- استخدام استراتيجية السؤال والجواب.
- التعليم التعاوني.
- إثارة الفضول لدراسة محتوى المقرر باستخدام بعض الوسائل التعليمية مثل: power (point).
- الاستعانة بشبكة الإنترنت؛ للاطلاع على ما يُستجد من معلومات.
- الواجبات المنزلية.

طرق تقويم المعارف المكتسبة:

- التكاليف الأسبوعية.
- البحوث الجماعية والفردية.
- المشاركة أثناء المحاضرات.
- الاختبارات التحريرية.

من مصادر التفسير التحليلي:

- ١- جامع البيان، لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ).
- ٢- معالم التنزيل، للبعوي (ت: ٥١٦هـ).
- ٣- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ).
- ٤- المحرر الوجيز، لابن عطية (ت: ٥٤٢هـ).
- ٥- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ت: ٦٧١هـ).
- ٦- فتح القدير، للشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ).

- ٧- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (ت: ٩٥١هـ).
- ٨- رُوح المعاني، للألوسي (ت: ١٢٧٠هـ).
- ٩- التحرير والتنوير، لابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ).

* * *

الموضوع الثاني التفسير التحليلي لآيات من سورة الأعراف من الآية (١) إلى الآية (٣٠)



بين يدي السُّورة: اسم السُّورة:

هذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه السُّورة، من عهد النبي ﷺ، روى النسائي بسنده عن ابن أبي مُليكة، عن عروة عن زيد بن ثابت: أنه قال لمروان بن الحكم: «ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السُّور، وقد رأيت رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يقرأ فيها بأطول الطويلين». قال مروان، قلت: «يا أبا عبد الله ما أطول الطويلين»، قال: «الأعراف»^(١).

وعن عروة عن عائشة ؓ: "أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين"^(٢).

والمراد بالطويلين سورة الأعراف، وسورة الأنعام، فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات، ويفسّر ذلك حديث عائشة ؓ.

ووجه تسميتها؛ أنها ذُكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ولم يُذكر في غيرها من سور القرآن؛ ولأنها ذُكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يُذكر في غيرها من السُّور بهذا اللفظ.

وذكر الفيروز آبادي في كتاب "بصائر ذوي التمييز": أن هذه السُّورة تُسمّى سورة (الميقات)؛

(١) سنن النسائي: القراءة في المغرب بـ (الْمَصَّ): (ح ٩٩٠)، قال الألباني: (صحيح).

(٢) سنن النسائي: القراءة في المغرب بـ (الْمَصَّ): (ح ٩٩١)، قال الألباني: (صحيح).

لاشتمالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأنها تُسمّى سورة (الميثاق)؛ لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] (١).

مكيّة السُّورة أو مدينتها:

السُّورة: مكيّة بلا خلاف.

وهي من السبع الطوال التي جُعِلت في أول القرآن؛ لطولها، وهي سُور: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، الأنعام، والأعراف، وبراءة).

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السُّور عند جابر بن زيد عن ابن عباس، نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن)، قالوا: جعلها ابن مسعود في مصحفه عقب سورة (البقرة)، وجعل بعدها سورة (النساء)، ثم (آل عمران)، ووقعت في مصحف أبيّ بعد (آل عمران)، (الأنعام) ثم (الأعراف)، وسورة (النساء) هي التي تلي سورة (البقرة) في الطول، وسورة (الأعراف) تلي سورة (النساء) في الطول.

عدد آيات السُّورة:

مئتان وخمس آيات في البصري والشامي، وست في المدينيين والمكي والكوفي (٢).

مقصد السُّورة:

تُرَكِّز على سُنّة الصراع بين الإيمان والكفر وعاقبته.

أغراضها:

افتتحت هذه السُّورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليلبِّغهُ، وكان افتتاحها كلامًا جامعًا، وهو مناسب لما اشتملت عليه السُّورة من المقاصد، فهو افتتاحٌ واردٌ على أحسن وجوه البيان

(١) التحرير والتنوير: (٨-٩/ب).

(٢) أبو عمرو الداني، البيان في عدّ آي القرآن: (ص ١٥٥).

وأكملها شأن سور القرآن.

وتدور مقاصد هذه السورة على محور مقاصد منها:

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله.

وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.

ووصف ما حلَّ بالمشركين والذين كذبوا الرسل من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحلُّ بهم في

الآخرة.

تذكير الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

وتحذير الناس من التلبُّس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إياهم حرمان أنفسهم الطيبات، ومن

الوقوع فيما يزيحُ بهم في العذاب في الآخرة.

ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين، وكراماته للمتقين.

والتذكير بالبعث، وتقريب دليله.

والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.

والتذكير ببديع ما أوجده الله لإصلاحها وإحيائها.

والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رُسل الله إلى التقوى

والإصلاح.

وأفاض في أحوال الرُّسل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاعتزاز

بإمهال الله الناس قبل أن يُنزل بهم العذاب إعدارًا لهم أن يُقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإن العذاب

يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القول في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

وتخلل قصته بشارة الله ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وصفة أمته، وفضل دينه.

ثم تخلّص إلى موعظة المشركين كيف بدّلوا الحنيفية وتقلّدوا الشّرك، وضرب لهم مثلاً بمن آتاه الله الآيات، فوسوس له الشيطان؛ فانسلخ عن الهدى.

ووصف حال أهل الضلالة، ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول ﷺ، ووصف آهتهم بما يُباني الإلهية، وأن لله الصّفات الحسنى، صفات الكمال.

ثم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بسعة الصدر، والمداومة على الدعوة، وحثّهم من مداخل الشيطان، بمراقبة الله بذكره سرّاً وجهراً والإقبال على عبادته^(١).

مناسبة السّورة لما قبلها:

لَمَّا كَانَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ لِبَيَانِ الْخَلْقِ، وَقَالَ فِيهَا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]، وَقَالَ فِي بَيَانِ الْقُرُونِ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام: ٦]، وَأَشِيرَ فِيهَا إِلَى ذِكْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَتَعْدَادِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَكَانَتْ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ لَا التَّفْصِيلِ، ذُكِرَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَقِبَهَا؛ لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى شَرْحِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ وَتَفْصِيلِهَا؛ فُبَسِطَ فِيهَا قِصَّةَ خَلْقِ آدَمَ أَبْلَغَ بَسْطٍ؛ بَحِيثٍ لَمْ تُبَسِّطْ فِي سُورَةٍ كَمَا بُسِّطَتْ فِيهَا، وَذَلِكَ تَفْصِيلٌ إِجْمَالٍ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، ثُمَّ فَصَّلَتْ قِصَصَ الْمُرْسَلِينَ وَأُمَمِهِمْ، وَكَيْفِيَّةَ إِهْلَاكِهِمْ تَفْصِيلاً تَامّاً شَافِئاً مُسْتَوْعِباً لَمْ يَقَعْ نَظِيرُهُ فِي سُورَةٍ غَيْرِهَا، وَذَلِكَ بَسْطٌ حَالِ الْقُرُونِ الْمُهْلِكَةِ وَرُسُلِهِمْ، فَكَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ شَرْحاً لِتِلْكَ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ^(٢).

مناسبة مقدمة السّورة لخاتمها:

افْتَتَحَتْ السُّورَةُ بَيَانَ إِنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ إِلَى الرَّسُولِ، وَدَعْوَتِهِ إِلَى الْإِنْدَارِ بِهِ، وَتَبْلِيغِهِ وَتَذْكَيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، ﴿كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُذْرِهِ بِهِ وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢] أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ [٣] [الأعراف: ٢-٣]، وَاخْتَمَّتْ السُّورَةَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْاسْتِمَاعِ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْإِنْصَاتِ لِتَلَاوَتِهِ، وَالْأَمْرِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْغَفْلَةِ، ﴿وَإِذَا قُرِئَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٨-ب/٩).

(٢) انظر: السيوطي، أسرار ترتيب القرآن: (٨٦).

الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٥]، فاتفقت البداية مع الخاتمة.

اتباع القرآن الكريم

﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ١-٣].

معاني المفردات:

﴿حَرَجٌ﴾: شك، وضيق من تبيغته.

الإعراب:

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ منسوب بفاعلٍ تَذَكَّرُونَ، وما زائدة، وتقدير النَّصْب من وجهين: إما لأنه صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديره: تَذَكَّرُونَ تَذَكَّرًا قَلِيلًا، أو لأنه صفة لظرف زمانٍ محذوفٍ، تقديره: زمانًا قَلِيلًا.

البلاغة:

- ١- صرح بمتعلق الذكرى في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون متعلق لتندر؛ تنويهاً بشأن المؤمنين، وتعريضاً بتحقيق الكافرين تجاه ذكر المؤمنين.
- ٢- ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: وصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين؛ فيه إشعار بمزيد اللطف بهم، وترغيب في امتثال الأوامر.

التفسير:

هذه من الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن، وهي حروف هجائية لا معنى لها في نفسها إذا جاءت مفردة هكذا (أ، ب، ت، ... إلخ)، ولها حكمةٌ ومغزى؛ حيث لا يوجد في القرآن ما لا

حكمة له، ومن أهم حِكْمِهَا الإشارة إلى التحديّ بالقرآن الذي يتكوّن من الحروف نفسها التي يعرفونها ويتكلّمون بها؛ لذا يأتي غالبًا بعدها ذكرٌ للقرآن الكريم، كما في هذه السورة.

هذا القرآن كتاب عظيم أنزله الله عليك - أيها الرسول - فلا يكن في صدرك شكٌّ منه في أنه أنزل من عند الله، ولا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، أنزلناه إليك؛ لتُخَوِّفَ به الكافرين وتُذَكِّرَ المؤمنين.

اتبعوا - أيها الناس - ما أنزل إليكم من ربكم من الكتاب والسنة بامثال الأوامر واجتناب النواهي، ولا تتبعوا من دون الله أولياء كالشياطين والأحبار والرهبان. إنكم قليلاً ما تتعظون، وتعتبرون، فترجعون إلى الحق^(١).

الهدايات المستنبطة:

- ١- المقصود بالقرآن إنذار الكافرين والعصاة؛ بسبب إعراضهم عنه، وتذكير المؤمنين به؛ لأنهم المنتفعون به.
- ٢- الأمر العام لجميع الناس باتباع ملة الإسلام والقرآن، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وامتنال أمره، واجتناب نهيهِ.
- ٣- ترك اتباع الآراء الشخصية أو الاجتهادية مع وجود النص الشرعي.
- ٤- المنع من عبادة أحد مع الله، واتخاذ من عدل عن دين الله وليًا.

* * *

(١) نُجْبَة من العلماء، التفسير الميسر: (ص ١٥١).

عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٤-٥].

معاني المفردات:

﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا.

﴿بَيِّنًا﴾: نائمون ليلاً.

﴿قَائِلُونَ﴾: نائمون في نصف النهار.

البلاغة:

١ - خصَّ بالذكر إهلاك القرى ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، دون ذكر الأمم؛ لأن المواجهين بالتعريض هم أهل مكة، وهي أم القرى؛ فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها؛ ولأن تعليق فعل أهلكتناها بالقرية دون أهلها؛ لقصد الإحاطة والشمول، فهو مُغْنٍ عن أدوات الشمول، فالسامع يعلم أن المراد من القرية أهلها؛ لأن العبرة والموعظة إنما هي بما حصل لأهل القرية.

٢ - قوله تعالى: ﴿بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾، خصَّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار؛ لأنهما اللذان يطلب فيهما الناس الراحة والدعة، فوقع العذاب فيهما أشد على الناس؛ ولأن التذكير بالعذاب فيهما ينغصُّ على المكذبين تخيل نعيم الوقتين.

المناسبة:

لما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بالإنذار والتبليغ، وأمر القوم بالقبول والاتباع، ذكر في هذه الآية ما يترتب على المخالفة من عقاب ووعيد، من طريق التذكير بإهلاك الأمم السابقة،

لمخالفتهم الرسل وتكذيبهم.

التفسير:

وكثير من القرى أهلكتنا أهلها بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة، فجاءهم عذابنا مرة وهم نائمون ليلاً ومرة وهم نائمون نهاراً. وَحَصَّ اللَّهُ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ؛ لَأَنَّهُمَا وَقْتَانِ لِلسَّكُونِ وَالِاسْتِرَاحَةِ، فَمَجِيءُ الْعَذَابِ فِيهِمَا أَفْظَعُ وَأَشَدُّ. فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا الإقرار بالذنوب والإساءة، وأنهم حقيقون بالعذاب الذي نزل بهم^(١).

الهدايات المستنبطة:

- ١- إن عصيان أوامر الرسل وتكذيبهم؛ موجب للخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، وعذاب الدنيا يأتي في وقت الغفلة واللهو، إما ليلاً أو حين القيلولة نهاراً.
- ٢- كلّ مذنب حين توقيع العقاب الدنيوي عليه؛ يعترف بجرمه، ويندم على ما فرط منه.
- ٣- الجزاء أو العقاب الإلهي في الدنيا حقٌّ وعدلٌ ومطابقٌ للواقع، ولا يجيء العذاب إلا بعد العصيان، وإعذار الناس من أنفسهم.

* * *

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: (١٥١).

عاقبة الكفر في الآخرة والحساب الدقيق على الأعمال

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف: ٩].

معاني المفردات:

﴿وَالْوَزْنُ﴾: وزن أعمال العباد.

﴿الْحَقُّ﴾: العدل.

الإعراب:

اللام في (فَلَنَسْأَلَنَّ) و(فَلَنَقْصِنَنَّ) لام القسم، المراد بها التوكيد.

البلاغة:

المراد بالسؤال؛ توبيخ الكفرة وتقريعهم.

المناسبة:

بعد أن أُنذر الله تعالى المخالفين رسلهم بعذاب الاستئصال في الدنيا، أتبعه بالتهديد بعذاب آخر يوم القيامة، وأبان أنه يسأل جميع الناس عن أعمالهم، سواء أهل العقاب وأهل الثواب، ولمَّا بيّن في الآية الأولى أن من جملة أحوال القيامة: السؤال والحساب، بيّن أن من جملة أحوال القيامة أيضًا وزن الأعمال.

التفسير:

فلنساءلن الأمم الذين أرسل إليهم المرسلون: ماذا أجبتكم رسلنا إليكم؟ و(لنساءلن المرسلين) عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعمّا أجابتهم به أممهم.

فَلَنُقْصِنَنَّ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مَا عَمَلُوا بِعِلْمٍ مِنَّا لأَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا فِيمَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ، وَمَا نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

ووزن أعمال الناس يوم القيامة يكون بميزان حقيقي بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه، فمن ثقلت موازين أعماله - لكثرة حسناته - فأولئك هم الفائزون.

وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ - لكثرة سيئاته - فأولئك هم الذين أضاعوا حظَّهم من رضوان الله تعالى، بسبب تجاوزهم الحد بجدد آيات الله تعالى وعدم الانقياد لها.

الهدايات المستنبطة:

١- الآية تدل على أنه تعالى يُحاسب كلَّ عباده؛ لأنهم لا يخرجوا عن أن يكونوا رسلاً أو مُرسلاً إليهم.

٢- وإثبات سؤال الأمم هنا لا يُنافي نفيه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وقوله: ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]؛ لأن المسئول عنه هنا هو التبليغ، والمنفي في الآيتين الأخيرين هو السؤال لمعرفة تفاصيل ذنوبهم.

* * *

كثرة نعم الله على عباده

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الأعراف: ١٠]

معاني المفردات:

﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾: مكنا لكم فيها، وجعلناها لكم قرارًا.

﴿مَعِيشٌ﴾: ما تعيشون به.

البلاغة:

١. تذييل الجملة بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، توبيخ على قلة شكرهم؛ فإن النفوس التي لا

يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

٢. تأكيد الخبر بلام القسم وقد ﴿وَلَقَدْ﴾ المفيد للتحقيق؛ تنزيل للذين هم المقصودون من

الخطاب منزلة من يُنكر مضمون الخبر؛ لأنهم لما عبدوا غير الله كان حالهم كحال من يُنكر

أن الله هو الذي مكنهم من الأرض، أو كحال من ينكر وقوع التمكين من أصله.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى الخلق بمتابعة الأنبياء عليهم السلام وبقبول دعوتهم، ثم خوفهم بعذاب

الدنيا: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، وبعذاب الآخرة من وجهين: السؤال والحساب: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ...﴾،

ووزن الأعمال: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ رغبهم في هذه الآية بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام عن

طريق التذكير بكثرة نعم الله عليهم، وكثرة النعم تُوجب الطاعة.

التفسير:

ولقد مكناكم - يا بني آدم - في الأرض، وجعلنا لكم فيها أسبابًا للعيش، فكان عليكم أن

تشكروا الله على ذلك، لكن شكركم كان قليلاً.

الهدايات المستنبطة:

- ١- من أجل نعم الله على البشر أن هَيَّأ لهم الأرض؛ لانتفاعهم بها، بحيث يتمكنون من البناء عليها وحرثها، واستخراج ما في باطنها للانتفاع به.
- ٢- إهمال شكر النعمة؛ يُعَرِّض صاحبها لزوالها.

* * *

تكريم البشرية بالسجود لآدم وإغواء الشيطان وطرده من الجنة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَّا تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١-١٨].

معاني المفردات:

﴿الصَّاغِرِينَ﴾: الحقيرين، الذليلين.

﴿أنظرنني﴾: أمهلي.

﴿لأقعدنن﴾: لأترصدننهم، وأصدننهم.

﴿مذمومًا﴾: ممقوتًا، مذمومًا.

﴿مدحورًا﴾: مطرودًا.

الإعراب:

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: (ما): استفهامية مبتدأ، (مَنَعَكَ): جملة فعلية خبر المبتدأ، و(أَلَّا تَسْجُدَ):

تسجد): في موضع نصب بمنعك، و(أَلَّا): صلة زائدة، والتقدير: ما منعك أن تسجد، وتُزاد كثيرًا في كلام العرب، وفائدة زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه.

البلاغة:

﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: على حذف مضاف، أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم.

﴿مَا مَنَعَكَ﴾: السؤال مع عِلْمِهِ تعالى بما منعه من السجود؛ للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وكبره، وافتخاره بأصله، وازدراءه بأصل آدم.

المناسبة:

رَغِبَ اللهُ تعالى في الآيات السَّابِقَةِ بقبول دعوة الأنبياء عليهم السلام، بالتخويف أولاً، ثم بالترغيب ثانياً بالتنبيه على كثرة نعم الله تعالى على الخلق، ثم أتبعه ببيان أنه خلق أبانا آدم وكرّمه بأمر الملائكة بالسجود له، والإنعام على الأب إنعام على الابن، لكن قد يتعرض الناس لوسوسة الشيطان وإغوائه، ولا يليق بهم مع هذه النعم العظيمة التمرد والجحود.

التفسير:

ولقد أنشأنا - أيها الناس - أباكم آدم، ثم صورناه في أحسن صورة، وأحسن تقويم، ثم أمرنا الملائكة بالسجود إكراماً له، فامتثلوا وسجدوا، إلا إبليس أبي أن يسجد تكبراً وعناداً. قال الله تعالى توبيخاً لإبليس: أيُّ شيء منعك من امتثال أمري لك بالسجود لآدم؟ قال إبليس مجيباً ربه: منعني أني أفضل منه، فقد خلقتني من نار، وخلقته هو من طين، والنار أشرف من الطين. قال الله له: اهبط من الجنة، فليس لك أن تتكبر فيها؛ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فما يجوز لك أن تكون فيها، إنك - يا إبليس - من الحقيرين الذليلين، وإن كنت ترى نفسك أنك أشرف من آدم.

قال إبليس: يا رب، أمهلني إلى يوم البعث حتى أغوي من أستطيع إغواءه من الناس.

قال له الله: إنك - يا إبليس - من الممهّلين الذين كتب عليهم الموت يوم النفخة الأولى في الصور حين يموت الخلق كلهم، ويبقى خالقهم وحده.

قال إبليس: بسبب إضلالك إياي حتى تركتُ امتثال أمرك بالسجود لآدم؛ لأفعدنّ لبني آدم على صراطك المستقيم؛ لأصرفهم وأضلّهم عنه كما ضلّلتُ أنا عن السجود لأبيهم آدم.

ثم لآتَيْنَهُم من جميع الجهات بالترهيد في الآخرة، والترغيب في الدنيا، وإلقاء الشبهات، وتحسين الشّهوات، ولا تجذّ - يا رب - أكثرهم شاكرين لك؛ لِمَا أُمِّلِيهِ عَلَيْهِم من الكفر.
قال الله له: اخرج - يا إبليس - من الجنة مذموماً مطروداً من رحمة الله، ولأَمَلَانَّ جهنم يوم القيامة منك، ومن كلِّ من اتبعك واطاعك، وعصى أمر ربه.

الهدايات المستنبطة:

- ١- دلّت الآيات على أن من عصى مولاه فهو ذليل.
- ٢- أعلن الشيطان عداوته لبني آدم، وتوعّد أن يصدّهم عن الصراط المستقيم بكلّ أنواع الوسائل والأساليب.
- ٣- خطورة المعصية، وأنها سبب لعقوبات الله الدنيوية والأخروية.
- ٤- الخلق والتصوير لله وحده، ولا يستطيع أحد من البشر فعل شيء منهما.
- ٥- قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: يدل على أن إبليس كان عالماً بالدين الحق، والمنهج الصحيح؛ لأن صراط الله المستقيم هو دينه الحق.
- ٦- محاولات إغواء الشياطين لا تقتصر على وجه واحد، وإنما تأتي من كلِّ أوجه الحياة؛ فينبغي الحذر من الشيطان.
- ٧- قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، أصل في ثبوت الحق لأهل المحلّة أن يُخرجوا من محلّتهم؛ من يُخشى من سيرته فُشِّو الفساد بينهم.

* * *

قصة آدم في الجنة وخروجه منها

﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٥]

معاني المفردات:

﴿ما وُورِيَ﴾: ما ستر، وأخفي.

﴿سَوْءَاتُهُمَا﴾: عوراتهما.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: أقسم وحلف لهما.

﴿فَذَلَّلَهُمَا﴾: فجرأهما، وغرهما.

﴿وَطَفِقَا﴾: شرعا، وأحذا.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: يُلْقِيَانِ.

الإعراب:

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾: (لكما) متعلقٌ بمحذوف، وتقديره: ناصحٌ لكما لمن الناصحين.

البلاغة:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: عبّر عن الأكل بالقرب؛ مبالغةً في النهي عن الأكل منها.
﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُما﴾: أكّد الخبر بـ: القَسَم، وبأنّ، واللام؛ لدفع شبهة الكذب.

المناسبة:

الآيات استمرازيّ في الكلام عن النشأة الأولى للبشر، ودور شياطين الجنّ في إغواء الناس. والقصد من القصة إرشاد الناس إلى طرق الهداية، وتحذيرهم من وساوس الشياطين، فإن الشيطان بسبب حسده لآدم وحوّاء سعى في المكر، والوسوسة، والخديعة؛ ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن.

التفسير:

وقال الله لآدم: يا آدم، اسْكُرْ أنت وزوجتك حوّاء الجنة، فكلّا مما فيها من الطيبات ما شئتما، ولا تأكلا من هذه الشجرة (شجرة عَيْنها الله لهما)، فإنكما إن أكلتما منها بعد نهيي لكما؛ كنتما من المتجاوزين لحدود الله.

فألقي لهما كلامًا خفيًا إبليس؛ ليُظهِر لهما ما سُتِرَ عنهما من عوراتهما، وقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين، وإلا كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة. وحلف لهما بالله: إني لكما - يا آدم وحوّاء - لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به.

فَحَطَّهما من المنزلة التي كانا فيها بخداع منه وغرور، فلما أكلا من الشجرة التي نُهيّا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما، وناداهما ربهما قائلاً: ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة، وأقل لكما محذراً لكما: إن الشيطان عدوُّ لكما بينُ العداوة؟!!

قال آدم وحوّاء: يا ربنا، ظلمنا أنفسنا بارتكاب ما نهيتنا عنه من الأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا ذنوبنا وترحمنا برحمتك؛ لنكوننّ من الخاسرين بإضاعتنا حظنا في الدنيا والآخرة.

قال الله لآدم، وحوّاء، وإبليس: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، وسيكون بعضكم عدو لبعض، ولكم

في الأرض مكاناً استقراراً إلى وقتٍ معلوم، وتمتّع بما فيها إلى أجلٍ مسمّى.
قال الله مخاطباً آدم، وحواء، وذريتهما: في هذه الأرض تحيؤون مدة ما قدر الله لكم من آجالٍ،
وفيها تموتون وتُدفنون، ومن قبوركم تخرجون للبعث.

الهدايات المستنبطة:

- ١- في توجيه الخطاب لآدم ﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده؛ زيادةً إهانةً؛ لأن إعطاء النعم لمرضيٍ عليه في حين عقاب من استأهل العقاب؛ زيادةً حسرةً على المعاقب، وإظهاراً للتفاوت بين مُستحقِّ الإنعام، ومستحق العقوبة.
- ٢- من أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه، ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب بالإصرار والعناد - فإنه لا يزداد من الله إلا بُعداً.

* * *

توفير حوائج الدنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان

﴿يَبْنِيْٓ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيْشًا وَّلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا ۗ إِنَّهُ يُرِيَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧]

معاني المفردات:

﴿يُورِي سَوْءَ تِكُمْ﴾: يستر عوراتكم، وهو لباس الضرورة.

﴿وَرِيْشًا﴾: لِبَاسُ الزَّيْنَةِ.

﴿يُفْتِنَنَّكُمْ﴾: يُضِلُّنَّكُمْ، وَيُخَدِّعَنَّكُمْ.

البلاغة:

﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾: مجازٌ مرسلٌ، أي أنزلنا مطرًا يُنبِت القطن والكِتَان، ويُقيم البهائم ذات

الأصواف، والأوبار، والأشعار.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض مستقرًا لهما، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدِّين والدُّنيا، ومن جملتها اللباس الذي يُحتاج إليه في الدين والدُّنيا. وذلك يقتضي شكر الله على نعمه العظيمة وعبادته بحق.

التفسير:

يا بني آدم، قد جعلنا لكم لباسًا ضروريًا لستر عوراتكم، وجعلنا لكم لباسًا كمالياً تتجملون به في الناس، ولباس التقوى - التي هي امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه - خيرٌ من هذا اللباس

الحسبي، ذلك المذكور من اللباس من آيات الله الدالة على قُدْرته، لعلكم تتذكرون نعمه عليكم فتشكرونها.

يا بني آدم، لا يُعزِّبكم الشيطان بتزيين المعصية بترك اللباس الحسي لستر العورة أو ترك لباس التقوى، فقد خدع أبويكم بتزيين الأكل من الشجرة حتى كان مآل ذلك أن أخرجهما من الجنة، وبدت لهما عوراتهما، إن الشيطان وذريته يرونكم ويشاهدونكم وأنتم لا ترونهم ولا تشاهدونهم؛ فيلزمكم الحذر منه ومن ذريته، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون بالله، وأما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فلا سبيل لهم عليهم.

الهدايات المستنبطة:

- ١- التَّداء في الآيتين ﴿يَبْيِئْءَ آدَمَ﴾ بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لَقِيَهُ من وسوسة الشيطان؛ لِحَثِّ الذرية أن تُثَّأَّرَ لآبائها، وتُعَادِي عدوهم، وتَحْتَرَس من الوقوع في شَرِكِهِ.
- ٢- كثيرٌ من أعوان الشيطان يدعون إلى نزع اللباس الظاهري؛ لتتكشف العورات، فيهُون على الناس فعل المنكرات وارتكاب الفواحش.
- ٣- دل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِي سَوْءَ تِكُمْ﴾ على وجوب ستر العورة عن أعين الناس.

* * *

تشريع المشركين تقليد الآباء وتشريع الله الوحي إلى رسوله

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ بِالْفَحْشَاءِ
 أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ
 إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[الأعراف: ٢٨-٣٠]

معاني المفردات:

﴿بالقسط﴾: بالعدل.

الإعراب:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: الكاف في (كَمَا) في موضع نصب؛ لأنها صفة مصدرٍ محذوفٍ،

تقديره: تعودون عودًا مثل ما بدأكم.

المناسبة:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الشَّيَاطِينَ قُرْنَاءَ لِلْكَافِرِينَ مُسَلِّطِينَ عَلَيْهِمْ؛ ذَكَرَ هُنَا أَثَرًا مِنْ آثَارِ

تَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَهُوَ طَاعَتُهُمْ لَهُمْ.

الهدايات المستنبطة:

١- تقليد الآباء والأسلاف مرفوضٌ عقلاً وطبعاً؛ لأن الله ميّز الإنسان بالعقل الذي يستطيع

به التمييز بين الحق والباطل، فإن كان الآباء على حق وخير، جاز اتباعهم وتقليدهم، وإن

كانوا على ضلالة وشر، وجب البُعد عن منهجهم وطريقهم، وإلا كانوا على جهل وخطأ.

٢- لا يأمر الله إلا بالعدل والاستقامة، وهو تعالى منزّه عن الأمر بالفحشاء والمنكر

والمعاصي.

٣- يزيد الله تعالى المؤمنين هداية وتوفيقاً إلى الخير، بعد هداية أصل التوحيد ومعرفة الله، وثبوت الضلالة على الكافر بسبب إصغائه لوساوس الشيطان.

٤- الناس جميعاً عند خلقهم مخلوقون مفطورون على فطرة التوحيد ومعرفة الله تعالى، ثم يتغير حال بعضهم بمؤثرات البيئة والتعليم والتوجيه في البيت والمدرسة والمجتمع.

* * *

الموضوع الثالث

التفسير التلويح لآيات من سورة الكهف

من الآية (٦١) حتى ختام السورة



المقطع الأول

رحلة موسى والخضر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا
غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا
أَنْسَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى
ءَأْثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾
قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾
قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي
السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا

فَقَنَلَهُ، قَالَ أَفَنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ❁ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى
إِذَا أُنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ،
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رِجْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا
كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۖ وَمَا فَعَلْتُهُ، عَنَّ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ❁
[الكهف: ٦٠-٨٣].

تمهيد:

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجر المكان لتعود بنا إلى زمن موسى عليه السلام، بعد أن مكَّن الله تعالى له ونجَّاه من فرعون وجنوده، وقام عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل يُذكِّرهم بأيام الابتلاء، وزمان التمحيص، وأوقات الملاحقة والاضطهاد من قِبَل فرعون وجنوده، ثم أيام النصر والتمكين من عند الله تعالى، فكان لكلامه عليه السلام وقعًا في النفوس وتأثيرًا على القلوب، حتى قام أحد أصحابه فسأله: يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك؟ أجاب موسى عليه السلام: لا، لكن المفاجأة تأتي في رسالة إلهية بصيغة عملية.

روى البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي بِنُ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ذَكَرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاصَتْ الْعُيُونُ،

وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلِي، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ: هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ لَا، فَعَتَبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ...» الحديث (١).

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده: عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى عليه السلام خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفَقَدُ الْحُوتَ فَهُوَ تَمَّ، فَاَنْطَلَقَ وَاَنْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشِعُ بَنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَاَنْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَفَدَ مُوسَى عليه السلام وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَّةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَاَنْطَلَقَا بِقِيَّةِ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتُهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَعِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (١٦)، قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَاَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، يَقْصَانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَيْ بَارِضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيَّ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَيَّ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنيهِ لَا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (١٦)؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (١٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (١٩)، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٢٠)، قَالَ: نَعَمْ، فَاَنْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَيَّ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب من سورة الكهف: (ح ٤٧٧٢).

نَوَّلِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوَّلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَحَرَفْتَهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، ﴿٧٢﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٧٣﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَآخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾﴾، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾؟ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأْنَ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴿مَائِلًا﴾، فَقَامَ الْخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ آتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعَمُونَا، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيَّتُكَ بِأَوْيَلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَحْبَابِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»^(١).

أولاً: المناسبة:

لهذه القصة صلتها الوثيقة واتساقها العجيب مع سياق السورة الكريمة، وبيان ذلك من وجوه:
 لَمَّا بَيْنَ اللَّهِ ﷻ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ تَعَالَى رَحِيمٌ فِي مُلْكِهِ عَادِلٌ فِي حُكْمِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ إِهْلَاكُهُ لِلظَّالِمِينَ بَعْدَ إِمْلَاهُمْ وَإِعْذَارِهِمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلٌ

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: ما يُستحب للعالم إذا سُئِلَ: أيُّ الناس أعلم؟ فيكُلِّ العلم إلى الله: (ح ١٢٢)، وفي كتاب الأنبياء باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام: (ح ٣٢٢٠)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر ﷺ: (ح ٢٣٨٠).

لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْيَلًا ﴿٥٨﴾ [الكهف: ٥٨]، بيّن في هذه القصة أمثلة واقعية للرحمة والعدل الإلهي، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعداً محدداً: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعداً مؤكداً، فكلّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ، وليعلم الدعاة والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمساورة لهم في الخيرات لحكمٍ جليّة، كما تمخّضت أفعال الخضر التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حكمٍ عجيبةٍ.

أما صلّتها وانتظامها مع باقي القصص الواردة في السورة الكريمة ومحورها العام: فقد اشتملت سورة الكهف على قصص عجيبة تُحلق بنا في أجواء الفضيلة، بما تُقرّره من قيمٍ ومعاني سامية، وتغوص في أعماق النفس البشرية لتسيّر لنا أعوارها، وتكشف شيئاً من مكوناتها، وتُجلي لنا معالم العصمة وطرائق النجاة من الفتن، وتقدّم لنا مفاتيح الثبات أمام المحن.

فتنٌ كثيرةٌ كم كانت سبباً في هلاك أنفسٍ، وإتلاف أموالٍ، وضياع ثرواتٍ، والانحراف عن طريق الحقّ إلى ذرّك الشقاء في الدنيا والآخرة. جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتبيّن لنا قيمة العلم النافع، وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام مجاهيل الفتن وأعاصير البلاء والمحن.

جاءت لتأخذ بأيدينا وتوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى عليه السلام ليُجدوه العزم والإصرار على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهل من علمه.

ومن وجوه المناسبات أيضاً: أنه تعالى لمّا أشار في هذه السورة الكريمة إلى زينة الدنيا ومباهجها، جاءت الرحلة الميمونة: لتمسّ ثلاثة ألوانٍ من ألوان الرّينة: زينة المُلْك والسُّلطان، ولكن ما قيمته إذا كان بيد ملكٍ غاصبٍ! وزينة الولد: ولكن ما مزيتُهُ إذا خرج الولد عاقاً جاحداً! وزينة المال: فما أزيته إذا كان لعبدٍ صالحٍ! كما في قصة الغلامين اليتيمين.

ثانياً: المفردات:

﴿لا أبرح﴾: أي لا أزأل، برح: زال، لا أبرح ما أنا عليه بمعنى ألزم المسير والطلب، ولا أتزكّه ولا أفارقه حتى أبلع.

﴿حقباً﴾: السُّنُونُ واحداً حِقْبَةٌ، وقيل الحُقْبُ - بِضَمَّتَيْنِ - اسمٌ لِلزَّمانِ الطَّوِيلِ غيرُ مُنحَصِرٍ

المِقْدَار، وَجَمْعُهُ أَحْقَابٌ.

﴿سَرَبًا﴾: الْمَسْلُوكُ الَّذِي يَسْرِبُ فِيهِ.

﴿نَصَبًا﴾: التَّعَبُ وَالْمَشَقَّةُ.

﴿فَارْتَدَّا﴾: رَجَعَا عَلَى أَذْرَاجِهِمَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا.

﴿قَصَصًا﴾: أَيُّ يَفْصِنُ الْأَثَرَ قَصَصًا.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾: لَا تُعْشِنِي وَتُكَلِّفْنِي مِنْ أَمْرِي، وَهُوَ اتِّبَاعُكَ عُسْرًا أَيُّ شَيْئًا صَعْبًا، بَلَّ سَهْلًا عَلَيَّ

فِي مُتَابَعَتِكَ بِتَرْكِ الْمُنَاقَشَةِ.

﴿إِمْرًا﴾: الْبَشْعُ مِنَ الْأُمُورِ كَالدَّاهِيَةِ وَالْإِدِّ وَنَحْوِهِ، وَيُقَالُ: أَمَرَ الْإِمْرَ أَيُّ عَظُمَ وَتَفَاقَمَ.

﴿نُكْرًا﴾: الْمُنْكَرُ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِمْرِ لِأَنَّ مَعَهُ الْقَتْلَ.

﴿زَكِيَّةً﴾: طَاهِرَةٌ مِنَ الذُّنُوبِ، وَوَصَفَهَا بِهَذَا الْوَصْفِ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَهَا أَذْنَبَتْ، قِيلَ أَوْ لِأَنَّهَا صَغِيرَةٌ لَمْ

تَبْلُغَ الْحِنْتِ.

﴿لِمَسَاكِينٍ﴾: جَمْعُ مِسْكِينٍ، أَنَّ السَّفِينَةَ كَانَتْ لِقَوْمٍ ضَعْفَاءَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْفِقَ عَلَيْهِمْ، وَاحْتِجَّ

بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ هُوَ الَّذِي لَهُ بُلْعَةٌ مِنَ الْعَيْشِ كَالسَّفِينَةِ لِهَوْلَاءِ، وَأَنَّهُ أَصْلَحُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ.

﴿يَنْقُضُ﴾: أَيُّ يَسْقُطُ وَمِنْهُ انْقِضَاضُ الطَّائِرِ، أَيُّ سَقُوطُهُ السَّرِيعُ فِي الْمَاءِ، أَوْ عَلَى الْفَرِيسَةِ،

وَوُزْنُهُ انْفَعَلَ نَحْوُ انْجَرَ.

﴿فَأَقَامَهُ﴾: قَامَ بِتَدْعِيمِهِ وَإِصْلَاحِهِ حَتَّى لَا يَنْقُضَ.

ثالثًا: القراءات:

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَا النُّغْرَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾

[الكهف: ٧١]: قَرَأَ حَمَزَةَ وَالْكَسَائِي (لِيَعْرِقَ) بِالْيَاءِ (أَهْلَهَا) رَفَعًا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (لَتُعْرِقَ)، بِالتَّاءِ مَرْفُوعَةً،

وَالرَّاءَ مَكْسُورَةً، (أَهْلَهَا) نَصَبًا. قَالَ أَبُو مَنْصُورِ الْأَزْهَرِيُّ: (مَنْ قَرَأَ (لِيَعْرِقَ أَهْلَهَا) فَالْفِعْلُ لِلْأَهْلِ، وَمَنْ

قَرَأَ (لَتُعْرِقَ أَهْلَهَا) فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاطَبَ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ لَهُ: "أَخْرَقْتَ السَّفِينَةَ لَكِي تُعْرِقَ

أهلها" (١) .

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ. قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤]: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب (زكياً) بألف، وقرأ الباقون (زكياً). قال أبو منصور: "الزكياً والزكياً واحدة، وهى: النفس التي لم يخن ذنباً، ومثله: القاسية والقسيية، ومعنى الزكياً: الطاهرة النامية" (٢) .

رابعاً: الإعراب:

قوله: ﴿أَنْ أَدْكُرَهُ﴾ في محل نصبٍ على البدلِ مِنْ هاءِ ﴿أَنْسَانِيهِ﴾ بدل اشتمال، أي: أنساني ذكره.

قوله: ﴿سَرَبًا﴾ مصدر، وقيل هُوَ مفعول ثانٍ ل (اتخذ).

قوله: ﴿قَصَصًا﴾ فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أنه مصدرٌ في موضع الحال، أي: قاصين. الثاني: أنه مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ مِنْ لفظه مقدرٍ، أي: يُقَصِّصَانِ قَصَصًا. الثالث: أنه منصوبٌ بـ ﴿فَارْتَدَّا﴾ لأنه في معنى قَصَصًا.

قوله: ﴿عِلْمًا﴾: مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾، قال أبو البقاء: "ولو كان مصدرًا لكان تعليماً"، يعني: لأنَّ فعله على فَعَلٍ بالتشديد، وقياسُ مصدره التفعيل.

قوله: ﴿رُشْدًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿تُعَلِّمَنِي﴾، تقديره على أن تُعَلِّمَنِي أمرًا ذا رشد، أو مفعول لأجله، أي من أجل الرشد.

قوله: ﴿حُبْرًا﴾: فيه وجهان، أحدهما: أنه تمييزٌ لقوله ﴿حُطَّ﴾ وهو منقولٌ مِنَ الفاعلية، إذ الأصل: مما لم يُحْطْ به حَبْرٌ. والثاني: أنه مصدرٌ بمعنى لم يُحْطْ، إذ هو في قوة: لم يُخْبِرْهُ حُبْرًا. وقيل: ﴿حُبْرًا﴾ مفعول مطلق لـ ﴿حُطَّ﴾ في المعنى لأن لم تحط بمعنى لم تخبر.

(١) أبو منصور الأزهرى محمد بن أحمد (ت: ٣٧٠هـ)، معاني القراءات، الناشر: مركز البحوث، كلية الآداب - جامعة الملك سعود، السعودية، ط. أولى (١٤١٢هـ): (١١٥/٢).

(٢) أبو منصور الأزهرى، معاني القراءات: (١١٥/٢).

قوله: ﴿تُعْرِقُ﴾: في اللام وجهان، أحدهما: هي لأم العلة. والثاني: هي لأم الصَّيرورة، والصواب أنها لام الصيرورة أي العاقبة؛ لأن خرقها ليس لإغراق أهلها، وإنما لحماية السفينة من الملك الغاصب. قوله: ﴿عَسْرًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿تُرْهِقُنِي﴾ مِنْ أَرْهَقَهُ كذا إذا حَمَلَهُ إِيَّاهُ وَغَشَّاهُ بِهِ. قوله: ﴿أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ مفعولٌ به لقوله: ﴿فَأَبْوَأُ﴾. والعامَّة على التشديد مِنْ ضَيَّقَهُ يُضَيِّقُهُ. والحسن وأبو رجاء وأبو رزين بالتخفيف مِنْ: أَضَافَهُ يُضَيِّفُهُ، وهما مثل: مَيْلَهُ وَأَمَالَهُ. قوله: ﴿فِرَاقٌ بَيْنِي﴾: البين بمعنى الوصل. أي فراق وصلي ووصلك. ﴿فِرَاقٌ﴾ مضاف، و﴿بَيْنِي﴾ مضاف إليه.

﴿زَكَاةٌ، رُحْمًا﴾: منصوبان على التمييز.

قوله: ﴿رَحْمَةً﴾: فيه ثلاثة أوجه، أوضحها: أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ. الثاني: أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْفَاعِلِ، أَي: أَرَادَ ذَلِكَ رَاحِمًا، وَهِيَ حَالٌ لَازِمَةٌ. الثالث: أَنْ يَنْتَصِبَ انْتِصَابَ الْمَصْدَرِ لِأَنَّ مَعْنَى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا﴾ معنى (فَرَحَمَهُمَا).^(١)

خامساً: التفسير الإجمالي:

بداية الرحلة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾

[الكهف: ٦٠]

تذكيرٌ لكل سامعٍ وتالٍ بهذه الرحلة العجيبة وتلك الصُّحبة المباركة التي جمعت بين نبي الله موسى ﷺ وبين فتاه الذي قيل إنه يوشع بن نون، وإنما سُمي فتى: "لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه"^(٢)،

(١) نقلاً مختصراً عن السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٧/٥٢٣: ٧٤٠)، ومكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي (ت: ٤٣٧هـ)، مُشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت، ط. ٢٠ (١٤٠٥هـ): (١/٤٤٥).

(٢) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (١٩/٣).

يقول له موسى عليه السلام: "سأسير سيراً طويلاً، وأمضي زماناً مديداً، إلى أن أصل إلى مجمع البحرين". وهذا إصرارٌ من نبي الله موسى عليه السلام على مواصلة الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقةٍ وعناءٍ، ومهما أمضى من وقتٍ في سبيل هذا المقصد السامي، وفي هذا ما يدل على صدق عزمته وشدة حرصه على طلب العلم النافع والاستزادة منه، وصحبة أهله، والمثابرة في تحصيله.

اللقاء الموعود:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ
ءَاَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحَوْتَ وَمَا أَنَسَنيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف: ٦١-٦٣].

فلما أن وصلنا إلى مكان الملتقى، نسيّا الحوت الذي كان في المِكتل مملحًا، قفز إلى البحر، حتى جاوزا هذا المكان وبلغ بهما التعب والجوع مبلغًا، فطلب موسى عليه السلام من فتاه أن يُقدِّم الغداء، فتذكر الفتى أنه نسي أن يخبر موسى عليه السلام بما حدث للحوت الذي شقَّ طريقه للبحر، فأدرك موسى عليه السلام أنه المكان المقصود للقاء فعادا إليه، مُتتبعين آثار أقدامهما، وقد اختلفَ في البحرين: ما هما؟ وأين ملتقاهما، أو مجمعهما؟ والله أعلم بهما، ولعلَّهما خليج السويس وخليج العقبة، حيث يلتقيان عند رأس شبه جزيرة سيناء، طرفها الجنوبي، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء.. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما.. أي هو مجمعهما، وهو مجمع البحرين. والله أعلم، ويُقوي هذا الرأي، أن تحرُّك موسى عليه السلام بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء، حيث ضُربَ فيها التيه على بني إسرائيل أربعين سنة. والله أعلم.

فلَمَّا وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالخضر عليه السلام نسيّا حوتهما. ومثارُ التعجب: أن يحيا حوتٌ مُملحٌ، ثم يثبُ إلى البحر، ويبقى أثرُ جريته في الماء لا يمحو أثرها

جريان ماء البحر!

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَايَاتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦٤-٦٦].

أدرك موسى عليه السلام أن موضع نسيان الحوت هو الموعد المكاني للقاء الذي وصفه الله سبحانه فقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛ والعبودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خلِقَ الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر عليه السلام من اجتهادٍ في العبادة، وهذه صفةٌ أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح، وفي وصفه عليه السلام بأنه عبدٌ من عباد الله: ردُّ على كلِّ من غالى في شأن الخضر، حتى توهم بعض العُلَامة أن الخضر لا يزال على قيد الحياة وأنه يظهر لبعض الناس فيُرشدهم ويوجههم! وهذا كلام لا يشهد له نقل صحيح، ولا يصدِّقه عقلٌ راجح.

﴿ ءَايَاتُهُ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة: قيل هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه، وهو ما خصَّه الله تعالى بعلمه ومعرفته، وفي الآية تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيمٌ له وبيانٌ لخصوصيته واختصاصه عليه السلام به.

فلما التقى موسى بالخضر وتعارفا طلب موسى عليه السلام من الخضر أن يتبعه حتى يفتَّس من علمه، ويسترشد منه ما ينفعه في دينه ودنياه، إذ الغاية من تحصيل العلم هو الانتفاع به والتَّماس الرُّشد منه. فترفَّق موسى عليه السلام في طلبه وتواضع في سبيل تحصيل العلم، " وفي هذا العرض أمور:

- استئذانٌ مصحوبٌ برجاءٍ وتلطف.
- أن يكون موسى عليه السلام تابعًا يَفْقُو أثرَ متبوعه، ويمشي في ظلِّه.
- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيل العلم والمعرفة، فيفيد موسى عليه السلام علمًا وينال العبد الصالح أجرًا.

- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علمٌ عَلِمَهُ، وإذن فهو مطالب بأن يُعَلِّمَ كما عَلِّمَ..
- هذا العلم المطلوب تعلُّمه، هو مما يكتملُ به الإنسان ويرشُد.. فهو علمٌ يهدي إلى الحق، وإلى الرشاد، لا إلى الضلال والفساد" (١).

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۗ ﴾ (٦٨)

[الكهف: ٦٧-٦٨].

بيِّن له الخضرُ أن الرحلةَ معه ومتابعتهُ تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، ففيها من المفاجآتِ والعجائبِ ما قد يخرُجُ عن حدِّ الصبرِ، فقدَّم له العذرَ لما سيلقاهُ من عجائبٍ وغرائبٍ، متسائلاً كيف تصبر على علمٍ ظاهره منكر، وأنت لا تعلم! ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والإقرار عليه. قال الخطيب الشربيني: "وكيف تصبر على أمور - وأنت نبيٌّ - ظاهرها مناكير، والرجل الصَّالح لا يتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك، بل يُبادر ويأخذ في الإنكار" (٢).

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴾ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن

شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۗ ﴾ (٧٠) [الكهف: ٦٩-٧٠].

أصرَّ موسى ﷺ على متابعته مستعيناً بالله تعالى، ومؤملاً أن يُلهمه الصَّبْرُ والثَّبَاتُ؛ فاشترط عليه الخضر قائلاً: "إذا رأيت مني شيئاً تُنكره فلا تُفاتحنِي بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك".

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: (٤/٦٥٢).

(٢) الخطيب الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض

معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق (الأميرية) القاهرة، (١٢٨٥هـ): (٢/٤٢٩).

الجملة الأولى: خرق السفينة

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الكهف: ٧١-٧٣].

فبدأت الرحلة، بانطلاقهما على ساحل البحر حتى وصلا للسفينة، وهنا قام الخضر بقلع لوح فيها، مما أثار عجب موسى عليه السلام من هذا الفعل الخطير، وفي الحديث «... فَأَنْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْأَوْحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا! ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ...»^(١). فأنكر موسى عليه السلام على الخضر خرقه للسفينة لما يترتب على ذلك من غرق أهلها، وظن أن هذا من مقابلة إحسانهم بالإساءة، ثم حكم على هذا الفعل بأنه أمر عظيم منكر: لقد أتيت أمراً عظيماً وارتكبت جرماً كبيراً! فعاتبه الخضر عليه السلام وذكره بما اشترطه عليه عند أول لقاء أنه لن يتدرع بالصبر، فاعتذر له موسى عليه السلام بأن لا يؤاخذة على التسيان، ولا يحمله ما لا يطيق.

(١) سبق تخريجه.

الجولة الثانية: قتل الغلام

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ

بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف: ٧٤-٧٦].

فانطلقا بعد أن غادرا السفينة حتى لقيا غلامًا يلعبُ مع أقرانه فأخذه الخضر عليه السلام من بينهم وقتله، وهنا غضب موسى عليه السلام أشدَّ الغضب، وحزن على موت هذا الغلام، فقال منكرًا على الخضر: "كيف تقتل نفسًا طاهرة بريئة بغير حقِّ، لقد جئت شيئًا منكرًا فظيعة!" فلم يستطع موسى عليه السلام أن يصبر على الرغم من تذكُّره لوعده، فذكَّره الخضر بسؤالٍ يحملُ رُوحَ المعاتبَةِ (ألم أخبرك أنك لن تتذرع بالصبر لما تراه معي!) فبادر موسى عليه السلام بالاعتذار فقال: ﴿إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة، ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ أي: لا تجعلني صاحبًا لك، "نماه عن مصاحبتِه مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ يُريدُ أنك قد أعذرت حيث خالفتك، وهذا كلامٌ نادِمٌ شديدُ الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف".^(١)

(١) الشوكاني، فتح القدير: (٤٣٢/٣).

الرحلة الثالثة : إقامة الجدار

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨].

فانطلقا حتى أتيا أهل هذه القرية، وقد استبدَّ بهما الجوعُ فاضطُّرا إلى استطعام أهلها، فإذا هم أشحةٌ لغامٍ، أبوا أن يضيفوهما، مع ما عندهم من سعةٍ، وهنا ينصرفُ الخضرُ إلى أداء مهمة عاجلة، إقامة جدارٍ قبل انقضاذه، فيتعجب موسى من صنيعة، ويقول له: "لو شئت لطلبت أجرا على هذا العمل!" فيجيبه الخضر بقوله: "هذا أوان فِرَاقٍ وصلينا، ولكنني سأخبرك بحقائق الأمور ومقاصد الأفعال التي تعجبت منها وأنكرتها، دون أن تصبر؛ إذ لا بدَّ من المكاشفة".

تأويل الأفعال

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٦﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

السفينة:

كشف له الخضرُ عن الحكمة من هذه الأفعال التي أنكرها عليه: فبدأ بالسفينة، مبيِّنا أنها كانت ملكًا لمساكين يعملون في البحر، لا يكادُ دخلها يُوفي بنفقاتهم، ومع ذلك كانت كغيرها من السفن

مَطْمَعًا لِمَلِكٍ غَاصِبٍ، يَسْتَوِي بِبِطْشِهِ وَطَغْيَانِهِ عَلَى كُلِّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ خلفهم وفي إثرهم، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي كل سفينة صالحة، ولا قدرة لهم على تخليصها لو أخذها، فخرقتها وعبثها حتى لا يأخذها الملك الغاصب، فإذا مرَّ بها تركها لعييبها، فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها.

الغلام:

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

وأما الغلام الذي بادَرَ لقتله: فلقد كان لأبوين صالحين، وكان في بقائه وقد طُبِعَ على الكفر إرهابًا وإحراجًا لهما، فأردنا رحمةً بهما وإشفاقًا عليهما، أن يعوّضَهُمَا ربهما بإحسانه ولطفه خيرًا منه دينًا وعملاً وصلاحًا، وأوصلَ رُحْمًا وأبْرَّ بهما. روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبِيعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا»^(١).

الجدار:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحًا، فنفعهما الله بصلاحه وقبض لهما الخضر ليقوم الجدارَ حمايةً للكنز، حتى إذا بلغا أشدهما استخرجاه.

﴿رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾: أي نعمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: "باختياري ورأيي بل فعلته

(١) صحيح مسلم كتاب البرّ والصلة والآداب، باب: كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (ح ١٧٢): (ح ٢٣٨٠).

بأمر الله وإلهامه إياي، لأن تنقيص أموال الناس، وإراقة دمائهم، وتغيير أصولهم، لا يكون إلا بأمر من الله تعالى" (١).

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾: أي وما فعلت ما رأيت من حَرْقِ السَّفِينَةِ، وقتل الغلام، وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأي، وإنما فعلته بأمر الله، وهذا يدل على أنه نبيٌّ أُوْحِيَ إليه. ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ تفسيرٌ وبيان ما لم تُطِقْ أن تصبرَ عليه.

قال ابن عطية: "والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل هو عبدٌ صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته، لأن بَوَاطِنَ أفعاله ما كانت إلا بوحي من الله" (٢). وقال أبو حيان: "والجمهور على أن الخضر نبي، وكان علمه معرفة بواطنٍ قد أُوحِيَتْ إليه، وعِلْمُ موسى الأحكام والقُتيا بالظاهر" (٣).

الهدايات المستنبطة من القصة

- السَّفر في طلب العلم وعلوَّ الهمة وقوَّة العزم في طلبه، والصبر على المشقَّة والعناء ومُكابدة الصَّعاب التي تعترض طالب العلم.
- يُستحب للمسافر أن يطلب الرفيق قبل الطريق، وشرطُ الرفيقين أن يكون أحدهما أميرًا، والثاني مأمورًا له ومتابعًا، ومنها أن يُعلم الرفيقَ عزيمته ومقصده، ويُخبره عن مدة مُكثه في سفره، ليكون الرفيق واقفًا على أحواله، فإن كان موافقًا له؛ يرافقه في ذلك.
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]: "فيه دليلٌ على أنَّ الْمُتَعَلِّمَ تَبِعَ لِلْعَالِمِ، وَلَوْ تَقَاوَتَتِ الْمَرَاتِبُ" (٤)، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يختص أحدهما بعلم لا يعلمه

(١) الخازن، بُبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ: (٣٢٨/٤).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥٢٩/٣) بتصرف.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط: (١٤٧/٦).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٧/١١)، الشوكاني، فتح القدير: (٣٥٤/٣).

- الآخر، وفيه الحاجة إلى التخصص الدقيق في العلم، والرجوع إلى أهل التخصص.
- العلم بجزء لا ساحل له، تأمل في حوار موسى مع الخضر حين لقيه: «... حَتَّىٰ آتِيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَىٰ رَجُلًا مُّسَجًى عَلَيْهِ بَثْوِبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَلَيْسَ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ، قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيَّ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَيَّ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنيهِ لَا تَعْلَمُهُ...» (١).
 - ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه فلعلمه ينطوي على حكمة لا يعرفها.
 - تعلم العلم عبادة وقربة، وهو ليس غاية في ذاته بل الغرض الانتفاع به في أمور الدين والدنيا، ولهذا قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي أسترشد به وأتزوّد منه لدنياي وآخرتي.
 - ومما يُستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مُكتسب يُدرّكه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمتنّ عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. قال ابن القيم: "العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله ﷺ، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سُئل: هل خصّكم رسول الله بشيء دون الناس؟ فقال: "لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يُؤتيه الله عبدًا في كتابه"؛ فهذا هو العلم اللدني الحقيقي (٢).
 - وقال أبو حيان رحمه الله: "وفي قول الخضر لموسى: من أنت؟ وقد علّمه الله بواطن الأشياء ومآلها؛ دليل على كذب هؤلاء المُتَمَنِّين للتصوف المدّعين علم الغيب والكشف عن أحوال الناس، أعاذنا الله من ذلك" (٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين: (٤٧٦/٢).

(٣) أبو حيان، النهر الماد من البحر على هامش البحر المحيط: (١٤٢/٦).

- ورد في القصة مؤهلات المعلم والمربي والمصلح، وهي: العبودية، الرحمة، العلم الإخلاص، النصح، البذل، الإحسان، فلا بد أن يكون مجتهداً في العبادة، وأن يتحلّى بمكارم الأخلاق والتي تمثل الرحمة لبابها وأساسها.
- في تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، فلا يُعقل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عُدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يُهدد خطر الإنسانية، وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر، ولوثوا الأجواء والأجواف، كذلك رأينا كيف عَدِم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليم تجارة رابحة لا رسالة سامية، وصار التعنت شعارهم وديارهم، وقد يتعامل مع تلميذه الصغير بقسوة، كذلك انتزعت الرحمة من قلوب بعض طلاب العلم، فأساءوا إلى معلمهم، وربما تناولوا عليهم!
- تحلّى طالب العلم بالصبر والأناة، وتأدبه مع شيخه، وترفقه عند السؤال.
- ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه، لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهَمِّه في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جدِّ واجتهاد، وبذل، وعطاء، قال صاحب روح البيان: "يتمتحنه بأن يُخبره عن دِقَّةِ صراطِ الطلبِ وعزَّةِ المطلوبِ وعُسْرَتِهِ، وفي ذلك يكون له مبشراً ولا يكون منقراً، فإن وجده صادقاً في دعواه وراعياً فيما يهواه مُعرضاً عما سواه يتقبله بقبول حسن، ويكرم مثواه، ويُقبل عليه إقبال مولاه، ويُربيه تربية الأَوْلَادِ ويُؤدبه بآداب العباد"^(١).
- وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾^(٦٨) فالتَمَسَ له العذر في ذلك؛ لما سيلقاه من عجائب وغرائب.

(١) البروسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، (ت: ١١٢٧هـ) روح البيان، دار الفكر بيروت: (٢٣٥/٥).

- ومنها الإشارة إلى جملة من مناقب نبي الله موسى عليه السلام، ومنها الصدق، وعلو الهمة، والمثابرة، وحسن الصحبة، والتواضع، واللين، والحياء، والإيجابية، والصبر.
- ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع؛ لدراسة الواقع والتعامل معه، ومعايشة هموم الناس، وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث.
- وفيها: "دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه وصف المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته..."^(١)، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تَعْقِلَ عن هذا الصِّنْفِ من الناس الذين لا يستطيعون بدخلهم المحدود أن يلبّوا احتياجات بيوتهم، في ظلّ هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية، والغلاء الفاحش الذي تُعاني منه معظم الشعوب المسلمة، حيث تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم.
- ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرين، ولقيا العنت، فكان موته راحةً لهما ورحمةً بهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يُحب.
- ومنها: أن النَّاسِي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾^(٧٣).
- ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكامُ الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقة السفينة وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/٣٢٧).

صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يُوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

• ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلافٌ لبعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب؛ فتسلم من غضب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي؛ جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتدائه للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن ^(١).

• التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند

تأويل خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ

يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ^(٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رِجْمًا﴾، فقال:

(فَأَرَدْنَا) لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشدِّ

وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخلٍ وأثر لإرادة العبد.

• ومن العبر والعظات المستمدة من القصة: أنه من كمال تدبيره تعالى وحكمته وتما لطفه

ورحمته أن قيِّض نبيِّين مثل موسى والخضر - عليهما السلام - في مصلحة يتيمين؛ فعلى

العلماء والدعاة أن لا يرضوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم.

• وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام، والحمد لله تُقام في

طول بلاد المسلمين وعرضها جهودٌ طيبةٌ لكفالة الأيتام.

• ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته الصالحة

(١) يراجع: السعدي، تيسير الكريم الرحمن: (ص: ٤٨٥).

من بعده، قال محمد بن المنكدر: "إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد؛ ولده، وولد ولده، وعشيرته، وأهل دويرات حوله"^(١).

- إذا رأى المسلم منكراً فيجب عليه أن يُسارع إلى إنكاره أيّاً كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل؛ لاحتمال أن يكون للمسألة وجه؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف.
- أنكر موسى عليه السلام على الخضر خرقة للسفينة، لأنه لم يعلم الحكمة من ذلك، فالخضر يفعل ذلك على سبيل الإصلاح ودفع الظلم، فنظرة موسى عليه السلام أن السعي في إغراق رُكَّاب سفينة من الإفساد، فأين هذا ممن ينتسبون إليه من اليهود الصهاينة الذين هم من وراء كل إرهاب وتخريب، فما الأعمال الإرهابية العدوانية التي تمس الحافلات والطائرات، وتقتل المسلمين، وتُروّع الآمنين، إلا من حصاد مخططاتهم وبغيهم، وتأميرهم على الإنسانية.
- قال أبو حيان: وفي كتاب التحرير والتجوير ما نصه: "تعلّق بعض الجهّال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل من موسى وطرردوا الحكم، وقالوا: "قد يكون بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء، واستدلوا أيضاً بقول أبي يزيد: "خضت بجرّاً وقف الأنبياء على ساحله"، وهذا كلّ من ثمرات الرّعونّة والظنّة بالنفس" انتهى. وهكذا سمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين المضلين، وهو ابن العربي الطائي الحاتمي صاحب "الفتوح المكيّة"، فكان ينبغي أن يُسمى بـ "القُبوح الهلكيّة"، وأنه كان يزعم أن الولي خيرٌ من النبيّ، قال: "لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة، والنبيّ يأخذ بواسطة عن الله، ولأن الولي قاعدٌ في الحضرة الإلهية، والنبيّ مرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة... إلى أشياء من هذه الكفريات والزندقة، وقد كثر مُعظّموا هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل الله السلام في أدياننا وأبداننا"^(٢).

(١) معالم التنزيل للبغوي: (١/١٩٥).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط: (٦/١٥٣)، وطرردوا الحكم: عمموه، وقاسوا عليه كون الولي قد يكون أفضل من النبي.

اللطائف البلاغية:

○ الإيجاز بالقصر والحذف: قال ابن عاشور: "وَحَذَفُ ذِكْرِ الْعَرَضِ الَّذِي سَارَ لِأَجْلِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَنَّهُ سَيَذْكَرُ بَعْدُ، وَهُوَ حَذْفُ إِيجَازٍ وَتَشْوِيقٍ، لَهُ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ فِي حِكَايَةِ الْقِصَّةِ، لِإِحْرَاجِهَا عَنْ مَطْرُوقِ الْقِصَصِ إِلَى أَسْلُوبِ بَدِيعِ الْحِكْمِ وَالْأَمْتَالِ قِضَاءً لِحَقِّ بِلَاغَةِ الْإِعْجَازِ".^(١)

○ والحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة حيث قال مرة: (سَرَبًا) وقال مرة أخرى:

(عَجَبًا): الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: «فَكَانَ لِلْحَوْتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى

وَفَتَاهُ عَجَبًا»^(٢). فَيَسَّرُ اخْتِلَافَ التَّعْبِيرِ، أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى كَانَ يَنْظُرُ لِلْحَادِثَةِ مِنْ زَاوِيَةِ

الْحَوْتِ، وَيَلْحِظُ حَرَكَةَ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ: «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا»، أَمَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ

فَكَانَ يَنْظُرُ لِلْحَادِثَةِ مِنْ زَاوِيَةِ مُوسَى ﷺ وَفَتَاهُ، وَيَلْحِظُ أَثَرَ حَرَكَةِ الْحَوْتِ عَلَى نَفْسِيَّةِ

وَشُعُورِ مُوسَى ﷺ وَفَتَاهُ، وَلَاشَكَّ أَنَّهُمَا عَجَبَا مِنْ حَرَكَةِ الْحَوْتِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «وَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا».

○ وتُشِيرُ هُنَا إِلَى أَنَّ الْعَجَبَ الَّذِي أَثَارَتْهُ حَرَكَةُ الْحَوْتِ وَبَعَثَهُ، لَيْسَ مَبْعُوثُهُ الْإِنْكَارُ وَالِاسْتِغْرَابُ،

لَأَنَّ مُوسَى ﷺ وَفَتَاهُ، يُؤْمِنَانِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْبَعْثِ وَصَنَعِ الْمَعْجَزَاتِ، وَإِنَّمَا مَبْعُوثُهُ هُوَ دَهْشَةُ

الْمَفْاجَأَةِ، وَالْإِنْفِعَالُ بِهَا"^(٣).

○ وَقَالَ الرَّمَّحَشَرِيُّ: "فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ قِيلَ ﴿حَرَقَهَا﴾ بِغَيْرِ فَاءٍ وَ﴿فَقَتَلَهُ﴾ بِالْفَاءِ؟ قُلْتُ: جُعِلَ

حَرَقَهَا جَزَاءً لِلشَّرْطِ، وَجُعِلَ قَتَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ الشَّرْطِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ وَالْجَزَاءُ قَالَ أَقْتَلْتُ: فَإِنْ قُلْتَ:

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٣٦١/١٥)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مع قصص السابقين في القرآن الكريم: (٢٠٤/٢)، "دروس في الإيمان والدعوة والجهاد"، صلاح عبد الفتاح

الخالدي.

فَلِمَ حُولِفَ بَيْنَهُمَا؟ قُلْتُ: لِأَنَّ حَرْقَ السَّفِينَةِ لَمْ يَتَعَقَّبِ الرُّكُوبَ وَقَدْ تَعَقَّبَ الْقَتْلُ لِقَاءَ الْعُلَامِ
انْتَهَى".^(١)

- قال ابن عثيمين: "واللام في قوله: (لْتُعْرِقَ) ليست للتعليل ولكنها للعاقبة، يعني أنك إذا خرقها غرق أهلها، وإلا لا شك أن موسى عليه السلام لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضاً أنه يدري أنه لا يريد أن يُغرق أهلها، لأنه لو أراد أن يُغرق أهلها لكان أول من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].^(٢)
- وفي قوله لْتُعْرِقَ أهلها ولم يقل لْتُعْرِقْنَا مع سُمُوِّ مقامه عليه السلام يدل على مدى حرصه على سلامة غيره، وهذا من أخلاق الأنبياء الذين جادوا بمهجمهم في سبيل الإصلاح والتزكية.

- ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: فظيماً منكرًا لا يُعرف في الشرع، قيل: معناه: أنكّر من الأمر الأول؛ لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، زاد هنا لفظ "لك"، لأن سبب العتاب أشد، وموجبه أقوى، فزاد لفظ "لك"؛ لقصد التأكيد كما تقول لمن تُوجّه: "لك أقول وإياك أعني"، ولأنه سبق له أن قال له ذلك، فجاء بذلك للزيادة في العتاب على ترك الوصية مرة بعد مرة، كما لو أتى الإنسان ما نهيته عنه فلمتته وعنتته، ثم أتى ذلك مرة ثانية؛ فإنك تزيد في لومه وتعنيفه؟

- قال أبو حيان: "وَتَكَرَّرَ لَفْظُ أَهْلٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوَكُّيدِ، وَقَدْ يَظْهَرُ لَهُ فَايِدَةٌ عَنِ التَّوَكُّيدِ وَهُوَ أَنَّهُمَا حِينَ أَتَى أَهْلَ الْقَرْيَةِ لَمْ يَأْتِيَا جَمِيعَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِيمًا أَتِيَا بَعْضَهُمْ، فَلَمَّا قَالَ اسْتَطَعَمَا احْتَمَلَ أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَطَعَمَا إِلَّا ذَلِكَ الْبَعْضَ الَّذِي أَتِيَاهُ فَجِيءَ بِلَفْظِ أَهْلِهَا لِيُعَمَّ جَمِيعُهُمْ وَأَنَّهُمْ يُتَّبَعُونَ وَاحِدًا

(١) الزمخشري، الكشاف: (٧٣٦/٢)، وأبو حيان، البحر المحيط في التفسير: (٢٠٨/٧).

(٢) محمد صالح العثيمين، تفسير سورة الكهف: (ص ١١٦)

وَاحِدًا بِالِاسْتِطْعَامِ، وَلَوْ كَانَ التَّرْكِيبُ اسْتَطْعَمَاهُمْ لَكَانَ عَائِدًا عَلَى الْبَعْضِ الْمَأْتِيًّا^(١). قلت: "ولا يخفى ما في التعبير القرآني من الفصاحة والبيان، بخلاف ما لو قيل استطعماهم ففيها من الثقل ما فيها".

○ قال الألوسي: "ولا يخفى ما في التعبير بالإباء من الإشارة إلى مزيد لُوم القوم، لأنه كما قال الراغب شدة الامتناع؛ ولهذا لم يقل: فلم يضيفوهما مع أنه أخصر فإنه دون ما في النظم الجليل في الدلالة على ذمهم"^(٢).

○ وإنما عبر باستطعما دون استضافا؛ للإشارة إلى أن جُلَّ قصدهما الطعام دون الميل بهما إلى منزل وإيوائهما إلى محلّ، وذكر بعضهم أن في ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُما﴾ من التشنيع ما ليس في أبوا أن يُطعموهما؛ لأن الكريم قد يردّ السائل المستطعم ولا يُعاب، كما إذا ردّ غريبًا استضافه بل لا يكاد يرد الضيف إلا لئيم، ومن أعظم هجاء العرب: (فُلان يطرد الضيف)، وعن قتادة: "شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يُعرف لابن السبيل حقه"^(٣).

○ التعبير البليغ في ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ كأن للجدار إرادة، وهذا كناية عن مشاركته للانقضاء، وحاجته إلى معالجة عاجلة حتى لا ينحسر عن الكنز، فيستولي عليه اللئام^(٤)، فاستُعيرت الإرادة للمشاركة؛ للدلالة على المبالغة في ذلك. قال أبو حيان: "وَإِسْنَادُ الْإِرَادَةِ إِلَى الْجِدَارِ مِنَ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ وَالِاسْتِعَارَةِ الْبَارِعَةِ، وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِسْنَادُ أَشْيَاءَ تَكُونُ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ إِلَى مَا لَا يَعْقِلُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَإِلَى الْجَمَادِ، أَوْ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مَكَانَ الْعَاقِلِ لَكَانَ صَادِرًا مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ. وَقَدْ أَكْثَرَ الزَّمْحَشَرِيُّ وَعَیْرُهُ مِنْ إِيرَادِ

(١) البحر المحيط: (٢٠٩/٧).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٣٢٨/٨)، ويُراجع للراغب، المفردات في غريب القرآن: (ص ٥٨).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٣٢٨/٨)، والأثر عن قتادة أخرجه الطبري في جامع البيان: (٧٨/١٨).

(٤) يراجع: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٣٧/٥).

الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْ لَهُ أَدْنَى مُطَالَعَةٍ لِكَلَامِ الْعَرَبِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ فِي ذَلِكَ".^(١)

○ لكن للشيخ ابن عثيمين في ذلك توجيه سديد حيث يقول: "فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ" أي: أنه مائلٌ يُرِيدُ أَنْ يسقط، فإن قيل: هل للجدار إرادة؟ فالجواب: نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا تتعجب إن كان للجدار إرادة فهاهو "أُحِد" قال عنه النبي ﷺ إنه: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» والمحبة وصفٌ زائد على الإرادة، أما قول بعض الناس الذين يُجيزون المجاز في القرآن: إنَّ هذا كناية وأنه ليس للجدار إرادة فلا وجه له".^(٢)

○ التعريض: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، قال الألوسي: "لم يقل ذلك حثًا، وإنما قاله تعريضًا بأنَّ فعله ذلك فضولٌ وتبرُّعٌ بما لم يُطلب منه من غير فائدة ولا استحقاق لمن فُعل له مع كمال الاحتياج إلى خلافه، وكأن الكليم عليه السلام لما رأى الحرمان ومساس الحاجة والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبر فاعترض".^(٣)

○ الأضداد: قال أبو علي: "إِنَّمَا جَارَ اسْتِعْمَالُ وَرَاءَ بِمَعْنَى أَمَامَ عَلَى الْإِتْسَاعِ لِأَنَّهَا جِهَةٌ مُقَابِلَةٌ لِجِهَةٍ فَكَانَتْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ وَرَاءَ الْأُخْرَى إِذَا لَمْ يَرِدْ مَعْنَى الْمُؤَاجَهَةِ، وَيَجُوزُ ذَلِكَ فِي الْأَجْرَامِ الَّتِي لَا وَجْهَ لَهَا مِثْلُ حَجْرَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَرَاءَ الْآخَرِ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ اللَّعَةِ عَلَى أَنَّ وَرَاءَ مِنَ الْأَضْدَادِ انْتَهَى".^(٤) وقال ابن عطية: "وَقَوْلُهُ: وَرَاءَهُمْ عِنْدِي هُوَ عَلَى بَابِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ إِنَّمَا تَجِيءُ يُرَاعَى بِهَا الزَّمَنُ، وَالَّذِي يَأْتِي بَعْدُ هُوَ الْوَرَاءُ وَهُوَ مَا حُلِّفَ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بِأَدْيِ الرَّأْيِ، وَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فِي مَوَاضِعِهَا حَيْثُ وَرَدَتْ بِجِدِّهَا

(١) أبو حيان، البحر المحيط: (٧/٢١٠).

(٢) تفسير العثيمين: الكهف: (ص١٢٠)، والحديث متفق عليه. البخاري: كتاب الزكاة، باب: خرص التمر: (ح١٤٨١). مسلم: الحج، باب: أُحِدْ جبل يحبنا ونحبه: (ح١٣٩٢)، (ح٥٠٣) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٣٠).

(٤) الألوسي، روح المعاني: (٨/٣٣٠).

تَطَرَّدُ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مَعْنَاهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ وَعَمَلُهُمْ وَسَعْيُهُمْ يَأْتِي بَعْدَهُ فِي الزَّمَنِ غَضَبٌ هَذَا الْمَلِكِ" (١)

○ قوله: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾: التثنية للتغليب، يُريد: أباه وأمه، فغلب المُدكّر، وهو شائع، ومثله: القمّان والعمران. (٢)

○ ولعلّ التعبير عن القرية بالمدينة: "لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح" (٣)، وكم عُرفت بلادٌ واشتهرت بصالحيتها ونجائها.

○ في إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ تنبيهٌ له عليه الصلاة والسلام على تحمُّ كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة. (٤)

○ رعاية الفاصلة: وهو من محاسن البديع: كما في ختام الآيات: حَقْبًا، سَرَبًا، نَصَبًا، عَجْبًا، صَبْرًا، حُبْرًا، أَمْرًا، ذَكْرًا، إِمْرًا، صَبْرًا، عُسْرًا، نُكْرًا، صَبْرًا، عُدْرًا، أَجْرًا، صَبْرًا.

○ التكنير في ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأَنبَيْتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]: نكّر ﴿عبدًا﴾ للتعظيم والتفخيم، والإضافة ﴿من عبادنا﴾ للتشريف، وتكثير ﴿رحمة﴾ للتعظيم، وتكثير ﴿علمًا﴾ للإبهام المفيد للتعظيم والتكثير.

○ بلاغة السؤال:

- ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِن مِّمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] للتلطف والتأدب وحسن الطلب.

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥٦٧/٣)، ويُراجع البحر المحيط: (٢١٣/٧).

(٢) السمين، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٣٧/٧).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٣٨/٥).

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٤١/٥).

- ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٨]: للتقرير أي لن تصبر.
- ﴿ أَخْرَقَهَا لِنُغْرُقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١]، ﴿ أَقَلَّتْ نَفْسًا رَّكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤]: للعتاب والإنكار والتعجب.

* * *

المقطع الثاني

قصة ذو القرنين

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٥].

أولاً: مناسبة الآيات لما قبلها:

تتجلى لنا المناسبة بين هذه القصة والقصص التي سبقتها، وبين القصة ومحور السُّورة ومقصودها: فبعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما أسفرت عنه من عبرٍ وعظاتٍ، يأتي الحديث عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكَّن الله له، وهياً له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطاف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً مظفراً، وحاكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً، وعبداً شكوراً، فملاً الدنيا عدلاً ونوراً.

رحل موسى ﷺ طلباً للعلم النافع، وسافر الخضر بأمر الله تعالى حاملاً لواء الجهاد وراية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في رُبوع الكون، ويُلِّغ دعوة الحق، ويُصحح المفاهيم، ويُقيم الموازين القسط، ويُريِّخ القيم الأصيلية، والأخلاق الفاضلة.

قال البقاعي: "ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنه طَوَّف في الأرض لطلب العلم، عَقَّبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقَدَّمَ الأولى إشارة إلى علوِّ درجة العلم؛ لأنه أساس كلِّ

سعادة، وقوام كل أمر".^(١)

كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه، وجحد النعمة، وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يُذكِّره بالله ويُحذِّره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنكُمَا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذج رائع للملك الصالح المتعفف الذي مكَّنه الله في الأرض، فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل راية الحقِّ ومصايح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنة، فشتان بين عهدين! عهدٌ ساد فيه الكفر والفساد، وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة. مملكةٌ كافرة تجعل الكفر لها دستوراً وسياساً، وملكٌ غاصبٌ طاغيةً، ومملكةٌ مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجاً ونوراً وسراجاً! وبضدها تتبين الأشياء.

ثانياً: مناسبة القصة والهدف الرئيس:

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيس لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن، وأوردت نموذجاً عملياً ومثالاً واقعياً يُحتذى به، حيث تعرّض الفتية لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنهم في دينهم، واستغلَّ سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكلِّ المغريات، كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله تعالى من كلِّ تلك الفتن؛ لما خلصت نيتهم، وصفت سريرتهم، وقويت عزيمتهم، وصدق توجُّههم إلى الله تعالى.

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٤/٥٠١).

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرْبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُّوْلَاءَ قَوْمًا أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ [الكهف: ٩-١٦].

وهكذا نجد السورة الكريمة تُبرِّز لنا طريق النجاة من جميع الفتن، فتنة السلطان، وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، وفتنة العلم، وفتنة إبليس اللعين، وفتنة القوة والتمكين من خلال قصة ذي القرنين، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة إتباع الأهواء والاعتزاز بزخرف القول، مما يتواكب مع خواص السورة، وفضائلها، وعصمتها لتاليها من الفتن الحوالم.

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ أَنَّ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ زِينَةٍ إِنَّمَا هُوَ لِلآبِتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ الَّذِي يُبْرِزُ مَعَادِنَ النَّاسِ، وَيُجَلِّي عَنْ قُصْدِهِمْ وَهَمْتِهِمْ نَحْوَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ [الكهف: ٧-٨]، لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ ضَرْبَ أَمْثَلَةٍ تَكْشِفُ عَنْ مَوْقِفِ النَّاسِ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا، فَبَدَأَ بِقِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ الَّذِينَ لَمْ يَغْتَرُّوا بِزِينَةِ الشَّبَابِ، وَزِينَةِ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، وَزِينَةِ الْأُجْبَةِ وَالسُّلْطَانِ، بَلْ تَرَكُوا كُلَّ هَذِهِ الْمَلذَّاتِ، وَأَعْرَضُوا عَنْ جَمِيعِ الْإِغْرَاءَاتِ، وَهَجَرُوا الْأَهْلَ وَالْخَلَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَلَّ فِي عِلَاهِ.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي غرَّه المال ولم يحمد الله عليه بل ازداد بطرًا وشرًا، في حين نجح صاحبه في الابتلاء؛ حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فكان له ناصحًا أمينًا، وواعظًا بليغًا. ثم يأتي التعقيب على هذه القصة مبيِّنًا حقيقة الدنيا الفانية، وما فيها من زينة تسلُّب القلوب، وتأسر النفوس، وتصرفها عن غاية وجودها، وعاقبة أمرها.

وإذا كان هناك من يغترُّ بالمال أو بالولد، فإن هناك من يغترُّ بالوعود الكاذبة والأمانى الباطلة التي يمنى بها إبليس اللعين هذا العدو القديم الذي أظهر عداوته قديماً يوم أن امتنع عن السجود لآدم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبٰلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهِۗۤ اَفَتَّخِذُوْنَہٗ وَاٰوِيَّتَهُۥٓ اَوْلِيَاۗءَ مِنْ دُوْنِيۤ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَّتَسَلَّلُ لِلظَّٰلِمِيْنَ بَدَلًا ۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، ومن أشدَّ أسلحة إبليس سلاح التزيين فكم من معصية زيتها، وكم من بدعة حسنها، وكم من طاعة صرف الناس عنها، وكم من ضلالة زخرفها، وكم من توبة سوّفها.

ثم يُورد لنا السياق حقائق ساطعة، وسُنناً ربانيّة، وقضايا عقديّة حول الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر، وسنن الله الماضية والجارية في الأمم، ومن الناس من يغترّ بنعمة العلم، بل وربما ظنَّ أنه أعلم الناس، وهنا تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لتُبين أن العالم مهما بلغ من العلم فإن هناك من هو أعلم منه، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته؟ وما قدره أمام علم الغيوب؟! ثم يضرب الله مثلاً لمن لم يغترّ بالقوة والسلطان، العبد الصالح ذو القرنين الذي وظّف مُلكه وسلطانه في نشر الدين، ورفع الظلم عن المظلومين، ورد الطغاة الباغين، وكان كلّمًا جدد الله له نعمة جدد لها شكراً وردّها إلى المنعم عز وجل.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۗ﴾ [الكهف: ٩٥].

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَاِذَا جَاءَ وَعَدْرِيْ جَعَلَهُ دَكَّآءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّيْ حَقًّا ۗ﴾ [الكهف: ٩٨].

فلنقارن بين من اغترّ بجنّيته، وجحد النعمة، وتمادى في الضلال، وبين من يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى.

ثالثاً: سبب نزول القصة:

ذكر ابن إسحاق: "أن قريشاً بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سألهم عن محمد وصفا لهم صفتَهُ وأخبراهم بقوله، فأتهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم؛ فخرّجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت

لَهُمَا أَحْبَابٌ يَهُودٌ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ مِثْلَهُ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، سَلُوهُ عَنْ فَتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجَبٌ؟ وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا مَا كَانَ نَبُوَّهُ؟ وَسَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ؟ فَإِذَا أَحْبَبْتُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ، فَأَقْبَلَ النَّصْرُ بَنِي الْحَارِثِ وَعُثْبَةَ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدِمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَحْبَبْنَا أَحْبَابَ يَهُودٍ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمْرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ فَتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَافًا قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا؛ وَأَخْبِرْنَا عَنْ الرُّوحِ مَا هِيَ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرْتُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا»، وَلَمْ يَسْتَنْنِ فَانصَرَفُوا عَنْهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا يَذْكُرُونَ - خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُجِدُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحَيًّا، وَلَا يَأْتِيهِ جَبْرِيْلٌ حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ بِمَا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُكْثَ الْوَحْيِ وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ: ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيْلٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَاتَبَتُهُ إِيَّاهُ عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَخَبْرَ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْفَتْيَةِ وَالرَّجُلِ الطَّوَافِ".^(١)

رابعاً: معاني المفردات:

- ﴿مَكَّنَّا لَهُ﴾: هَيَّأْنَا لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا جَعَلَهُ مُتَمَكِّنًا قَادِرًا، مَكَّنْتُهُ وَمَكَّنْتُ لَهُ فَتَمَكَّنَ.
- ﴿حَمِيَّةٌ﴾: أَي كَثِيرَةُ السَّوَادِ مِنَ الْحَمَاءِ أَيْ الطِّينِ، وَالْعَيْنُ الْحَمِيَّةُ: مَاءٌ يَجْرِي عَلَى الطِّينِ الْأَسْوَدِ، وَقُرَى (حَامِيَّةٌ): أَي شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ، فَقَدْ جَمَعَتْ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ.
- ﴿خَرَجًا﴾: جَعَلًا، أَي مَالًا مُقَابِلَ قِيَامِهِ بِعَمَلٍ يَحْتَاجُ لِحُجْدٍ، وَمَشَقَّةً، وَمَعُونَةً.

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن ابن عباس ؓ كما في السيرة النبوية لابن هشام: (٣٢١/١)، ورواها الطبري في جامع البيان: (٥٩٣/١٧)، والبيهقي في دلائل النبوة: (٢٦٩/٢)، وأوردها ابن كثير في تفسيره: (١٣٣/٥)، وابن المنذر كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي: (٤٧٩/٩).

- ﴿سَدًّا﴾: السَّدُّ الحَاجِزُ وَالْحَائِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَيُقَالُ بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ.
- ﴿رَدْمًا﴾: السَّدُّ، وَقِيلَ: الرَّدْمُ أَكْبَرُ مِنَ السَّدِّ لِأَنَّ الرَّدْمَ مَا جُعِلَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يُقَالُ: ثَوَّبْتُ مُرَدِّمًا إِذَا كَانَ قَدْ رُفِعَ رُفْعَةً فَوْقَ رُفْعَةٍ.
- ﴿زَبْرَ الحَدِيدِ﴾: جَمْعُ زُبْرَةٍ، وَالزُّبْرَةُ: القِطْعَةُ مِنَ الحَدِيدِ.
- ﴿الصُّدْفَيْنِ﴾: الصَّدْفُ كُلُّ بِنَاءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ، وَالمراد حَافَةُ الجَبَلَيْنِ.
- ﴿قَطْرًا﴾: النُّحَاسُ المُذَابُ، وَقِيلَ: الرَّصَاصُ المُذَابُ.
- ﴿نَقْبًا﴾: النَّقْبُ مَصْدَرٌ نَقَبَ أَي حَفَرَ وَقَطَعَ وَاخْتَرَقَ.
- ﴿دَكًّا﴾: مَدْكُوكًا مُنْبَسِطًا مُسْتَوِيًّا بِالأَرْضِ، وَكُلُّ مَا انْبَسَطَ بَعْدَ ارْتِفَاعٍ فَقَدْ انْدَكَّ.

خامساً: القراءات:

- وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]: قرأ أبو بكر شعبة عن عاصم وعامر وحمزة والكسائي "حامية" أي حارة، والباقون "حمئة" أي كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأً (بالتسكين) إذا نزعت حماتها، وحمئت البئر حمأً (بالتحريك) كثرت حماتها، ويجوز أن تكون "حامية" من الحمأة فحُفِّفَتِ الهمزة وقُلبت ياءً، وقد يُجمع بين القراءتين، فيقال: كانت حارة وذات حمأة. قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، ولكل واحدة منهما وجهٌ صحيحٌ ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مُفسدٍ أحدهما صاحبه، وذلك أنه جائزٌ أن تكون الشمس تغرب في عين حارة ذات حمأة وطين، فيكون القارئ في عين حامية بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارئ في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها، وهي أنها ذات حمأة وطين، وقد زوي بكلا صيغتيها اللتين إنهما من صفتيها أخباراً"، قال الأزهري: "مَنْ قَرَأَ (حَمِئَةً) أَرَادَ: فِي عَيْنِ ذَاتِ حَمَاءَةٍ، قَدْ حَمِئَتْ، فَهِيَ حَمِئَةٌ، وَمَنْ قَرَأَ (حَامِيَةً) أَرَادَ: حَارَةً، وَقَدْ تَكُونُ حَارَةً ذَاتِ حَمَاءَةٍ، فَيَكُونُ فِيهَا المَعْنِيَانِ".^(١)

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٣١٤/٢)، والطبري، جامع البيان: (٩٧/١٨)، وأبو منصور الأزهري، =

○ وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨].

○ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: (جَزَاءُ الْحُسْنَى) مضافاً، وقرأ الباقون (جَزَاءُ الْحُسْنَى) منوناً. قال أبو منصور: "مَنْ قَرَأَ (جَزَاءُ الْحُسْنَى) فالمعنى: فله الحسنى جزاءً، و(جزاء) منصوب لأنه مصدر وُضِعَ موضع الحال، المعنى: فله الحسنى مُجْزِيًا بها جزاءً. وَمَنْ قَرَأَ (جَزَاءُ الْحُسْنَى) أضاف (جزاء) إلى (الحسنى)" (١).

○ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣].

○ قرأ حمزة والكسائي (يُفْقَهُونَ) بضم الياء وكسر القاف، وقرأ الباقون (يَفْقَهُونَ)، بفتح الياء والقاف. قال أبو منصور: "مَنْ قَرَأَ (لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) فمعناه: لا يكادون يُفْقَهُونَ عنك. وَمَنْ قَرَأَ (يُفْقَهُونَ) فمعناه: لا يكادون يُفْهَمونَ غيرهم إذا نطقوا" (٢).

○ وقوله جل وعز: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءُوكُمْ وَمَا جِئْنَاكُمْ بِمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكُمْ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]. قرأ حمزة والكسائي بفتح الراء وألف بعدها، وقرأ الباقون بإسكان الراء من غير ألف (٣)، قال أبو إسحاق النحوي: "مَنْ قَرَأَ (خَرْجًا) فالخَرْج: الفيء، والخَرْج: الضريبة. والخَرْج: الاسم لِمَا يُخْرَجُ من الفرائض في الأموال. والخَرْج: المصدر". وقال الفراء: "الخَرْج: الاسم الأول، والخَرْج كالمصدر (إن خرج رأسك) كأنه الجعل. كأنه خاص،

=معاني القراءات: (١٢٢/٢)، ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت:

٣٢٤هـ)، تحقيق: شوقي ضيف، ط. دار المعارف مصر ط. ٢ (١٤٠٠هـ): (ص ٣٩٨).

(١) أبو منصور الأزهرى، معاني القراءات: (١٢٢/٢). ابن مجاهد، السبعة في القراءات: (ص ٣٩٩).

(٢) أبو منصور الأزهرى، معاني القراءات: (١٢٤/٢). ابن مجاهد، السبعة في القراءات: (ص ٤٠٠).

(٣) ابن الجوزي، النشر (٣١٥/٢).

والخراج العام".^(١)

سادساً: الإعراب:

○ قوله: ﴿حَامِيَةً﴾: قرأ ابن عامر وأبو بكر والأخوان بالألف وياءٍ بعد الميم. والباقون دون ألفٍ وهمزة بعد الميم ﴿حَمِيَّة﴾. فأما القراءة الأولى فإنها اسمٌ فاعلٍ مِنْ حَمِي يَحْمِي، والمعنى: في عينٍ حارّة. ولا تنافضَ بين القراءتين؛ لأنَّ العينَ جامعةٌ بين الوصفين: الحرارة وفورانها بالطين.

○ ﴿كَذَلِكَ﴾: الكافُ: إمَّا مرفوعةُ المحلِّ، أي: الأمر كذلك، أو منصوبته، أي: فَعَلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ.

○ قوله: ﴿يُفْقَهُونَ﴾: قرأ الأخوان بضمِّ الياء وكسرِ القافِ مِنْ أفقَه غيره، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: لا يُفْقَهُونَ غيرهم قولاً. والباقون بفتحها، أي: لا يفهمون كلامَ غيرهم، وهو بمعنى الأول. وقيل: ليس بمتلازم؛ إذ قد يفقه الإنسان قولَ غيره ولا يفقه غيره قوله. وبالعكس.

○ قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: الظاهرُ أن الجعلَ هنا بمعنى التصيير فتكون "دكّاء" مفعولاً ثانياً.^(٢)

سابعاً: التفسير الإجمالي:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤]:

ذو القرنين كان عبداً صالحاً، وقائداً حكيماً محنكاً، ومليكاً عادلاً، جمع الله له بين الصلاح، والمُلك، والعلم، والهمة العالية في إقامة العدل ونشر الخير، والتيسير على الخلق، أخذ بالأسباب بل طوّرها حتى مكّن الله له، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبِيلاً ﴿٨٥﴾﴾: مكّن الله له في الأرض، ووهبه أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة، وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتم وجه، بل جعلها ركيمةً ومُنطلقاً إلى ريادة الكون بالعلم

(١) أبو منصور الأزهري، معاني القراءات: (١٢٤/٢).

(٢) يراجع: الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٤١/٧: ٥٥٠).

والإيمان، والعدل والإحسان.

مكّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد مُلكه وبسطِ سلطانه وكبتِ أعدائه. قال ابن عاشور: "وَجُعِلَ حَبْرُ ذِي الْقُرْنَيْنِ تِلَاوَةً وَذِكْرًا لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمُهِمَّ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا فِيهِ تَذْكِيرٌ وَمَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ تِلَاوَةً، حَسَبَ شَأْنِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُتْلَى لِأَجْلِ الذِّكْرِ وَلَا يُسَاقُ مَسَاقَ الْقَصَصِ".^(١) والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصّل بها إلى المطلوب. قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ علّمًا يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العِلْمُ بالطُّرُقِ والمسالك، ومعرفة بمنازل الأرض وأعلامها^(٢). وكلّ ذلك مرادًا، ومندرجٌ في معنى الأسباب التي أمده الله بها ووفقه إليها. قال الألويسي: "وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَرَادَهُ مِنْ مَهْمَاتِ مُلْكِهِ وَمَقَاصِدِهِ الْمُعَلَّقَةِ بِسُلْطَانِهِ سَبَبًا؛ أَي طَرِيقًا يُوَصِّلُهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ كُلُّ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ قُدْرَةٍ أَوْ آلَةٍ".^(٣)

﴿فَأَنْبَغَ سَبَبًا﴾ أي: سلكَ وسار طريقًا يوصّله إلى المقصود، وأخذ بكلّ ما أمكنه تحصيله من علوم، وتتبع السُّبُلِ والوسائل التي تُعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته في الدعوة والإصلاح، ونشر العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات، بل كان تمكينه من مُنطلق الأخذ بالأسباب، وفقّ نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها. هذا الرجل الصالح الذي مكّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثوب العزّ وتاج الوقار والهيبه. أما اسمه: فقد اختلفَ فيه على أقوال كثيرة، فقليل هو (الإسكندر المقدوني) ذلك الملك اليوناني (٣٠٠ ق.م)، وهناك من زعم أنه (قورش) الملك الفارسي (٥٠٠ ق.م)، أو (دارا) الفارسي، أو

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٢٥/١٥).

(٢) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: (٢٣٠/٩)، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط. دار الكتاب العربي - بيروت، ط. أولى (١٤٢٢هـ): (١٨٥/٥).

(٣) الألويسي، روح المعاني: (٣٦٠/٨).

ملك من ملوك اليمن، قيل هو (الصعب بن ذي مرثد بن الحارث)...، ينتهي نسبه إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود، ومنه إلى سام بن نوح عليه السلام (١٥٠٠ ق.م). أو ابن فرعون مصر. يرى (أبو الكلام آزاد) في كتابه "ويسألونك عن ذي القرنين" أنه (قورش) إمبراطور فارس الذي غزا بلاد اليونان وكان عادلاً، بينما يرى البعض أنه (الإسكندر المقدوني) الذي غزا بلاد فارس وكان عادلاً، قال المسعودي: "(الإسكندر وذو القرنين): وقد تنازع الناس فيه: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وتنازعا أيضاً في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه سميّ بذو القرنين لبلوغه أطراف الأرض وأن الملك الموكل بجبل (قاف) سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة".^(١)

وقال القزويني: "وذكر بعض النساب أن (أفريدون) هو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، لأنه ملك المشرق والمغرب، وأمر بعبادة الله تعالى، وكان ذا عدل وإحسان".^(٢)

والمُتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن، فضلاً عن كون ذي القرنين مؤمناً موحدًا.

وقيل كان نبياً من الأنبياء، روى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: "ذو القرنين نبي".^(٣)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ذو القرنين نبي".^(٤)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَدْرِي لَعِينًا كَانَ أُمَّ لَا، وَمَا أَدْرِي دُو

(١) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦ هـ) مروج الذهب، ط. دار الهجرة (١٤٠٩ هـ)، باب الحكماء على جدث الإسكندر: (١/١٢٧)، ويُراجع لأبي الكلام آزاد "ويسألونك عن ذي القرنين"، (ص ١٠٠)، ط. دار الشعب القاهرة، وجبل (قاف) هذا من أخبار الإسرائيليات التي لا دليل عليها ولا مُستند من كتاب، أو سُنّة، أو أثر صحيح، والقول بأنه ملكٌ من الملائكة قول بعيد غريب، بل هو من البشر.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد: (١/٩٢).

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف: (٧/٤٦٨).

(٤) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٩/٦٣٢).

الْقَرْنَيْنِ نَبِيًّا كَانَ أَمَّ لَا، وَمَا أَذْرِي الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لِأَهْلِهَا أُمَّ لَا»^(١).

فلا نملك أن نجزم بنبوة ذي القرنين. والله أعلم بحاله.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملكٌ مؤمن على علمٍ وصلاحٍ، مكَّن الله له؛ فسعى جاهداً ومتجديداً لنشر الحق والعدل، والذي يعيننا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة، والإصلاح، والقيادة، والإدارة، والسياسة، ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

قال البغوي: "والأكثر على أنه كان ملكاً عادلاً صالحاً"^(٢).

وقال ابن القيم: "الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قصَّ الله تعالى نبأه في القرآن بل بينهما قرونٌ كثيرةٌ وبينهما في الدين أعظم تباين؛ فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكان يغزو عبادة الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبني السدَّ بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمئة سنة، والنصارى تُؤرخ له، وكان (أرسطاطاليس) وزيره وكان مشركاً يعبد الأصنام، وهو الذي غزا (دارا) ملك الفرس في عُقر داره، فثَلَّ عرشه ومزَّق مُلكه وفرَّق جمعه، ثم دخل إلى الصين، والهند، وبلاد الترك؛ فقتل وسبى، وكان لليونانيين في دولته عزٌّ وسطوة بسبب وزيره (أرسطو)، فإنه كان مُشيريه، ووزيره، ومُدبِّر مملكته، وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بـ (البطالسة)، وأحدهم (بطليموس)، كما إن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم. ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم فصاروا رعيَّةً لهم، وانقرض ملكهم فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة وهم على شركهم من عبادة الأصنام، وهو

(١) رواه الحاكم في المستدرک: (ح ٤٠٥) - (١٤/٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَمَمْ يُجْرَاهُ، وَقَالَ الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم". ورواه ابن عساکر في تاريخ دمشق: (٢٨٦/٥٦)، تاريخ دمشق، لابن عساکر.

(٢) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١٠ (١٤٢٠هـ). (٢/٣١٢).

دينهم الظاهر ودين آبائهم"^(١).

ويُقرُّ ابن عاشور أنه ليس بالإسكندر المقدوني، قال: "لأنه لم يكن ملكًا صالحًا، بل كان وثنيًا، فلم يكن أهلاً لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا فلا يُعرف في تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين"^(٢).

وذكر أبو السعود أقوالاً عديدة في سرِّ تسميته بذي القرنين، أكتفي بذكر أقربها للصواب، قال: "واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل لأنه ملك الروم وفارس، وقيل الروم والترك."^(٣).

* * *

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: (٢/٢٦٤).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/١٢٣).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٥/٢٤٠).

الرحلة الأولى : بلوغه مغرب الشمس

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَع سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الكهف: ٨٦-٨٩].

ما حكى القرآن كانت له ثلاث رحلاتٍ رئيسية، والظاهر أنه انطلق من المشرق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً بما هيأه الله له من أسبابٍ، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل. انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقُرئ ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ يعني أنها تغرب في عين ماء حارة^(١). ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾: لَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُمْ، وَخَيَّرَ فِي شَأْنِهِمْ: كَانَ حَكْمًا مُقْسِطًا، إِذْ حَكَمَ عَلَىٰ مَنْ بَقِيَ عَلَى الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، فقال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ذُكِرَ جَزَاءُ اللَّهِ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاقٌ عليه، بل قولاً ذا يُسْرٍ وسهولة، قولاً ميسوراً. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحارُّ العقل في أمره، لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبر به^(٢).

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٣١٤/٢).

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٥٠٢/٤) بتصرف.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحًا فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلاً عن حسن معاملته في الدنيا، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ: مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: قال الطبري: "وسنعلّمه نحن في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه ما يقربه إلى الله ويلين له من القول. وكان مجاهد يقول نحوًا مما قلنا في ذلك".^(١) ، فالمؤمن الصالح أهلٌ لكلِّ فضلٍ وسماحةٍ، وحرّيٌّ على أن "يجد الكرامة والودَّ والثربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدِّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرَّادع من الحاكم المُقسِطِ في الدنيا، ثم يُرَدُّ إلى ربه يوم القيامة؛ ليلقى العقوبة الأشدَّ بما اقترفت يده في حياته الأولى"^(٢) ، "... وحين يجدُّ المحسن في الجماعة جزاءً إحسانه جزاءً حسنًا، ومكانًا كريمًا، وعاونًا وتيسيرًا؛ ويجد المعتدي جزاءً إفساده عقوبةً وإهانةً وجفوةً وتضييقًا.. عندئذٍ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أمّا حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المُعتدون المُفسدون مُقَرَّبُونَ إلى الحاكم مقدّمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبذون أو مُحاربون؛ فعندئذٍ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

* * *

(١) جامع البيان، للطبري: (٩٩/١٨).

(٢) د. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي: (ص ٣٠٥) بتصرف.

الرحلة الثانية: بلوغه مطلع الشمس.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠-٩٢].

بعد رحلة ناجحة بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقًا إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يستترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، قيل كانوا حُفَاءَ عُرَاةٍ لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ وقيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، فيعيشون في أسراب تحت الأرض، أو لما هم عليه من بدوّة، وخلوّ من جميع مظاهر التمدّن والرقّيّ. عن قتادة في الآية قال: "ذكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لهم فيها شيء، فهم إذا طلعت دخلوا في أسرابٍ حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم".^(١)

ولا بدّ أنه رحمه الله - وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح - قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾: لا يعزّب ذو القرنين وجيوشه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائية، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم، وتحت قهره وإرادته، مهما شرّق أو غرّب، وكلّ هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافية، وقد أحاط ربُّ العالمين خُبْرًا بما لدى ذي القرنين من مواهب، وملكات، وطاقات، وإمكانات تؤهله لارتداد الأقطار قائدًا مُظفّرًا، وحاكمًا عادلاً.

فكما مكّن الله تعالى له، وهباً له الأسباب، وأعانته على الأخذ بها، فهو تعالى مطلعٌ عليه محيطٌ بما لديه، خبيرٌ ببواطن الأمور، ولو شاء الله تعالى لأخبر عن قصته على وجه التفصيل، ولكنه تعالى

(١) ابن أبي حاتم تفسير القرآن: (٢٣٥/٩).

ذكر شيئاً منها للعظة والاعتبار، فلا يتوهمن أحدٌ أن إيجاز القرآن واقتضابه مما يقدح فيه، بل هو من وجوه بلاغته ومراعاته لمقتضى المقام، فذكر من القصة ما فيه تذكرةً وأشار لذلك في البداية ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. قال البقاعي: "وقد أحطنا بما لنا من العظمة، (بما لديه) أي: كَلَّه من الأمور التي هي أغرب المستغرب، (خبراً) أي: من جهة بواطن أموره فضلاً عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك ولا عن أمر أصحاب الكهف، ولا يُظن أن تفصيل أمر الوحي خفيّ عنا، لأننا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدها وغوائبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكننا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف وفصلنا أمر الروح تفصيلاً يعجز عن حفظه الأبناء" (١).

"وبما لديه: ما عنده من عظمة الملك من جندٍ وقوةٍ وثروةٍ. والخبر: العلم والإحاطة بالخبر، كناية عن كون المعلوم عظيمًا بحيث لا يحيط به علمًا إلا علام الغيوب" (٢).

قال أبو السعود: "وقد أحطنا بما لديه من الأسباب والعدد والعدد خبراً يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير" (٣). فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته؛ كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب الكفرة الظلمة، وسالم أهل الحق، وكرمهم، وقربهم، وبشرهم بما عند الله من ثواب عظيم. ﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا﴾ قال ابن عطية: "وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطُّرُق المؤدية إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفى، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمةً ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٥٠٣/٤).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٣٠/١٦).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٢٤٤/٥).

عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره".^(١)

فلا يزال يرتقي سلّم النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه الجملة ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِيًّا﴾: ما يدلُّ على حرص هذا القائد الرباني الحاكم الرّاشد على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها، وتطويرها، وتطويعها؛ لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

الرحلة الثالثة: بلوغه بين السدين

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۗ﴾ (٩٣) ﴿قَالُوا يَا زُنَيْرُ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۗ﴾ (٩٤) ﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۗ﴾ (٩٥) ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۗ﴾ (٩٦) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ۗ﴾ (٩٧) ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي إِذًا جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً ۗ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۗ﴾ (٩٨) [الكهف: ٩٣-٩٨].

وجد ذو القرنين قوماً لا يكادون يفقهون قولَ قائلٍ سوى كلامهم، ولا يكادون يفقهون أحداً قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم، وفهمهم، وتفهمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب^(٢)، إذ بعد أن ساعد جهة مطلع الشمس تلك الشعوب البدائية الفقيرة، توجه بهذا الخير إلى موضع عبّر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة متاخمةً لجبلين شاهقين، حيث يتسلل من بينهما

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥٤٠/٣).

(٢) يراجع: الطبري، جامع البيان: (١٠٣/١٨)، قرأ حمزة والكسائي وحلّف بضمّ الياء وكسر القاف: (يفقهون) من أفقمت فلاناً كذا أفقته إفقاهاً: إذا فهمته ذلك، والباقون بفتح القاف والياء، من فقه الرجل يفقه فقهاً، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: (٣١٥/٢).

المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون خيراتها، ويعيثون فيها فسادًا، فالتمس أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال و ثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته، وشدة حاجتهم لهذا البناء.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا جَاعُونَ ﴾

﴿ وَمَأْجُوجٌ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف: ٩٣-٩٤].

عرضوا على ذي القرنين أن يُعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدِّ، وأجره بنائه؛ ليحميهم من أولئك المفسدين على سبيل حفزه وترغيبه، قال الألوسي: "مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَي: في أرضنا بالقتل والتخريب، وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وقيل بأخذ الأقوات وأكلها. روي أنهم كانوا يخرجون أيَّام الرِّبيع فلا يتركون شيئًا أخضر إلا أكلوه ولا يابسًا إلا احتملوه" (١).

فقال لهم: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ أجابهم هذا القائد الرَّاهد والإمام الرَّاشد إلى مطلبهم دون مقابل، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤدِّيها في رُبوع الكون، لا يطمخ في أعراض الدُّنيا الزائلة ولا ينجح إلى همٍ قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعةً، وانقيادًا، وعزمًا، واجتهادًا في غرس بذور الخير أينما حلَّ. "قال ذو القرنين: الذي مكنتني في عمل ما سألتموني من السدِّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطَّأه لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفعله وصنّاعٍ يُحسنون العمل والبناء." (٢).

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والرَّدْمُ: هو الحاجز، ولعله سمَّى السدَّ الذي وعد بإنجازه ردمًا تواضعًا: ﴿ أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا ﴾

(١) الألوسي، روح المعاني: (٣٦٨/٨).

(٢) الطبري، جامع البيان: (١١٣/١٨) بتصرف.

حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ [الكهف: ٩٦]، جيئوني بقضبان الحديد، فجعلها بين حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصُّدفين من الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، صبَّ عليه قِطْرًا، والقِطْرُ: النحاس المُذاب. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلفه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة الناجحة.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الرِّدم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلَّوهم وملاستهم، ولم يستطيعوا أن يُنقَّبوه من أسفله؛ لسُمكِهِ وصلابَتِهِ.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ قال: بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: هذا البُنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهياً لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك الهَمَجِ المفسدين، ويحمي هؤلاء المنكوبين المغلوبين، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: مساوياً للأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائناً لا محالة، فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الرِّدم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبِئْسَ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ افْتَرَبَ، فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ...» الحديث^(١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيُخْفِرُونَ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج: (٣٦٨/٢)، (ح ٣٣٤٦)، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: (٢٢٠٧/٤)، (ح ٢) (ح ٢٨٨٠).

السَّدِّ كُلِّ يَوْمٍ حَتَّىٰ إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ مَدَّتُّهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّىٰ إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسْتَنْبِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشَفُونَ الْمِيَاءَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي أَقْفَانِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شُكْرًا مِنْ حُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»^(١).

ثامناً: اللطائف البلاغية:

١. حسن المطلع: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، فالبداية بالسؤال من بلاغة الاستهلال وروائه، بما يسترعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويشوق النفوس، وفي الجواب شفاءً ووفاءً بحاجة السائل، "والتعبير بصيغة الاستقبال (ويسألونك) لاستحضار الصورة الماضية؛ لِمَا أَنْ فِي سَوَالِهِمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ مَعَ مَشَاهِدَتِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاهَدُوا نَوْعَ غَرَابَةٍ، وَقِيلَ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى السُّؤَالِ إِلَى وُرُودِ الْجَوَابِ"^(٢).

٢. ﴿قُلْ سَأَلْتُوْا عَلَیْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: قصة ذي القرنين جديرة بالمذاكرة والمدارسة لما فيها من عبرٍ، وعظمتٍ، وحكمٍ، ومعانٍ، وآدابٍ، وشمائلٍ، وفوائدٍ للقادة والمصلحين والساسة والمربين والرعايا، فكان جديرًا بأن يُذكر في أشرف الكتب، ويتردد على مسامع خير الأمم، فهو أسوةٌ للحكام قدوة للقادة إمامٌ للمصلحين.

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجه في السنن كتاب الفتن، باب: فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج: (١٣٦٤/٢)، (ح ٤٠٨٠)، ورواه الإمام أحمد في مسنده: (٥١٠/٢)، ورواه الطبري في تفسيره: (١٠٩/١٨)، وقوله: (فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا) بِفَتْحِ النَّوْنِ وَالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ: دُوْدٌ يَكُونُ فِي أُنُوفِ الْإِبِلِ وَالْعَنَمِ جَمْعُ نَعْفَةٍ.

(٢) (الألوسي، روح المعاني: (٢٤/١٦).

٣. بداية القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ﴾ من حسن المطلع وروعة الاستهلال؛ إذ قبل الحديث عن ملكٍ من أعظم ملوك الأرض، يأتي الحديث عن ملكِ الملوك، فهو من وهبٍ لذي القرنين هذا الملك العظيم ومكن له، فالتمكين من الله تعالى، والتعبير بنون العظمة دليل على عظمة الله تعالى، وعظمة ما وهبه لذي القرنين من ملك وسلطانٍ وتمكينٍ في الأرض، قال البقاعي: "ولما كانت قصته من أدلّ دليل على عظمة الله، جلاها في ذلك المظهر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أي بما لنا من العظمة... ﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾ بعظمتنا".^(١)

٤. بلاغة الرّبط بين الأحداث، وجمال الفواصل بينها ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ﴾، تكررت مع كلِّ رحلة، وانتهاء الفاصلة بالألف المدّية من جمال القرآن الكريم.

٥. دِقَّةُ القرآن الكريم في التعبير بالفاء (فأتبع سببًا)، وبـ ثم في (ثم أتبع سببًا) فالفاء تدل على الجِدِّ والمبادرة إلى الأخذ بالمزيد من الأسباب، وثم تدلُّ على التراخي الزمني، بين هذه الرحلات.

٦. والتعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يشيرُ إلى همّةٍ عالية وعزيمةٍ قويةٍ تأخذ الأمور بجِدِّ فلا توانٍ ولا تقاعُسٍ ولا تكاسلٍ ولا تراخٍ عن الأخذ بأسباب التقدّم والنهوض، أما التعبير بثُمَّ مرتين (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) فيشير إلى دأبه واستمراره - مع ما حصّله واقتفاه من أسباب النهوض والتقدّم - على طلب المزيد.

٧. قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ تنويه بمنظر الشمس عند غروبها، وتلك لفتةٌ جماليّةٌ إلى روعة وبهاء هذا المنظر لا سيّما حين يراه من يقف على الشاطئ حيث تغوص الشمس في الماء وهي تميل إلى الحمرة أو الصفرة، فيعلّمنا القرآن أن نتمتع ناظرين بهذا الجمال الكوني.

(١) البقاعي، نظم الدرر (٤/٥٠١).

٨. ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ

جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾: قدّم العذاب الدنيوي على الأخروي؛ لأن الكافر يرعوي وينزجر بالعقاب الدنيوي، بينما قدّم ما عند الله على ما عنده؛ لأن نفوس المؤمنين تطمح لما لها عند رب العالمين، وتستشرف هذا الثواب المدّخر، وتتشوّف لنصيبتها في الآخرة.

٩. جاء التعبير بسوف: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ للدلالة على إمهاله لهم حتى تُقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب، كما أن (سوف) أبلغ من (السين)، وفي ذلك إمعانٌ في تهديدهم إن لم يتوبوا. قال أبو حيان: "وأتى بحرف التنفيس في ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأنيبه عنه، فهو لا يُعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم فإن رجعوا وإلا فالقتل".^(١)

١٠. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾: تقديم (فله) للاعتناء والتخصيص، وتأخير (الحسنَى) للتشويق مع مراعاة الفاصلة، مع فصاحة التركيب.

١١. المقابلة بين الظلم والإيمان: والأصل المقابلة بين الإيمان والكفر؛ لأن الكافر لا يُعاقب دُنويًا على كفره فحسب، بل يُعاقب على ظلمه واعتدائه.

١٢. "التشبيه البليغ ﴿جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً".^(٢)

١٣. بلاغة الإيجاز في تعدّد القراءات مع ثراء المعنى ووفائه: يتجلى ذلك في قراءة: (عين حمئة)، (عين حامية)، (يُفَقِّهون)، (ويُفَقِّهون).

١٤. ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: دِقَّةُ القرآن الكريم في (فما استطاعوا)، (وما استطاعوا): قال البقاعي: "وزيادة التاء هنا تدل على أن العلوّ عليه أصعب

(١) أبو حيان، البحر المحيط: (١٥٦/٦).

(٢) الصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، ط. دار الصابوني القاهرة، ط. ١٠ (١٤١٧هـ): (١٩١/٢).

من نقبه؛ لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل".^(١) فلما كان اعتلاء السّد أيسر من نقبه كان الفعل (فما استطاعوا أن يظهره)، (وما استطاعوا له نقبًا)، فناسب كل فعل متعلّقه، لأن نقبه فيه مشقة وكلفة عن صعوده، فكانت زيادة التاء مناسبة.

١٥ . رعاية الفاصلة كما في ختام الآيات: ذكراً، سترًا، خبرًا.

تاسعاً: دروس وعبر:

١. من عوامل النهوض وأسباب الرقي: الأخذ بالأسباب المُعينَة على ذلك من الإيمان الخالص والعلم النافع والعمل الصالح، مع الإخلاص، والتجرد، والتوكل، واليقين، وعلو الهمة.
٢. العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ من صفات ذي القرنين، لاحظ كثرة تزيده لكلمة ربي، حتى لا تكاد تمر جملة إلا ويذكرها: ﴿ثُمَّ يُرِدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي حَيْرٌ﴾. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً﴾، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، وفي هذا تعظيم لله ومحبة له، وترسيخ للعقيدة، وشكر وامتنان.
٣. النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون وظواهره الخلابه، كمنظر الشمس وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذ بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد يأخذ بالأبصار.
٤. لا تزال هناك أمم متخلفة عن ركب الحضارات، وقبائل تعيش في أصقاع الأرض، في جزر نائية أو أدغال، أو قمم جبال منعزلة تماما عن البشرية وتلك مسؤولية الهيئات الدولية والأمم المتحضرة أن تمد يد العون.
٥. قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهد جهيد، وصبر جميل، وإعداد جيّد وتخطيط محكم، والأمم إن لم تنهض وتتقدم، فإنها تتقاعس وتتخلف.
٦. الحضارة الراشدة تبعث في النفس روح النهوض والأمل، وتنمي ملكة الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض؛ ليعم الخير الجميع.

(١) البقاعي، نظم الدرر (٤/٥٠٥).

٧. ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.
٨. حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد، لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له، ويُشيدُ بَعْدَهُ، ويحتمي بسلطانه.
٩. في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائدِ الراشدِ، والحاكمِ العادلِ، والفتاحِ المؤيَّدِ، الذي يمكِّنه الله في الأرض، ويُيسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يُسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كلِّ مكانٍ يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدراً عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرّها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهدها الأولى.
١٠. ضرورة إعداد الجيوش المسلمة وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدّة، وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوّين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بما شرع الله من جهاد.
١١. الحزم في الأمور من صفات القائد والحاكم تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ نُرْدُّهُ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].
١٢. العدل في العقوبة، فلا يتجاوز الحاكم حدود الشرع فيها، والإحسان في المكافأة والإثابة.
١٣. الأدب مع الله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿لَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَسَنِ جَزَاءً، لَمْ يُنَاسِبْ أَنْ يَذَكَرَ جَزَاءَهُ بِالْفِعْلِ، بَلْ اقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ أَدْبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِعْلًا وَقَوْلًا.﴾
١٤. في تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يُعذبهم، وبين أن يتخذ فيهم حُسْنًا، ما يدلُّ على ما كانوا عليه من ظلمٍ بيِّنٍ، وصدِّ عن الحق، مما يستوجبُ معاقبتهم، وفي هذا ما يُرشدُ إلى

وجوب مجابهة الظالمين، وكفهم عن ظلمهم.

١٥. التيسير في القول والفعل من مقاصد الشريعة ومظاهرها، وهو واجب شرعي على الحكام والمسؤولين، فينبغي مراعاته سيما لمن هو أهله من أهل الصلاح والاستقامة.

١٦. الحاكم المسلم بمعاونة جنده وشعبه مسؤول عن حماية البلاد وصد أي عدوان ومجابهة المخاطر والتحديات، قال ابن العربي: "وَعَلَى الْمَلِكِ فَرَضٌ أَنْ يَقُومَ بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ، وَسَدِّ فُرْجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغَرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي تَقِيءُ عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمُ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَائِنُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتْهَا الْحُقُوقُ، وَأَنْفَقَتْهَا الْمُؤْنُ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرٌ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ: الْأَوَّلُ: أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ. الثَّانِي: أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ. الثَّلَاثُ: أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنَيْتَ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرَ الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْرًا، فَأَطْلَعْتَ الْحَوَادِثُ أَمْرًا بَدَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُعْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالَهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصَرَّفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ. فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْتُ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، أَيِ احْدُمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُعْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ، فَكَانَ التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَى ^(١).

١٧. ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ في هذا نموذج يُحتذى لخطاب الحكام والساسة، وترسيخ لمعاني الربوبية، وتذكير بآثارها، وفيه ما يدل

على محبة، وتعظيم، وعبودية، وتسليم لله تعالى، فهو وإن قاد العالم لكنّه ينقاد لخالقه وبارئه.

١٨. خطاب الحاكم وكلماته لا بد وأن يُعنى فيها بالترغيب والترهيب، ويذكر دائمًا بأمور الآخرة

لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس وحفز الهمم لثواب الآخرة.

١٩. من صفات الحاكم والقائد الرحمة، فالرحمة من كريم السمائل، ومن الواجبات والمقاصد

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٢٤٣/٣).

الشرعية مهمة الحاكم تحقيقها ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

٢٠. الحاكم المسلم لا بد وأن يكون مؤهلاً بمعارفه الواسعة، وثقافته المتشعبة، وفقهه بأمور الدين والحياة.

٢١. أهمية تعلم اللغات؛ للتفاهم، والتواصل، والتعاون مع الشعوب، قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: "علمًا، مِنْ ذَلِكَ تعليم الألسنة، كَانَ لَا يَعْرِفُ قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِمْ"^(١).

٢٢. الحاكم العادل يعطي الرعيّة أكثر مما تطمح إليه، حيث بنى لهم سدًا منيعًا دون مقابل ماديّ.

٢٣. الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للأسفار البعيدة بما يناسبها، والهمة العالية والعزيمة القوية لبلوغ الأهداف.

٢٤. التأكيد على أهمية طلب العلم والتزوّد بالمعرفة، والسؤال عما يجمله الإنسان، أو السؤال للثبّت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.

٢٥. حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.

٢٦. من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله، وسلّمٌ لأولياء الله، يُدني أهل الطاعة ويُباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكّر دائمًا بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كلّ مكروهٍ.

٢٧. في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتّخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقتهم ومنع شرّهم وتقويم سلوكهم، قال القرطبي: "فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّخَاذِ السُّجُونِ، وَحَبْسِ أَهْلِ الْفَسَادِ فِيهَا، وَمَنْعِهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ لِمَا يُرِيدُونَهُ، وَلَا يُتْرَكُونَ وَمَا

(١) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: (٩/٢٣٠).

هُم عَلَيْهِ، بَلْ يُوجَعُونَ ضَرْبًا وَيُجَبَّسُونَ أَوْ يُكَلَّفُونَ وَيُطَلَّفُونَ".^(١)

٢٨. ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج دون الحاجة لإراقة الدماء.

٢٩. ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: "فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليتها، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لَمَّا حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۚ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم تزيدهم أشرا وبطرا"^(٢).

٣٠. سرعة تحقيق العدالة، وإنجاز الأعمال التي تجلب المصالح أو تدفع المضار للأمم والشعوب، فالعدالة البطيئة ظلم، والتواني في إنجاز المشاريع الكبرى الضرورية مفسدة عظيمة.

٣١. السياحة في الأرض والتجوال فيها لا بد أن تكون هادفةً بناءً، لا لمجرد المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة والخير. والسياحة تؤدي إلى تلاقح الأفكار وتبادل الخبرات، فضلاً عن تقارب الأمم والشعوب ولقاء الحضارات.

٣٢. السعي إلى غوث المهوف ونصرة المظلوم دون ترددٍ أو تقاعس.

٣٣. أهمية الصناعات الثقيلة وأثرها في حالة السلم والحرب.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١ / ٥٩).

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٤٨٦).

٣٤. العلم والمعرفة والخبرات مِلْكٌ للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرها.
٣٥. ربط الأعمال كلّها بمشيئة الله سبحانه.
٣٦. التعاون والعمل الجماعي يُساعد في إنجاز المهمّات الكبرى.
٣٧. يُعدُّ القرآن الكريم منهجًا للحياة، لذلك ضرب لنا القرآن أروع الأمثلة بذكره لقصص الأنبياء والصالحين.
٣٨. ما من جانب من جوانب التأسّي إلا وتجد في القصص القرآني مثالاً له، التأسّي في مكارم الأخلاق، وفي القيم والآداب، التأسّي في القيادة الراشدة، والإمامة العادلة التأسّي في الحكم والقضاء، التأسّي في الدعوة والإصلاح، التأسّي في البناء والتشييد، التأسّي في الأخذ بالأسباب للنهوض والتحصُّر.
٣٩. أهمية التذكير بالقصص القرآني ومدارسته فهو من كنوز القرآن الكريم.
٤٠. ضرورة تدريس هذه القصة خصوصاً لمن يتأهل للقيادة؛ ففيها العبر والفوائد.
٤١. أهمية وفضل الحاكم المسلم والقائد المسلم، فكلاهما رحمةٌ بالعباد وخيرٌ وبركةٌ للبلاد.
٤٢. الرحلات الثلاث دليل على أن أقصى المغرب والمشرق كان مأهولاً بالسكان منذ آلاف السنين، ولك أن تُقارن بين هذه الرحلات الدعوية الإصلاحية، وبين الكُشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نهجٍ لثروات الشعوب، وسفكٍ لدمائهم واستئصالٍ، واستعبادٍ، واحتلالٍ؛ وبين هذه الرحلات المباركة التي حملت مشاعل النور وقوافل الخير للإنسانية.
٤٣. أثر المناخ والتضاريس في اختلاف طبائع الأمم، وعاداتها، وتنوع أنشطتها.
٤٤. دقة القرآن الكريم في التعبير بـ (وَجَدَهَا) لأن ذلك بحسب الرّائي، وليس كما يتوهم البعض أن الشمس تغرب في ماءٍ وطين!
٤٥. استخدام ذي القرنين الهندسة العسكرية، والهندسة الكيميائية، بإضافة النحاس المُذاب إلى خام الحديد مع تسخينه فيُعطي صلابة ومتانة.

المقطع الثالث

خاتمة السورة

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْتَهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنخُدُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦ إِن الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠ ﴾ [الكهف: ٩٩-١١٠].

أولاً: المناسبة:

جاءت خاتمة السورة الكريمة مُتَّسِقَةً مع سياقها ومحورها؛ حيث بيَّنت جزاء المخدوعين المفتونين الذين اغتروا بزُخْرِفِ القولِ وانقادوا للأهواءِ فغرقوا في خِضَمِّ الفتن، وتاهوا في شعابها السحيقة، وفي المقابل تذكر خاتمة السورة عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجَّاهم من الفتن، فكانت لهم جنات الفردوس نزلاً، ثم تختتم السورة بما بدأت من حديثٍ عن كلمات الله التي لا يُحْصِيها عدُّ، ثم العودُ إلى التذكير بطريق العصمة والنجاة والفوز والرضوان، وهو طريق سهلٍ واضحٍ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠ ﴾.

ثانياً: معاني المفردات:

- ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: أي يضطربون اضطراب البحر، يختلط إنسهم وجنهم من شدة الهول.
- ﴿نُزُلًا﴾: النُّزْلُ مَا يُقَامُ لِلضَّيْفِ. والتعبير هنا فيه تَهَكُّمٌ بِهِم.
- ﴿غِطَاءٍ﴾: الْغِطَاءُ مَعْرُوفٌ وَجَمْعُهُ أَغْطِيَةٌ، وَهُوَ مِنْ غَطَّى إِذَا سَتَرَ.
- ﴿حَبِطَتْ﴾: أصل الحبط من الحَبِطِ، وهو أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أَكْلًا حَتَّى يَنْتَفِخَ بطنها، فكذلك العمل وإن تعاضم فلا قيمة له ولا وزن.
- ﴿الْفِرْدَوْسِ﴾: الجنة من الكرم خاصة، وقيل: بل ما كان غالبها كرمًا. وقيل: كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس، والفردوس فيما سمعت من العرب: الشجر الملتف والأغلب عليه من العنب. وفي دمشق باب الفراديس يخرج منه إلى البساتين.
- ﴿حَوْلًا﴾: الحَوْلُ التَّحْوِيلُ، يُقَالُ: حَالَ مِنْ مَكَانِهِ حَوْلًا، كَقَوْلِكَ عَادِنِي حُبُّهَا عِوْدًا، يعني: لا مزيد عليه، والحول بكسر الحاء، وفتح الواو، مصدرٌ بمعنى التحوّل، يُقَالُ: حَالَ عَنْ مَكَانِهِ حَوْلًا، فهو مصدرٌ كالعوج والصغر.
- ﴿مِدَادًا﴾: اسم ما تمد به الدواة من الحبر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السِّمَادُ مِدَادُ الْأَرْضِ.

ثالثاً: الإعراب:

- قوله: ﴿يَمُوجُ﴾: مفعولٌ ثانٍ ل (تَرَكْنَا) والضمير في (بَعْضِهِمْ) يعودُ على (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) أو على سائر الخلق.
- قوله: ﴿يَوْمئذٍ﴾: التَّنْوِينُ عِوَضٌ مِنْ جَمَلَةٍ مَحذُوفَةٍ. تقدِيرُهَا: يَوْمَ إِذْ جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي، أو إِذْ حَجَرَ السَّنَدُ بَيْنَهُمْ.
- قوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ﴾: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَجْرُورًا بَدَلًا مِنْ (لِلْكَافِرِينَ) أو بَيَانًا أو نَعْتًا، وَأَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى الذَّمِّ، وَأَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا خَبَرَ ابْتِدَاءٍ مَضْمَرٍ.
- قوله: ﴿أَعْمَالًا﴾: تَمييزٌ لِلْأَخْسَرِينَ، وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ.

○ قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ العاقمة على الياءِ مِنْ تحتُ، عَطِفَ بها على أمرٍ. ورُوي عن أبي عمرو ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاءِ مِنْ فوقَ خطابًا على الالتفاتِ من العييةِ إلى الخطابِ ثم التفتَ في قوله ﴿عِبَادَةَ رَبِّهِ﴾ إلى الأول. (١)

رابعاً: المعنى الإجمالي:

من أهوال القيامة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا ۙ ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۙ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۙ ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۙ ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٢].

لمَّا فرغ ذو القرنين من بناء السد الذي صار حاجزًا بين يأجوج ومأجوج والبلدان المنكوبة، فمُنِعُوا من الخروج، ومَاحَ بعضهم في بعضٍ خلف هذا البنيانِ المَشِيدِ، وقيل هذا التفتات لما يجري قبل قيام الساعة من شدة الرِّحام واختلاط الناس، وقيل عند انفتاح السدِّ وخروج يأجوج ومأجوج، واختلاطهم بالناس وما يحدث من هرجٍ ومرجٍ (٢). ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ النفخة الثانية التي تجمع الناس جمعًا عظيمًا هائلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۙ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وكما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الدَّنْبِ، وَمِنْهُ

(١) يُراجع السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: (٥٥١/٧: ٥٥٨).

(٢) يراجع للخان، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٣٣٦/٤)، وللنيسابوري، غرائب القرآن ورجائب الفرقان:

(٥/٢١٢)، وللشوكاني، فتح القدير: (٤/٤٣٠).

يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

﴿وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وبعضمتنا عرضنا جهنم هذا اليوم للكافرين عرضًا هائلًا رهيبًا، ومعنى عرض جهنم: إبرازها وكشفها للذين عموا عنها في الدنيا، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفرع، أي عرضًا فظيعة هائلًا لا يُقَادَرُ قدره، وتخصيصُ العرض بهم مع أنها بمراى من أهل الجمع قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بُئِتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُونَهَا»^(٢).

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: الذين كانوا في غفلة وإعراض عن النظر في آيات الله والتفكر والاعتبار، نفى عنهم السمع، أي: لا يقدرّون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾^(١٠٢) أحسبوا أن ما عبده من دون الله ينفعهم؟ ويشفع لهم عند الله؟ ويدفع عنهم عذابه؟ فقد أعدنا لهم نُزُلًا يُنَاسِبُ جُرْمَهُمْ، ولو أمعنوا النظر وأصغوا السمع؛ لتراجعوا عن هذه الحسابات الخاطئة والمزاعم الواهية.

فتنة الأهواء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ﴿١٠٦﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٦].

المناسبة: بعد إنكاره عليهم اتخاذهم عباد الله أولياء من دونه، بيّن تعالى حُسْرانهم المبين،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير: (ج ٤٥٣٦)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفتين: (ح ١٤١) - (ح ٢٩٥٥).

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حرّ نار جهنم، وُبُعِدَ قعرها، وما تأخذ من المعذبين: (ح ٢٩) - (ح ٢٨٤٢).

وضلالهم البعيد، وتقليدهم الأعمى، وتعصبهم المقيت لما هم عليه؛ بسبب فتنة الأهواء التي تُزَيِّنُ القبيح، فجمعت السُّورة الكريمة بين فتنة الدُّنيا، وفتنة إبليس، وفتنة الهوى، حتى يكون المسلم على حذرٍ، ويسلك طريق العصمة من هذا الخطر.

قل يا أيها النبي لأولئك الكافرين: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً؟ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٤) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾، فمن أشدِّ الفتن وأعظمها خطراً وأعماقها أثراً فتنة الأهواء، حين يُعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيف، بل ويتعصبون لباطلهم؛ لموافقته هواهم، وإن خالف الأدلة الشرعية، والفطرة النقيّة، والعقول الراجحة، فتراهم يتهربون من سماع الحق والنظر في أدلته وبراهينه، ولا يُسلمون بالحجج، فيؤثرون الهوى على الحق، ويشترون الضلالة بالهدى. شأن أصحاب الملل الوضعية والحرفة والمذاهب الضالة، ممن انتصروا لأهوائهم، وتعصّبوا لآرائهم، وانخدعوا ببريق الدُّنيا، وتعلقوا بسرابها، واغترُّوا بالمال، أو انحازوا إلى السُّلطان، وتفاخروا بالأهل والعشيرة. وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنّة في أنفسها وفي حُسابهم أيضاً حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها. روى البخاري في صحيحه بسنده عن مُصعبِ بنِ سَعْدٍ قَالَ: "سَأَلْتُ أَبِي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾: هُمْ الْحُرُورِيُّ؟ قَالَ: لَا: هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: أَمَّا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى: فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحُرُورِيُّ هُمْ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ" (١).

فالأخسرون أعمالاً، هم: "الذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يبتغون به ربحاً وفضلاً، فنالوا به عطباً وهلاكاً، ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحاً، فخاب رجاءه، وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله" (٢).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢٠١/٥)، والحرورية نسبة إلى حروراء قرية انحاز إليها الخوارج فُنسبوا إليها.

(٢) الطبري، جامع البيان: (١٢٥/١٨).

وقال ابن العربي: "... وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:
الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ، وَالْأَنْبِيَاءُ، وَالتَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ،
إِنْفَادًا لِمَشِيئَتِهِ، وَحُكْمًا بِقَضَائِهِ، وَتَصَدِيقًا لِكَلَامِهِ.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، كَأَهْلِ حَرُورَاءَ وَالنَّهْرَوَانَ، وَمَنْ
عَمَلَ بِعَمَلِهِمْ الْيَوْمَ، وَشَعَبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أَوْلِيكَ حِينِيذٍ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرُّ مِنْهُمْ.
الصِّنْفُ الثَّلَاثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ
فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَلْحَقُ بِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمُ النَّفِيسِ فِي طَلَبِ
الْحُسَيْبِ" (١).

وقال ابن كثير: "أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم،
فروؤسأوهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعهم مقلدون بغير دليل" (٢).

فالأية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مُصِيبٌ فيها، وأن عمله
مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾
[الفرقان: ٢٣].

عاقبة الأخسرين أعمالاً:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ
بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٥-١٠٦]، فهؤلاء الأخسرين لا قيمة لهم ولا وزنٌ
لهم عند الله تعالى، وذلك يدلُّ على خِسَّتِهِمْ، وحقارتهم، وضلال سعيهم، كما لا يثقل لهم ميزانٌ يوم

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٢٤٤/٣) بتصرف.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢٠٢/٥).

القيامة، بل الوزن عليهم لا لهم، إذ لا يعتد بما جاءوا به. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ لِيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَرْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ أَفْرَأُوا: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾»^(١).

بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١١٠].

حقًا ويقينًا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جديرون بأعالي الجنات وأرفعها مقامًا ومنزلًا، فهي منزلهم ومقامهم، تكريماً من الله لهم ورحمة بهم، وتفضلاً عليهم، وهذه بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتن وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوز بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة، ولذاتها المتجددة، فلا يملون ولا يفترسون ولا يتحولون عنها، كيف وقد جمعت معاني الحسن، قال أبو السعود: "أي لا يطلبون تحولاً عنها؛ إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم وأرفع منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وتطمح نحوه أبصارهم"^(٢).

وقد جاء في الحديث الصحيح قول نبينا صلى الله عليه وسلم: «... فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٣).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: من سورة الكهف: (ح ٤٤٥٢)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: ١: (ح ١٨)، (ح ٢٧٨٥)

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٥/٢٥١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله:

(ح ٢٧٩٠).

[الكهف: ١٠٩]،: يأتي الختام وقد حوى جوامع الكلم، وناسب ما جاء في مقدمة السورة الكريمة وثناياها من آيات بينات وحجج نيرات. فكلمات الله تعالى لا تنتهي لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهر لا ينضب، وعطاء لا ينفد، وكنوز لا تُحصى، فلو كانت كل قطرة من بحار الدنيا مداً، ولو استحالت جذور الأشجار وجذوعها وأغصانها أقلاماً، لتكتب بها كلمات الله، لنفد المداد والأقلام قبل أن تنفذ كلمات الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: حُتِمت السورة الكريمة بما بدأت به من بيان مهمته ﷺ وطبيعته فهو بشر كسائر البشر، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

فمن كان في شوقٍ للقاء مولاه، راجياً رضاه فليعد لهذا اللقاء زاده وعُدته.

خامساً: الهدايا المستنبطة من الخاتمة:

- في تذكري أهوال يوم القيامة واستحضار مشاهدتها: تسليّة وتثبيت، وعظة واعتبار لأهل الحق، وترهيب للمعرضين المفتونين.
- من أشدّ الفتن وأعظمها خطراً وأعمقها أثراً: فتنة الأهواء حين يُعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلالٍ وزيف، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الفطرة النقيّة والعقول الراجحة.
- زفّت لنا خاتمة السورة الكريمة بُشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتن وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوز بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة.
- كلمات الله تعالى لا تنتهي لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهر لا ينضب، وعطاء لا ينفد، وكنوز لا تحصى.

- نبينا ﷺ بشرٌ كسائر البشر، جاء بوحى من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

سادساً: البلاغة:

- استعارة تَبَعِيَّة ﴿يَمْوجُ فِي بَعْضٍ﴾: شَبَّهَهُمْ لكَثْرَتِهِمْ وَتَدَاخُلَ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ بِمَوْجِ الْبَحْرِ الْمَتَلَاطِمِ، وَاسْتَعَارَ لَفْظَ يَمْوجُ لِاضْطِرَابِهِمْ وَاخْتِلَاطِهِمْ.
- ﴿جَمْعًا﴾: الْمَصْدَرُ لِتَهْوِيلِ هَذَا الْجَمْعِ وَتَعْظِيمِهِ، أَي: حَشْدًا عَظِيمًا هَائِلًا.
- ﴿عَرَضًا﴾: الْمَصْدَرُ لِتَهْوِيلِ هَذَا الْعَرَضِ وَتَعْظِيمِهِ، أَي: عَرَضًا عَظِيمًا هَائِلًا. وَفِي التَّهْوِيلِ تَرْهيبٌ لِلنَّفْسِ كَيْفَ تَتَزَوَّدُ لِآخِرَتِهَا وَتَتَوَّابُ لِرَبِّهَا، وَزَجْرٌ لِلْكَافِرِ عَنِ كُفْرِهِ، وَوَعِيدٌ لَهُ بِهَوْلِ الْمَوْقِفِ.
- الاستفهام الإنكاري التوبيخي: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢].
- العدول عن الضمير للاسم الظاهر: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]. قال الألوسي: "لِلْكَافِرِينَ الْمَعْهُودِينَ عَدْلًا عَنِ الْإِضْمَارِ ذَمًّا لَهُمْ وَإِشْعَارًا بِأَنَّ ذَلِكَ الْاِعْتِدَادَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ الْمَتَضَمَّنِ لِحَسْبَانِهِمُ الْبَاطِلِ"^(١).
- التهكم في: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]: فَالْتُّزْلُ فِي الْأَصْلِ مَحَلُّ الضِّيَافَةِ وَالْإِكْرَامِ، وَنَظِيرُهُ ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [٤٧] ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: ٤٧-٤٩]. ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾، قال أبو السعود: "وفيه تحطئة لهم في حسبانهم وتهكُّمٌ بهم حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل إعداد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والدُّخْرِ جَهَنَّمَ عُدَّةً"^(٢).

(١) الألوسي، روح المعاني: (٣٦٧/٨).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (٢٤٨/٥).

- "بِالْأَحْسَرِينَ أَعْمَالًا" وجمع التمييز ﴿أَعْمَالًا﴾ ولم يُفرد: إشارة إلى أنهم خسروا في أعمال متعددة، لا في عمل واحد".^(١)
- تجنيس التصحيف "يحسبون... يحسنون" ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]: وهو أن تتفق الكلمتان في الرسم وتختلفان في النقط، وهذا من بديع القرآن.
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. "إدخال الماضي على المستقبل؛ للدلالة على أن اللائق بحق العبد الاستمرار والاستدامة على رجاء الكرامة من ربه، فكأنه قيل فمن استمر علم رجاء كرامته تعالى، فليعمل عملاً صالحاً في نفسه لائقاً بذلك المرجو، كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات"^(٢).
- العدول عن الإضمار إلى الإظهار: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وضع المُظْهَر موضعَ المُضْمَرِ في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير والإغراء.
- رعاية الفاصلة، وهو من محاسن البديع: كما في ختام الآيات: (نزلاً، حولاً، مدداً، أحداً).

* * *

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير: (٣٣/١٦).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (٢٥١/٥)، وعنه نقل الألويسي، روح المعاني: (٣٧٣/٨).

ملف الإنجاز/ أنشطة :

أنشطة

١. لخصي قصة موسى والخضر في (١٠) أسطر.
٢. لخصي قصة ذي القرنين في (١٠) أسطر.
٣. في ضوء دراستك لِمَا تيسَّر من تفسير سورة الكهف، اذكرني ثلاثة من مقاصد السُّورة.
٤. كيف نربط بين قصة موسى والخضر وبين قصة ذي القرنين؟
٥. استخرجني ثلاثاً من اللطائف البلاغية من قصة موسى والخضر.
٦. استخرجني ثلاثاً من اللطائف البلاغية من قصة ذي القرنين.
٧. ناقشي مُشكِل الإعراب في المقاطع الثلاثة؟

ملف الإنجاز

١. اكتبني مقالاً عن القصص القرآني وأثره في التربية.
٢. اكتبني مقالاً عن القصص القرآني وأثره في الإصلاح؟
٣. اذكرني خمسة مراجع عُنيت بالقصص القرآني.
٤. اكتبني مقالاً عن وجه إعجاز القصص القرآني في (١٢) سطرًا.
٥. اكتبني مقالاً عن شخصية ذي القرنين؟
٦. اكتبني مقالاً عن فضل التعلم ومكانة المعلم؟
٧. اكتبني مقالاً عن آداب المتعلم والمعلم؟
٨. كيف نربط بين آخر سورة الكهف وأولها؟

مصادر التعلم:

١. التفسير الكبير، للرازي.
٢. ابن عطية، المحرر الوجيز.
٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.
٤. البحر المحيط، أبو حيان.
٥. إرشاد العقل السليم، أبو السعود.
٦. فتح القدير، الشوكاني.
٧. روح المعاني، الألوسي.
٨. نظم الدرر، البقاعي.

التقويم:

١. ما المناسبة بين قصة موسى والخضر عليهما السلام وما قبلها؟
٢. بيّن معاني المفردات الآتية: (لا أبرح، حقبًا، سربًا، نصبًا، فارتدًا، قصصًا، ولا تُرهقني، إمرًا، نُكْرًا، فأقامه، مكنا له: حمئة، حامية، خرجًا، سدًا، ردّمًا، زبر الحديد، الصّدفين، قطرا، نقبًا، دكًا، يموج في بعض، نُزلاً، غطاءً، حبطت، الفِرْدَوْسِ، حَوْلًا، مداً).
٣. اذكر القراءات الواردة في ﴿حمئة، جزاء الحسنی، يفقهون﴾ مع توجيه هذه القراءات
٤. اذكر ثلاث من فوائد قصة موسى والخضر.
٥. اذكر ثلاث من فوائد قصة ذي القرنين.
٦. علام ينطبق قوله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾؟ وما وجه البلاغة في جمع ﴿أعمالاً﴾ وما إعرابها؟

الموضوع الرابع التفسير التحليلي لسورة النور



تمهيد:

هذه السُّورة يُذكر فيها النُّور بلفظه متصلًا بذات الله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ويُذكر فيها النُّور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي ذُكرت في هذه السُّورة، وهي آدابٌ وأخلاقٌ نفسيَّة، وعائليَّة، وجماعيَّة، تُنير القلب، وتُثير الحياة، ويربطها بذلك النُّور الكوني الشَّامل أنما نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلُّها من ذلك النور الكبير.

وقد ورد في هذه السُّورة حُجج وتوحيد، ودلائل الأحكام، والكُلُّ آياتٌ بيِّنات: حجج العقول تُرشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام تُرشد إلى وجه الحق، وترفع عُمةَ الجهل؛ وهذا هو شرف السُّورة.

بين يدي السُّورة

اسم السُّورة:

سمَّيت هذه السُّورة «سورة النور»، وتلك تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر؛ ووجه التسمية أن فيها آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]^(١)، أي منورها، فبنوره أضاءت السماوات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم، كما أنها نور لبيوتنا ولجتمعاتنا، بما تشرقُّ به من معانٍ ومقاصدٍ وأحكام.

(١) يُراجع: ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٣٩/١٨).

السورة: مدنية، وآياتها اثنتان وستون في عددِ المدنين والمكي، وأربع وستين في عددِ البقية. "اختلافهم آيتان: ﴿بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾، ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، وَهُوَ الثَّانِي لَمْ يَعْدهمَا المديان والمكي، وعدهما الْبَاقُونَ" (١).

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا قَالَ ﷺ فِي مطلع سورة (المؤمنون): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]، ذَكَرَ هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزناة، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنى، والاستئذان الذي جعل من أجل النظر، وأمر بالتزويج حفظاً للفروج، وأمر من عجز عن مؤن الزواج بالاستعفاف، وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنى.

المناسبة بين افتتاحية سورة النور وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بتنويه عن نزولها، وفرض الأحكام التي وردت فيها، حيث قال: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]، وهذا الإعلان يُشعرُ بأهميتها، ووجوب تطبيق أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤] تذكيراً للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم التي سيحاسبهم عليها يوم يُرجعون إليه؛ ليعدّوا أنفسهم للسؤال أمام الله عن تلك الآيات والأحكام التي أنزلها إليهم، خاصة المذكورة في هذه السورة، وبذلك ردّ الحتم على المبدأ، وانسجم الآخر بالأول.

المناسبة بين خاتمة سورة النور وافتتاحية سورة الفرقان:

لَمَّا ذَكَرَ فِي آخر سورة النور وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ افتتح سورة الفرقان بمدح

(١) أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤ هـ)، البيان في عدد آي القرآن المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث - الكويت، الطبعة: الأولى، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م): (ص ١٩٣).

- وأحكام الاستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة، ودخول البيوت غير المسكونة، وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.
- وإفشاء السَّلام.
- والتحريضُ على تزويج من لا زوج له من الأحرار والحرائر، والعبيد والإماء، والتحريض على مكاتبتهم، أي إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكهم.
- وتحريم البغاء الذي كان شائعًا في الجاهلية، والأمر بالعفاف.
- وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي ﷺ.
- والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
- وضرب المثل لهُدى الإيمان وضلال الكفر.
- والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.
- وتحلل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته، وما فيها من مَن على الناس.
- وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين، وأن الله علم بما يُضمّره كلّ أحد، وأن المرجع إليه والجزاء بيده^(١).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٤١/١٨).

عقوبة الزنا

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣].

معاني المفردات:

سورة: جزء من القرآن مُعَيَّنٌ بمبدأ ونهاية، وأصلها من السُّور أو من المنزلة العالية، فهي طائفة من الآيات، شأن سور المدينة أو البستان الذي يُحيط بما فيه؛ فهذه السُّورة سياق للمجتمع المسلم بما اشتملت عليه من أخلاق وآداب وأحكام، ورفعة ورقى لهذا المجتمع إلى عالم الفضيلة.

﴿فرضناها﴾: فرضنا بعظمتنا وحكمتنا ما فيها من أحكام قدرناها ملائمةً لمصالح الناس.

﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾: حججًا واضحات تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

﴿لعلكم تذكرون﴾: تتعظون، والتذكر نقيض الغفلة والنسيان.

﴿الزانية﴾: مَنْ أَفْضَتْ إِلَى رَجُلٍ بَغَيْرِ نِكَاحٍ شَرْعِيٍّ وَهِيَ غَيْرُ مُحْصَنَةٍ.

﴿مائة جلدة﴾: أي ضربة بالجلدة على ظهره.

﴿رأفة﴾: شفقة، تمنعكم من إقامة الحدِّ أو التقصير فيه.

﴿وليشهد عذابهما﴾: أي إقامة الحدِّ عليهما.

﴿طائفة﴾: أي عدد لا يقل عن ثلاثة أنفار من المسلمين، والأربعة أولى من الثلاثة.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾: أي إلا زانية مثله أو مشركة، أي لا يقع وطء إلا على مثله.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣].

روى الترمذي بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "كان رجل يُقال له (مرثد بن أبي مرثد)، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة ويأتي بهم المدينة. قال: وكانت امرأةً بغيةً بمكة يقال لها (عناق) وكانت صديقةً له، ذهب ليحمل رجلاً من أسارى مكة، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائطٍ من حوائط مكة في ليلة مقمرة. قال: فجاءت (عناق) فأبصرتُ سوادَ ظليّ بجانب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفت. فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت مرحباً وأهلاً. هلُم فبت عندنا الليلة، فقلت: يا عناق حرّم الله الزنا. قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال: فتبعني ثمانية، وسلكتُ الخندمة، فانتهيت إلى غارٍ، أو كهفٍ؛ فدخلت. فجاءوا حتى قاموا على رأسي وعماهم الله عني. قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الآخر ففككت عنه أكبله فجعلت أحمله ويعيني، حتى قدمت المدينة فأتيت ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ ولم يزد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾؛ فلا تنكحها" (١).

الإعراب والقراءات:

﴿سورة﴾: سورة خبر لمبتدأ محذوف، أي هذه سورة. أو مبتدأ والخبر محذوف أي فيما أوحينا إليك سورة، وساغ الابتداء بالنكرة لأنها وصفت بجملة أنزلناها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: فَرِيٌّ بِتَخْفِيفِ الرَّاءِ، أَي فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: "وَفَرَضْنَاهَا" بِالتَّشْدِيدِ: أَي أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلَفَةً. أَوْ قَطَعْنَاهَا فِي الْإِنْزَالِ نَجْمًا نَجْمًا. وَالْفَرَضُ الْقَطْعُ. (٢).

(١) الترمذي، السنن: باب: ومن سورة النور: (٣٢٨/٥)، (ح ٣١٧٧)، قال الألباني: (حسن الإسناد). والخندمة: جبلٌ معروفٌ عند مكة. ابن الأثير الجزري: (ت: ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية - بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي (٢/٨٢).

(٢) (واختلّفوا) في: وَفَرَضْنَاهَا فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا تَدَكُّرُونَ، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر (٢/٣٣٠).

فمن قرأ بالتخفيف فَمَعْنَاهُ الزَّيْنَةُ بِمَا فُرِضَ فِيهَا، ومن قرأ بالتشديد فَعَلَى وجهين: أحدهما على معنى التكثير، على معنى أنا فَرَضْنَا فِيهَا فُرُوضًا كَثِيرَةً وعلى معنى بَيَّنَّا وفصلنا ما فيها من الحلال والحرام.

﴿لَا يَنْكِحُ﴾: لا نافية، والفعل المضارع بعدها مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مقدر يعود إلى (الزاني).

البلاغة:

١. براعة الاستهلال وحسن المطلع وروعة الديباجة، حيث استهل الله هذه السورة ببيان مضمونها،

وشرفها، وعظمتها، وما فيها من أحكام، وحكم، وآيات، ومواعظ، فقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: فلخصت هذه المقدمة مضمون السورة ومحتواها، وبيّنت مقصودها وفحواها مع التنويه بعظمتها تعظيمًا وإجلالاً لأحكامها.

٢. جملة: (أَنْزَلْنَاهَا) وما عطف عليها في موضع الصفة ل (سورة)، والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة؛ ليُقبل المسلمون على تلقي ما فيها؛ وينقدوا لها انقيادًا كاملاً.

٣. حسن الترتيب في ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾: حيث بدأ بالمرأة قبل الرجل. قال ابن العربي: "قال علماءنا: ذلك لفائدتين: إحداهما: أَنَّ الزَّانِيَةَ فِي الْمَرْأَةِ أَعْرُ لِأَجْلِ الْحَمْلِ، فَصَدَّرَ بِهَا لِعِظَمِ حَالِهَا فِي الْفَاحِشَةِ. الثَّانِيَةُ: أَنَّ الشَّهْوَةَ فِي الْمَرْأَةِ أَكْثَرُ، فَصَدَّرَ بِهَا تَعْلِيظًا لِرُدْعِ شَهْوَتِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَكَّبَ فِيهَا حَيَاءً، وَلَكِنَّهَا إِذَا زَنَتْ ذَهَبَ الْحَيَاءُ".^(١) وقال الخطيب الشربيني: "فإن قيل: لما قدّمت الزانية على الزاني أولاً، ثم قدم عليها ثانيًا؟ أجيب: بأن تلك الآية سبقت لعقوبتهما على ما جنى، والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية؛ لأنها لو لم تُطمع الرجل، ولم تمكنه؛ لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بُدئ بذكرها، وأما الثانية فمُسَوِّقَةٌ لِذِكْرِ التَّكَاحِ،

(١) ابن العربي، أحكام القرآن: (٣/٣٣٣).

- والرجل أصلٌ فيه لأنه؛ الراغب فيه والمخاطب، ومنه يبدو الطلب" ^(١).
٤. دخلت الفاء ﴿فاجلدوا﴾؛ لُتَضَمَّنَ الموصول معنى الشرط، كأنها وقعت في جواب الشرط، أي: من زنى ومن زنت فاجلدوا.
٥. الإلهاب والتهيج: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: قال القرطبي: "أفادت هذه الجملة الشرطية تهيج المخاطب، وحثه على أن يُقيم شريعة الله دون تهاون في ذلك" ^(٢). وقال الألوسي: "من باب التهيج والإلهاب، كما يُقال: إن كنت رجلاً فافعل كذا ولا شك في رجوليتك، وكذا المخاطبون هنا مقطوعٌ بإيمانهم، لكن قصدَ تهيجهم، وتحريك حميتهم؛ ليُجِدُّوا في طاعة الله تعالى، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها" ^(٣).
٦. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: خصَّ المؤمنين بالذكر، للعتة والاعتبار، ولأن شهودهم مما يدعو لفرط الخجل، قال الزمخشري: "واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل" ^(٤).
٧. ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: الجملة خبريةٌ اللفظ إنشائيةٌ المعنى، المراد بها النهي عن نكاح الزاني للعفيفة أو نكاح العفيف للزانية، وإنما جاء النهي بصيغة الخبر للتأكيد والجزم.
٨. التعبير بالوصف الظاهر دون الضمير ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل عليكم، لإثارة الوجدان واستنهاض الإيمان في القلوب، وبيان كون هذا الفعل الآثم ليس من صنيع أهل الإيمان.

(١) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٥٩٨/٢).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٦٠/١٢).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (٢٨٢/٩).

(٤) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢١١/٣).

التفسير:

هذه سورة عظيمة من القرآن أنزلناها، وأوجبنا العمل بأحكامها، وأنزلنا فيها دلالات واضحة؛ لتذكروا - أيها المؤمنون - بهذه الآيات البينات، وتعملوا بها.

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي اللذان لم يسبق لهما الزواج، عقوبة كلٍّ منهما مائة جلدة بالسَّوط، ولا تحملكم الرأفة بهما على ترك العقوبة أو تخفيفها، إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر عاملين بأحكام الإسلام، وليحضُر العقوبة عدد من المؤمنين؛ تشنيعًا، وزجرًا، وعظةً، واعتبارًا.

الزَّانِي لا يرضى إلا بنكاح زانية أو مشركة لا تُقَرُّ بجرمة الزنى، والزانية لا ترضى إلا بنكاح زانٍ أو مشرك لا يُقَرُّ بجرمة الزنى، أما الأَعْفَاءُ فإنهم لا يرضون بذلك، وحُرِّم ذلك النكاح على المؤمنين.

الهدايا المستتبطة:

١. بيان حكم الزانية والزاني البكرين الحرَّين، وهو جلد مائة وتغريب عام - كما بينت السنة - ، وأما الثَّيِّبُ فالرَّجْمُ؛ إن كان حرًّا، أو جلدُ خمسين جلدة للأرقاء.

٢. وجوب إقامة حدِّ الزَّانِي أمام طائفة من المؤمنين.

٣. لا يحلُّ تزويج الزاني بعفيفة إلا بعد توبته، ولا الزانية بعفيف إلا بعد توبتها.

٤. من حكمة حدِّ الزَّانِي؛ الحفاظ على الأعراض والحقوق، ومنع اختلاط الأنساب، وتحقيق العفاف والصون، وطهر المجتمع، والحيلولة دون ظهور اللقطاء في الشوارع، وانتشار الأمراض الجنسية الخطيرة، كالزَّهري والسيلان، وتكريم المرأة وصونها وحمايتها.

٥. (أَنْزَلْنَاهَا) أي السُّورَةُ، وفي هذا دليل على علو الله تبارك وتعالى وفوقيته على خلقه خلافاً لمن

زعم رد الفوقية، ومذهب السلف الصالح رحمة الله عليهم: إثبات العلو لله لدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وهنا أشار

إلى ذلك ضمناً في قوله: (أَنْزَلْنَاهَا)، كما أشار إلى هذه الصفة ضمناً في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، والأحاديث في الدلالة على هذه الصفة

مستفيضة صريحة.

٦. جملة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، نَهَى عن التهاون في إقامة العقوبات عمومًا والفواحش خصوصًا؛ حتى لا يدخل كثير من الناس في الدَّيَاثَةِ، وَقِلَّةِ الْغِيْرَةِ.

٧. ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

٣﴾: قال الألوسي: "فيه تقييحٌ لأمرِ الزَّانِي أشدَّ تقييح، ببيان أنه بعد أن رضي بالزنى لا يليق به أن ينكح العفيفة المؤمنة، والزَّانِيَةُ بعد أن رضيت بالزنى لا يليق أن ينكحها إِلَّا مَنْ هُوَ مثلها، وهو الزاني، أو من هو أشدَّ حالاً منها، وهو المشرك، وأما المسلم العفيف فأسدُّ غيرته يَأْبَى وِرودَ جَفْرَتِهَا:

وتجتنبُ الأسودُ وِرودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ ولَعْنُ فيه" (١)

٨. قرن الله عَزَّ وَجَلَّ الزاني بالمشرك، وذلك ليشير إلى عظيم خطر الزنى وكبير ضرره، وذلك جُرْمٌ من أعظم الجرائم الاجتماعية، يهدم بنیان الأسرة، ويحطم كيان المجتمع ولهذا قرنها الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

الحكمة:

حَرَّمَ الإسلامُ الزَّنا؛ لِمَا فِيهِ من اختلاطٍ لِلأنسابِ، وَهَتْكٍ لِلحرَماتِ، ومهانةٍ للكراماتِ، فوق ما فيه من أمراضٍ فَتَّاكةٍ وبائيةٍ، ومجلبةٍ للفقير والعداوات بين الناس، وتفكك الأسر وضياع الأبناء، وتشردُّ الأطفال وحرمانهم، وتربيتهم بعيداً عن المحضن الطبيعي الشرعي، فحرمه الإسلام، وحرَمَ كلَّ ما يدعو إليه من قول، أو فعل، أو صوت، أو حركة، كالنَّجسِ والسفور، والدخول على النساء بلا محرم، والخلوة بهنَّ، وحرَمَ الاختلاط لغير حاجة، كما حرَمَ النَّظْرَ لغير حاجة، وشرَعَ حَدَّ الجلدِ مئةَ جلدةٍ للبيكر، رجلاً كان أو امرأة، كما شرع الرَّجْمَ حتى الموت للزَّانِي المُحصن، زَجْرًا عن الفاحشة، وتطهيرًا للمخطئين وكفارة لهم.

(١) الألوسي، روح المعاني: (٢٨٣/٩).

حد القذف

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

المناسبة:

لمَّا عظم تعالى أمر الزاني بوجوب جلده، أو رجمه إن كان محصنًا، وحرّم زواجه من العفيفة إن لم يتب، وكذلك حرم زواج العفيف من الزانية إن لم تتب؛ بيّن تعالى تعظيم حرمة الأعراس بتحريم القذف وتجريمه.

معاني المفردات:

﴿يَرْمُونَ﴾: يقذفون بالزنى.

﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: العفيفات، وجمع المؤنث للتغليب.

الإعراب:

﴿المحصنات﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة، لأنه جمع مؤنث سالم، أو صفة لموصوف محذوف تقديره الأنفس المحصنات، قدروها لتشمل الرجال والنساء، لكن ما لا يحتاج لحذف أولى.

البلاغة:

١. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾، الأصل في الرمي أن يكون بشيء حسيّ كالحجر وغيره، وإنما جاء التعبير عن قذف المحصنات بتهمة الزنا بالرمي، لبيان شناعته وخطورته، وما يترتب عليه من جراح وآلام، أشد من رمي الحجر، وقد قيل:

جراحات السنان لها التأم ... ولا يلتأم ما جرح اللسان

٢. التغليب: في المحصنات فيشمل النساء والرجال، ولكنه غلب النساء لأنهن أكثر من يرمى، ولشناعة قذفهن وخطورة تأثيره مقارنة بالرجال. قال القرطبي: "ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ النِّسَاءِ

مِنْ حَيْثُ هُنَّ أَهْمٌ، وَرَمِيَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ أَشْنَعُ وَأَنْكَى لِلنُّفُوسِ، وَقَذَفُ الرِّجَالِ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ
الآيَةِ بِالمَعْنَى، وَإِجْمَاعُ الأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا نَحْوُ نَصِّهِ عَلَى تَحْرِيمِ لَحْمِ الحِنزِيرِ وَدَخَلِ شَحْمُهُ
وَعَضَارِيئُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ بِالمَعْنَى وَالِإِجْمَاعِ". (١)

٣. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: اسم الإشارة البعيد لبيان بعد منزلتهم في الفسق وإيغالهم فيه،
وتعريف طرفي الجملة - المسند والمسند إليه مع الضمير المنفصل، مبالغة في وصفهم بالفسق،
واسمية الجملة لتأكيد المعنى.

٤. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: اشتملت هذه الجملة على عدّة مؤكّدات، اسمية الجملة، و"إِنَّ"
المشددة، وصيغة المبالغة، ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لمزيد توكيد بقبول الله توبة من تاب من قذف
محصنة.

التفسير:

والذين يَتَّبِعُونَ بالفاحشة أنفساً عفيفة من النساء والرجال من دون أن يشهد معهم أربعة شهود
عدول، فاجلدوهم بالسَّوطِ ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك هم الخارجون عن طاعة
الله. لكن من تاب وندم ورجع عن اتِّهامه وأصلح عمله، فإن الله يغفر ذنبه ويرحمه، ويقبل توبته.

الهدايات المستنبطة:

١. حماية الإسلام للأعراض وتعظيمه للحرمان.
٢. ضرورة التثبت في الأخبار، وإمساك اللسان عن الخوض، وفضول الكلام.
٣. قَذْفُ المحصنات من كبائر الذنوب الموجبة لغضب الله وسخطه، واستحقاق العذاب الموجه.
٤. لا تُقبل شهادة القاذف مستقبلاً إلا أن يتوب؛ حماية لأعراض الناس، وصوناً لكرامتهم.
٥. قبول توبة التائب؛ إن كانت توبته صادقة نصوحاً.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٧٢/١٢).

قذف الرجل زوجته

﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور: ٦-١٠]

سبب النزول:

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال له النبي ﷺ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق، يلتمس البينة! فجعل النبي ﷺ يقول: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزل الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، فأنزل الله عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف النساء الأجنبية غير الزوجات بالزنى؛ بين الله تعالى حكم قذف الزوجات الذي هو في حكم الاستثناء من الآية المتقدمة؛ تخفيفاً عن الزوج؛ لأن العار يلحقه، ومن الصعب أن يجد بيّنة.

معاني المفردات:

﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ اللعنة: الطرد والحرمان من رحمة الله، مع أبلغ ما يكون من المذمة.
﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾: ويدراً: أي يدفع، والعذاب: المراد به العذاب الدنيوي وهو حدٌ

(١) البخاري، الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب: من سورة النور: (ح٤٧٤٧).

(الرَّجْم) الذي شُرِعَ عقوبةً للزاني المحصن أو الزانية.

الإعراب:

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾: شهادةٌ مبتدأ وأربعٌ خبر.
 ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾: والخامسةُ معطوفةٌ علي ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾، والمعطوف على المرفوع مرفوع. ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾: ﴿أَرْبَعُ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة.
 ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ معطوفةٌ علي ﴿أَرْبَعُ﴾، والمعطوف على المنصوب منصوب.

البلاغة:

١. خصَّ المرأة بالغضب لأنه أبلغ من اللعن الذي هو الطرد، لأنه قد يكون بسبب غير الغضب، "وسبب التغليظ عليها الحث على اعترافها بالحق لما يُصدِّق الزوج من القرينة، من أنه لا يتجشم فضيحة أهله المستلزم لفضيحته إلا وهو صادق، ولأنها مادة الفساد ومخالطة الأنساب".^(١)

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾، حذفَ الجواب؛ للتهويل والزجر؛ ليكون أبلغ في البيان.

التفسير:

والذين يرمون زوجاتهم بالزنى، ولم يكن لهم شهداء على اتهامهم لهنَّ إلا أنفسهن، فعلى الواحد منهم أن يشهد أمام القاضي أربع مرات بقوله: أشهد بالله أني صادق فيما رميتها به من الزنى، ويزيد في الشهادة الخامسة الدعوة على نفسه باستحقاقه لعنة الله إن كان كاذبًا في قوله، وبشهادته تستوجب الزوجة عقوبة الزنى، وهي الرجم حتى الموت، ولا يدفع عنها هذه العقوبة إلا أن تشهد في مقابل شهادته أربع شهادات بالله إنه لكاذب في اتهامه لها بالزنى، وتزيد في الشهادة الخامسة الدعوة على نفسها باستحقاقها غضب الله، إن كان زوجها صادقًا في اتهامه لها، وفي هذه الحال يفرق بينهم، ولولا تفضل الله عليكم ورحمته - أيها المؤمنون - بهذا التشريع للأزواج والزوجات، لأحلَّ بالكاذب من

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٦٠١/٢).

المتلاعنين ما دعا به على نفسه، وأن الله تواب لمن تاب من عباده، حكيم في شرعه وتدييره.

الهدايات المستنبطة:

١. شرع الله ﷻ اللعان في الزوجات دون الأجنبيات؛ لأن قذف الزوجة يُلحق العار بالزوج، ويُفسد عليه النسب.

٢. في مشروعية اللعان مظهرٌ من مظاهر حسن التشريع الإسلامي وكماله، وأن مثله لن يكون إلا بوحى إلهي.

الحكمة من تشريع اللعان:

جعل الله اللعان مخرجًا للزوج إذا أيقن بزنا زوجته ولم يملك الشهود، كما جعله مخرجًا للمرأة إذا شك فيها زوجها بغير دليل وهي عفيفة طاهرة، ففي هذا التشريع حكمة بالغة، وقد كانت المرأة تُعاقب لمجرد شك زوجها في سلوكها، وليس من المنطقي أن ينتظر الزوج حتى يأتي بأربع شهود فيقضي الزاني وطره ويفر هاربًا؛ أو يُقام عليه الحد إن رماها دون بينة، فجعل الإسلام هذا التشريع الحكيم العادل.

* * *

قصة الإفك

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا
 اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا
 بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِمْ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
 سُبْحٰنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ
 لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطٰنِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
 خُطُوَاتِ الشَّيْطٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفٰحِشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [النور: ١١-٢٢].

معاني المفردات:

﴿بالإفك﴾: أشنع الكذب، وهو رمي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنى، وأصل الإفك القلب، ومنه (المؤتفكة) وهي قري قوم لوط، سُميت بذلك لانقلاب موازينها حيث صار فيها الشر خيراً، والخير

شراً، والمنكر معروفاً والمعروف منكراً، فأهلك الله أهلها ونجى لوطاً ومن آمن معه؛ قال تعالى:

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَسَّهَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢].

﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾: جماعة منكم. قال الرازي: "أما قوله (منكم) فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون، لأن عبد الله بن أبيّ كان من جملة من حُكِمَ له بالإيمان ظاهراً"^(١)، وقال الألوسي: "قيل إن قوله (منكم) خارج مخرج الأغلب الأعم، وأغلب أولئك العُصْبَةُ من المؤمنين"^(٢).

﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾: تحمل الإثم، لكونه اختلقه.

﴿أَفْضْتُمْ فِيهِ﴾: خضتم فيه من حديث الإفك.

﴿تَلَقَوْنَهُ﴾: تتلقفونه، وتنقلونه.

﴿بَهْتَانٌ﴾: كذبٌ وافتراء.

﴿يَعْظَمُكُمْ﴾: ينهاكم ويزجركم.

﴿خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: طرقه، ومذاهبه.

﴿مَا زَكَأَ﴾: ما تطهر من الذنوب.

﴿وَلَا يَأْتَلُ﴾: لا يحلف.

﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾: أهل الفضل في الدين، والمال.

سبب النزول:

روى مسلم بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر، أفرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، فأفرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد ما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأنزل

(١) الرازي، مفاتيح الغيب: (١٧٤/٢٣).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (١١٥/١٨).

فيه، فَسِرْنَا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وَقَفَل، وَدَنَوْنَا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فُئِمْتُ حين آذن بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع.

فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على البعير الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه.

وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن، ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داعٍ ولا مجيبٍ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إلي.

فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيناى فنمت، وكان صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمِي ثم الذَّكْوَانِي قد عَرَسَ من وراء الجيش، فأدْجَحَ، فأصبح عند منزلي، فرأى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فأتاني، فعرفني حين رأيته، وقد كان رأي قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخرمت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظَّهيرة فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبْرَهُ عبد الله بن أبي ابن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمناها شهراً، والناس يُفِيضُونَ في قول أهل الإفك، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُرِيْبُنِي في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كَيْفَ تَبْكُم؟» فذلك الذي يريبي، ولا أشعر بالشَّرِّ، حتى خرجتُ بعد ما نَقَّهْتُ، وخرجتُ معي أمُّ مِسْطَحٍ قبل (المناصع) وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية، وكُنَّا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح فأقبلتُ أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا،

فعثرت أم مسطح في مُرْطِهَا، فقالت: تَعَسَ مِسْطَح، فقلت لها: بئسما قلت، تسبّين رجلاً شهيداً بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه، ألم تسمعي ما قال؟ قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي، دخل علي رسول الله ﷺ، فسلم، ثم قال: «كَيْفَ تَبِكُمْ؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلِهِمَا، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية، هوّني عليك، فو الله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يسألها ويستشيرها في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ، فقال أسامة: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا. وأما علي بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله، لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدّقك الخبر.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريدة فقال: «هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ مِنْ عَائِشَةَ؟» فقالت له بريدة: والذي بعثك بالحق، إن - أي ما - رأيت منها أمرًا قطّ أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الدّاجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي.»

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، فقال: أنا أعذك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.
فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة، كذبت، لعمر الله لنقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبوي يظنان أن البكاء فلق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: « مَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيَّبِرْكَ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.»

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي، حتى ما أحسن منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت - وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرا من القرآن - : والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني، ولئن اعترفت بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدقني، إني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا - والله أعلم حينئذ أني بريئة - وأن الله تعالى مُبرئني ببراءتي، ولكن والله، ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبرئني الله بها. فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه،

فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمّان من العرق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

فسُري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أَبَشْرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَا اللَّهُ فَقَدْ بَرَأَكَ»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزّ وجلّ، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١]، الآيات العشر كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان يُنفق على مسطح بن أثاثة، لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ - إلى قوله - ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك (١).

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف النساء الأجنبية غير المحارم، وحكم قذف الزوجات، أبان الله تعالى في هذه الآيات براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك من المنافقين.

الإعراب والبلاغة:

١. اللام في (الإفك) لام العهد الذهني، أي الإفك المعهود في الأذهان، ويجوز كون اللام للجنس فيفيد القصر، كأنه لا إفك إلا ذلك الإفك، وفي هذا إشارة إلى شناعته وبشاعته وفضاعته

(١) صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف: (ح. ٢٧٧٠).

وكذبه وبطلانه.

٢. التعبير بالموصول: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)، "في التعبير بالموصول وتكرير

الإسناد وتكرير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى" (١).

٣. تصوير دقيق: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ

اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]: في هذه الآية الكريمة تصوير دقيق لحال الخائضين في الإفك،

الذين تناقلوه بألسنتهم دون تثبت ودون تدبر، فهو قول لم يتجاوز الأفواه، وهو كذب وزور، وظلم وبهتان.

٤. الالتفات: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢)

[النور: ١]، وإنما اقتضت البلاغة هذا الالتفات والعدول عن الضمير إلى الظاهر؛ للمبالغة في التوبيخ، وليُصْرَحَ بلفظ الإيمان زيادة في الزجر والعتاب بأن هذا مما لا يليق بمؤمن، فالأصل حُسن الظن بالمؤمنين.

٥. المبالغة: ﴿وتقولون بأفواهكم﴾: ذكُرُ الأفواه والقول لا يكون إلا بالفم، للمبالغة والتعريض

بأنه ربما يتشدق تشدق جازم عالم، وهذا أشدُّ جرمًا، أو لبيان كون الإفك ليس إلا قولٌ يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب. (٢)

٦. الفصل بين (لولا) و(قلتم): ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا

بِهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، بإذ الظرفية لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه

فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها. فإن قيل: أيُّ فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ أجيب: بأن الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن

(١) الألويسي، روح المعاني: / (٣١٢/٩).

(٢) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٦٠٨/٢) بتصرف.

يَدُبُّوا أَوَّلَ مَا سَمِعُوا بِالْإِفْكَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْوَقْتِ أَهْمَ وَجِبَ التَّقْدِيمُ. (١)

٧. بلاغة التذييل: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، يُبين الله تعالى لعباده المؤمنين ما فيه الخير والصلاح لهم في دنياهم وأخراهم، فهو سبحانه العليم بما يُصلح شئون خلقه والحكيم فيما يفعله سبحانه. قال الزمخشري: "ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما يُنزل عليكم من الشرائع، ويعلمكم من الآداب الجميلة، ويعظكم به من المواعظ الشافية البليغة، والله عالمٌ بكلِّ شيء، فاعلٌ لما يفعله بدواعي الحكمة" (٢).

٨. بلاغة التذييل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]: يعلم الذين يحبون إشاعة الفاحشة سرهم وجهرهم ويطلع على نواياهم الخبيثة، ونفوسهم الأمارة بالسوء، ويعلم قبح فعلهم وشناعته، وما يترتب عليه من فسادٍ وانحلالٍ، وفسقٍ وضلالٍ. قال الرازي: "وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: فهو حسنُ الموقع بهذا الموضوع؛ لأن محبة القلب كامينة، ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر؛ لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه، وإنَّ عِلْمَهُ سبحانه بذلك الذي أخفاه، كعلمه بالذي أظهره، ويعلم قدرَ الجزاء عليه" (٣).

٩. التكرار: في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]، كرر سبحانه منته على عباده وتفضله عليهم ورحمته ورأفته بهم بترك تعجيل

(١) نفس المرجع: (٦٠٨/٢).

(٢) الكشاف: (٢٢١/٣) بتصرف

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي: (١٨٤/٢٣).

عقوبتهم، وفي هذا تذكيرٌ بعظيم فضل الله تعالى وواسع رحمته، وتذكيرٌ بعظم ذلك الافتراء على السيدة عائشة رضي الله عنها، قال النسفي: "وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنّة عليهم والتوبيخ لهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: حيث أظهر براءة المقذوفة وقَبِل توبة القاذف" (١).

١٠. خطاب التكرم، قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: المراد أبو بكر الصديق، وخاطبه بصيغة الجمع؛ للتعظيم.

التفسير:

إن الذين جاؤوا بأشنع الكذب، وهو اتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، جماعة منتسبون إليكم - معشر المسلمين - لا تحسبوا قولهم شرًّا لكم، بل هو خير لكم، لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتمحيص المؤمنين. لكل فرد تكلم بالإفك جزاءً فعله من الذنب بقدر ما خاض وأفاض، والذي تحمّل معظمه، وهو عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين - لعنه الله - له عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار، هلاً ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بعضهم ببعض خيراً عند سماعهم ذلك الإفك، وهو السلامة مما رموا به، وقالوا: هذا كذب ظاهر على عائشة رضي الله عنها، ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته لكم بحيث شملكم إحسانه، في دينكم ودنياكم فلم يعجل عقوبتكم، وتاب على من تاب منكم، لأصابكم بسبب ما حُضتم فيه عذاب عظيم، حين تتلقفون الإفك وتتناقلونه بأفواهكم، وهو قولٌ باطلٌ، ليس عندكم به علم، فوقعتم في محظورين: التكلم بالباطل، والقول بلا علم، وتظنون ذلك شيئاً هيناً، وهو عند الله عظيم. وفي هذا زجرٌ بليغٌ عن التهاون في إشاعة الباطل، وهلاً قلتم عند سماعكم إياه: ما يحلُّ لنا الكلام بهذا الكذب، تنزيهاً لك - يارب - من قول ذلك على زوجة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كذبٌ عظيمٌ في الوزر واستحقاقُ الذنب، يُدكرُكم الله وينهاكم أن تعودوا أبداً لمثل هذا الفعل من الاتهام الكاذب، إن كنتم مؤمنين به، ويبين الله لكم الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية والمواعظ، والله عليم بأفعالكم،

(١) النسفي، مدارك التنزيل: (١٣٧/٣)، وإراجع الزمخشري في الكشاف: (٢٢١/٣).

حكيم في شرعه وتدييره، إن الذين يحبون شيوع الفاحشة في المسلمين من قَدْفٍ بالزنى، أو أي قول سيئٍ لهم عذاب أليم في الدنيا بإقامة الحدِّ عليهم، وغيره من البلايا الدنيوية، ولهم في الآخرة عذاب النار إن لم يتوبوا، والله - وحده - يعلم كذبهم، ويعلم مصالح عباده، وعواقب الأمور، وأنتم لا تعلمون ذلك، ولولا فَضْلُ الله على مَنْ وقع في حديث الإفك ورحمته بهم، وأن الله يرحم المؤمنين رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم، لما بيّن هذه الأحكام والمواعظ، ولعاجل مَنْ خالف أمره بالعقوبة، يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسلكوا طرق الشيطان، ومَنْ يسلك طرق الشيطان فإنه يأمره بقبیح الأفعال ومنكراتها، ولولا فَضْلُ الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طَهَّرَ منهم أحد أبداً من دَنَسِ ذنبه، ولكن الله - بفضله - يُطَهِّرُ من يشاء. والله سميع لأقوالكم، عليم بنبئاتكم وأفعالكم، ولا يخلف أهل الفضل في الدين والسَّعة في المال على ترك صلة أقربائهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين، ومنعهم النفقة؛ بسبب ذنب فعلوه، وليتجاوزوا عن إساءتهم، ولا يعاقبوهم. ألا تحبون أن يتجاوز الله عنكم؟ فتجاوزوا عنهم. والله غفور لعباده، رحيم بهم. وفي هذا الحثُّ على العفو والصفح، ولو قوبل بالإساءة.

الهدايات المستنبطة:

١- إن داء الأمة ينبع من داخلها، وأخطر داءٍ فيها زعزعة الثقة بقادتها ومُصلحيها، وتوجيه النقد الهدام لهم، ومحاولة النيل من عرضهم، وسمعتهم، وكرامتهم، فأهل الإفك ليسوا من الأعداء الخارجين، وإنما هم أعداء الداخل.

٢- ليس في الأشياء خير محض ولا شر محض، وإنما ما غلب نفعه على ضرره فهو خير، وما غلب ضرره على نفعه فهو شر؛ لذا كان حديث الإفك خيراً على عائشة رضي الله عنها، وأهلها آل أبي بكر، وعلى صفوان بن المعطل المتهم البريء، فقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لرجحان النفع والخير على جانب الشر.

٣- الواجب على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً أو يذكره بقبیح لا يعرفونه به؛ أن يُنكروا عليه ويكذبوه لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

٤- إن إثبات تهممة الزنى إما بالإقرار أو بأربعة شهود، لقوله تعالى: ﴿جَاؤَا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾.

٥- إن أحكام الدنيا في الإثبات ونحوه تجري على الظاهر، والسرائر إلى الله عز وجل.

٦- القذف من أكبر الكبائر التي حرّمها الشرع وشتّعها.

٧- من سب عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها، قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا

لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن

قُتِل، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به بعد

هذا الذي ذُكِر في هذه الآية، فإنه كافر معاند للقرآن.

٨- لله تعالى وحده الفضل في تزكية المؤمنين وتطهيرهم وهدايتهم.

٩- على المؤمن التخلق بأخلاق الله، فيعفو عن الهفوات والزلات والمزلق، فإن فعل، فالله يعفو

عنه ويستتر ذنوبه، وكما تدين تدان، لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

١٠- القذف وإن كان معصية كبيرة لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحاً بعد

قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يُحبط الأعمال غير الشرك بالله.

١١- من حلف على شيء ألا يفعله، فرأى أن فعله أولى من تركه، أتاها وكفر عن يمينه.

١٢- دلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ على أن أبا بكر أفضل الناس

بعد النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله وصفه بصفات دالة على علو شأنه في الدين.

١٣- من سنّ شراً أعظم إثماً ممن وافقه عليه، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ

مِنَ الْإِثْمِ﴾.

١٤- ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان؛ لذا على المرء ألا يقول شيئاً

بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه، وليحذر فضول الكلام.

جزاء القذف الأخرى في قصة الإفك

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِينِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

[النور: ٢٣-٢٦]

معاني المفردات:

﴿الْغَافِلَاتِ﴾: العفيفات اللواتي لم تخطف الفاحشة بقلوبهن، فهن غافلات عن الحنا، والفجور لا يخطر ببالهن.

﴿لَعِنُوا﴾: طردوا وأبعدوا من رحمة الله.

﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾: جزاءهم بالعدل.

سبب النزول:

عن ابن عباس، رضي الله عنهما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣] قال: (نزلت في عائشة خاصة) (١).

وعن الحكم بن عتيبة، قال: "لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله ﷺ إلى عائشة، قالت: فجئت وأنا انتفض من غير حمى، فقال: «يا عائشة ما يقول الناس؟»، فقلت: لا، والذي بعثك بالحق لا أعتذر بشيء إليك، قالوا: حتى ينزل عذري من السماء، فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور، ثم قرأ الحكم حتى بلغ ﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِينِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾

(١) المستدرک علی الصحیحین، للحاکم: ذُکِرُ الصَّحَابِيَّاتِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ: (ح ٦٧٣١)، قال الحاکم: هذا حديث صحيح الإسناد) ولم يخرجاه، قال الذهبي: (صحيح)، تلخيص الذهبي: (ح ٦٧٣١).

[النور: ٢٦]، قال: فالخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء" (١).

المناسبة:

بعد بيان خبر الإفك وعقاب الأفاكين، وتأديب الخائضين، ذكر الله تعالى براءة عائشة صراحة، وذكر مع ذلك حكماً عاماً وهو أن كل من قذف مؤمنة عفيفة بالزنى، فهو مطرود من رحمة الله، وله عذاب عظيم.

الإعراب والبلاغة:

١. اسمية الجملة تدل على توكيد المعاني وتقريرها.
٢. تخصيص هذه الأعضاء ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾، بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد؛ لأن لهذه الأعضاء عمل في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف، ويُشِيرُونَ بالأيدي إلى المقذوفات، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف.
٣. العدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى (بِمَا يَقُولُونَ) إلى أنه لا يعدو كونه قولاً، أي أنه غير مطابق للواقع.
٤. قال الزمخشري: "ولو قرأت القرآن كله، وفتشت عما أوعده به من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفطاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتتة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم يُنزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يُوقِيهِمْ جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ فأوجز في ذلك وأشبع،

(١) الطبراني، المعجم الكبير، باب: تأويل قوله ﴿الخبيثات للخبيثين﴾: (ح ٢٥١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ مُرْسَلًا، وَرَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ الْمُبَهْمُ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدِّمَشْقِيِّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ هُوَ، مَجْمَعُ الزَّوَادِ وَمَنْعُ الْفَوَائِدِ: (٨٢/٧)

وفصل وأجمل، وأكد وكثر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفضاة، وما ذاك إلا لأمر^(١).

التفسير:

إن الذين يقذفون بالزنى العفيفات الغافلات المؤمنات اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن، مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم في نار جهنم. وفي هذه الآية دليل على كفر من سب، أو اتهم زوجة من زوجات النبي ﷺ بسوء؛ ذلك العذاب يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما نطقت، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما عملت، في هذا اليوم يُوفيهم الله جزاءهم كاملاً على أعمالهم بالعدل، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين الذي هو حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وكلّ شيء منه حق، الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة، كلّ خبيث من الرجال والنساء والأقوال والأفعال مناسب للخبيث وموافق له، وكلّ طيب من الرجال والنساء والأقوال والأفعال مناسب للطيب وموافق له، والطيبون والطيبات مبرّون مما يرميهم به الخبيثون من السوء، لهم من الله مغفرة تستغرق الذنوب، ورزق كريم في الجنة.

الهدايات المستنبطة:

١- إن الذين يرمون بالزنى أو الفاحشة النساء المحصنات العفاف، أو الرجال المحصنين قياساً واستدلالاً أو يقذفون غيرهم، ومن هؤلاء عائشة وسائر زوجات النبي ﷺ، لعنوا في الدنيا والآخرة، وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم يوم القيامة عند الحساب بما تكلموا به، وبما عملوا في الدنيا.

٢- دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ على أن الغفلة عن القبائح مانعة من فعلها؛ إذ لا يتأتى فعلها إلا بالعزم عليها.

٣- من قذف عائشة رضي الله عنها بعد نزول براءتها فهو كافر مرتد باتفاق أهل العلم، وفي بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان، أحدهما أنهن كعائشة رضي الله عنها. قال الألوسي: "وحكم رمي سائر أمهات

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٢٣/٣) بتصرف.

المؤمنين كحكم رمى عائشة وكذا حكم رمى أزواج الأنبياء وأمهاهم، وعندى أن حكم رمى بنات النبي ﷺ كذلك، لاسيما بضعت الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء ﷺ...^(١) وقال القاضى عياض: "ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيه قولان: أحدهما يُقتل لأنه سب النبي ﷺ بسبٍ وقذفٍ حليلته، والآخر أنهن كسائر الصحابة يُجلد القاذف حدَّ المفتري - القذف - والمختار هو القول الأول"^(٢). وذكر ابن تيمية في كتابه "الصارم المسلول" أن قذف أم المؤمنين عائشة كُفِّرَ بلا خلاف، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان، أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله^(٣).

٤- العمل الصالح لا يحبط بارتكاب الكبيرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فهذه الآية الكريمة نزلت في أعقاب حادثة الإفك، وذلك أن أبا بكر الصديق كان قد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد أن خاض مع الخائضين في الإفك، وكان مسطح قريباً لأبي بكر وكان من المهاجرين البدرين^(٤)، وكان من المساكين ولو كان قذفه للسيدة عائشة محبطاً لعمله لما وصفه الله تعالى بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن وقع في القذف، فدل هذا على أن ثواب هجرته لم يحبط بوقوعه في تلك الكبيرة. يقول الرازي: "احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة، وقالوا إنه سبحانه وصف مسطح بكونه من المهاجرين بعد أن ارتكب كبيرة القذف؛ فدل هذا على أن ثواب كونه مهاجراً لم يحبط بإقدامه على القذف"^(٥).

(١) الألويسي، روح المعاني: (١٢٨/١٨).

(٢) القاضى عياض شرح الشفا في شمائل أصحاب الاصطفا (٥/٥٣٤)، مطبعة المدني بدون تاريخ.

(٣) يراجع لابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص ٥٦٥: ٥٦٧)، ط. دار الكتب العلمية- بيروت (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

(٤) الذين شهدوا غزوة بدر.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي: (١٩١/٢٣).

الاستئذان لدخول البيوت وآدابه

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٧-٢٩].

معاني المفردات:

﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾: تستأذِنوا أهل البيوت، وسمي الاستئذان استئناسًا؛ لأنه يُرِيل الوحشة من القادم.
 ﴿أَزْكَى﴾: أظهر وأكرم لنفوسكم، وهو خير لكم من اللجاج، والعناد، والوقوف على الأبواب، فالرجوع في مثل هذه الحال أشرف وأظهر للإنسان العاقل.
 ﴿جُنَاحٌ﴾: أي إثمٌ وجرح.
 ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾: المراد البيوت العامرة التي تُقصد لمنافعٍ عامةٍ غير السكنى، كالحمامات، والحوانيت، والبيوت التي لا تُخص بسكنى أحد كالرباطات، والفنادق، والخانات، فهذه وأمثالها لا حرج في دخولها بغير إذن.
 ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾: فيها منفعة، ومصلحة لكم؛ كالبيوت المُعدَّة صدقة للمسافرين.

سبب النزول:

عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار، فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا...﴾ الآية.
 قال المفسرون: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت؛ قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار

قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويُسَلِّمون، وليس فيها سَكَّان؟ فنزل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ (١).

المناسبة:

بعد بيان حكم قذف المحصنات وقصة أهل الإفك، ذكر الله تعالى ما يليق بذلك، وهو آداب الدخول إلى البيوت من الاستئذان والسلام؛ منعاً من الوقوع في التهمة، باقتحام البيوت دون إذن والتسلل إليها، أو حدوث الخلوة التي هي مظنة التهمة - أو طريق التهمة - التي تدرّج بها أهل الإفك للوصول إلى بھتائهم وافتراءهم، ومراعاة لأحوال الناس رجالاً ونساءً الذين لا يريدون لأحد الاطلاع عليها؛ ولأن النظر والاطلاع على العورات طريق الزنى.

الإعراب والبلاغة :

١. نداء الإيمان: مشعر بمكانة المؤمن عند الله، وفيه تنبيه للمؤمن، وتنويه بما يعقب النداء من أحكام.

٢. قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه معنى دقيق، فليس المراد من اللفظ مجرد الإذن، وإنما المراد معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر عليهم هل هم راضون بدخوله أم لا؟

٣. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: يُشير إلى معنى دقيق، فربما كان في البيت صاحبه ولم يردّ على الزائر، أو لم يأذن له فيصدّق على المستأذن أنه لم يجد أحداً، ولو قال: (فإن لم يكن فيها أحد) لما كان هذا المنزع اللطيف، والسر الدقيق، والحاصل أن الآية تنهى عن الدخول في حالتين:

- أ - في حالة الاعتذار الضمني ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾، وهي إشارة إلى عدم الإذن.
 ب - في حالة الاعتذار الصريح ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾، وهي تصريح بعدم الإذن صريح. (٢)

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص ٣٢٥).

(٢) الصابوني، محمد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام ط. دار الصابوني: (١٢٨/٢) بتصرف يسير.

٤ . بلاغة التذييل في الآيات الثلاث: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فالتذييل في الآية الأولى جملة تعليلية لبيان الحكمة من الاستئذان وهي التذکر، الذي يُقابله الغفلة والذهول والنسيان، ذلك أن الإسلام يغرس الوعي والانتباه في النفوس، وفي الآية الثانية يأتي التذييل مقررًا للمعنى، مرسيًا للحكم، موقظًا للضمائر، فالله تعالى عالم بأفعال العباد، وفي هذا زجر ووعيد لمن يُضمر سوءًا، وكذلك ختام الآية الثالثة فكل ما يظهره الإنسان أو يخفيه من أفعال ونوايا لا تخفى على الله تعالى، وفي هذا زجر لكل من قصد شرًا، قال الألوسي: "﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: وعيد لمن يدخل مدخلًا من هذه المداخل لفسادٍ، أو اطلاع على عورات" ^(١)، كذلك لأن هذه الأماكن كالفنادق والخوانيت قد تُستغل في المعاصي، فجاء ختام الآية بهذا الوعيد والترهيب.

التفسير:

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله واعملوا بشرعه، لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأذنوا أهلها في الدخول وتسلموا عليهم، وصيغة ذلك من السنة: السلام عليكم أأدخل؟ ذلكم الاستئذان خير لكم؛ لعلكم تذكرون - بفعلكم له - أوامر الله، فتطيعوه، فإن لم تجدوا في بيوت الآخرين أحدًا فلا تدخلوها حتى يوجد من يأذن لكم، فإن لم يأذن، بل قال لكم: ارجعوا فارجعوا، ولا تُلحوا، فإن الرجوع عندئذ أطهر لكم؛ لأن للإنسان أحوالاً يكره اطلاع أحد عليها. والله بما تعملون عليم، فيجازي كل عامل بعمله، لكن لا حرج عليكم أن تدخلوا بغير استئذان بيوتًا ليست مخصصة لسكنى أناس بذاتهم، بل ليتمتع بها من يحتاج إليها كالبيوت المعدّة صدقة لابن السبيل في طرق المسافرين، وغيرها من المرافق، ففيها منافع وحاجة لمن يدخلها، وفي الاستئذان مشقة. والله يعلم أحوالكم الظاهرة والخفية.

(١) الألوسي، روح المعاني: (٩ / ٣٣).

الهدايات المستنبطة:

- ١- لا يجوز دخول بيوت الآخرين من غير استئذان.
- ٢- يُندب إلقاء السّلام قبل الاستئذان؛ ليتحقق الأنس.
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾؛ وعيدٌ لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز.
- ٤- إباحة الدخول في البيوت غير المسكونة والأماكن العامة كالفنادق والحمامات العامة ونحوها، إذا كان الدخول لمصلحة، أو حق انتفاع كالمبيت، والمعاملة، والاعتسال، وإيداع الأمتعة، ونحو ذلك.
- ٥- لما كان الغض التام لا يمكن؛ جيء في الآية بحرف (مِنْ) الذي هو للتبعض إيماءً إلى ذلك، إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه.
- ٦- الأمر بالغض أدب شرعي عظيم في مباحة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبراً شديداً عليها.
- ٧- الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار؛ لأن النظر رائد الزنى.
- ٨- جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط؛ فدلّت على أنه إن قدم الاستئذان على السلام، أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه.
- ٩- معنى (أَرْزَكِي لَكُمْ): أنه أفضل، وخير لكم من أن يأذن أهل البيت على كراهية؛ وفي هذا أدب عظيم، وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذى. وتعليم قبول الحق؛ لأنه أطمّن لنفس قابله من تلقي ما لا يدرى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصريح بالحق بينهم لزال عنهم ظنون السوء بأنفسهم.

حكمة التشريع:

جعل الله البيوت سكنًا، يفيء إليها الناس فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرمتهم، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذئهم، وفي الوقت الذي يُريدون، وعلى الحالة التي يُحبون أن يلقوا عليها الناس، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الدّاخلين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات، قد تُثير الشهوات، فتنشأ عنها الانحرافات والعُقد النفسية الناتجة عن الكبت، وربما تحولها إلى علاقة آثمة.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجومًا فجًا، فيدخل الزائر البيت وقد يرى صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراها عليها أحد، أو يهجم على الغرف فيرى المرأة عارية أو متخففة من ثيابها، مما يؤذي المشاعر ويهتك الحرمات، ويجرح النفوس، ويحرم البيوت أمنها وسكنتها، كما يعرض النفوس من هنا وهناك للفتنة حين تقع العين على ما تثيره.

من أجل هذا أو ذاك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي "أدب الاستئذان" على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم. (١)

* * *

(١) رواع البيان تفسير آيات الأحكام: (١٣٢/٢) بتصرف.

غض البصر وحفظ الفرج وفرض الحجاب

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ٣٠ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٣١ ﴿ [النور: ٣٠-٣١].

معاني المفردات:

- ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: إلا الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها؛ إذا لم يكن فيها فتنة.
- ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: وليلقين.
- ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: بأغطية رؤوسهن.
- ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: على فتحات صدورهن، فيغطين وجوههن.
- ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: لأزواجهن.
- ﴿نِسَائِهِنَّ﴾: المسلمات، وقيل: المختصات بمن بالصحة والخدمة.
- ﴿أُولِي الْإِرْبَةِ﴾: الذين لا غرض لهم في النساء؛ كالبهائم لا يدركون شيئاً من أمرهن.
- ﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: لا علم لهم بأموال العورات، وليس فيهم شهوة.
- ﴿مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾: كالخلاخل التي تلبس في الأرجل.

سبب النزول:

عن علي عليه السلام أن رجلا مرّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أمري، فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هَذَا عُقُوبَةُ ذَنْبِكَ»، وأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ الآية (١).

وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت برتين من فضة، واتخذت جزعا (سلسلة خرز) فمرت على قوم، فضربت برجلها، فوقع الخلخال على الجزع، فصوت، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية (٢).

المناسبة:

الآية واضحة الاتصال بما قبلها، فإن الدخول إلى البيوت مظنة الاطلاع على العورات، لذا أمر المؤمنون والمؤمنات بغض البصر بصورة حكم عام يشمل المستأذن للدخول إلى البيوت وغيره، فيجب على المستأذن التحلي به عند الاستئذان والدخول؛ منعا من انتهاك الحرمات المنهي عنها.

الإعراب والبلاغة:

١- ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: يعضوا فعل مضارع مجزوم؛ جواب الأمر المحذوف وهو عضوا. ومن أبصارهم (من) للتبعيض، والمراد غصّ البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحلّ... فإن قلت: كيف دخلت في غصّ البصر دون حفظ الفروج؟ قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ، وصدورهنّ، وتديهنّ، وأعضادهنّ، وأسوقهنّ، وأقدامهنّ. وكذلك الجوارى المستعرضات، والأجنبية يُنظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق،

(١) السيوطي، الدر المنثور: (١٧٦/٦)، وعزاه لابن مردويه.

(٢) الطبري، جامع البيان: (١٦٤/١٩).

- وكفاك فرقا أن أبيع النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه".^(١)
- ٢- قوله تعالى: ﴿يَعُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، فيه إيجاز بالحذف، أي عما حرم الله، لا عن كل شيء.
- ٣- تقديم غض الابصار على حفظ الفروج في الآيتين لأن النظر بريد الزنا ورائده.
- ٤- "﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أي أطهر من دنس الريبة، أو أنفع من حيث الدين والدنيا، فإن النظر بريد الزنا، وفيه من المضار الدينية أو الدنيوية ما لا يخفى، وأفعال للمبالغة لا للتفضيل. ويجوز أن تكون للتفضيل على معنى أزكى من كل شيء نافع أو مُبعد عن الريبة، وقيل على معنى أنه أنفع من الزنا والنظر الحرام، فإنهم يتوهمون لذة ذلك نفعاً"^(٢).
- ٥- "قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ في لفظ الضرب (مبالغة) في الصيانة والتستر، وقد عدي اللفظ ب (على) لأنه ضَمَّن معنى الإلقاء ويكون المراد أن تسدل وتلقي بالخمار على صدرها؛ لثلا يبدو شيء من النحر والصدر".^(٣)
- ٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: (الواو) حرف عطف، و(يُبدِينَ) عطف على (يغضضن)، فهو مبني على الشُكون؛ لاتصاله بنون النسوة في محل جزم، و(النون) فاعل، و(زينتهن) مفعول به المراد مواقع الزينة، من إطلاق الحال وإرادة المحل، مبالغة في الأمر بالتستر والتصون، وذكر الزينة دون مواقعها؛ للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر، قَالَ الرَّحْشَرِيُّ: "لأنَّ هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي: الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والرأس، والصدر، والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها. ليعلم أنَّ النظر إذا لم يحل إليها لملاستها تلك المواقع - بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا خلاف في حله - كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكِّنا في الحظر، ثابت

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٢٩/٣).

(٢) الألويسي، روح المعاني: (٣٣٤/٩) بتصرف.

(٣) الصابوني، محمد علي، روائع البيان تفسير آيات الأحكام: (١٥٠/٢).

القدم في الحرمة، شاهدًا على أن النساء حُفَّهن أن يحتطن في سترها، ويتقن الله في الكشف عنها. (١)

٧- قال الزمخشري: وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع، ونحوه ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج:٥] (٢).

٨- "﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾: تلويحٌ للخطاب، وصرفٌ له عن رسول الله ﷺ إلى الكلّ بطريق التغليب، لإبراز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة، وأنها من معظمت المهمات الحقيقية، بأن يكون سبحانه وتعالى الأمر بها، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفریط في إقامة مواجب التكليف، كما ينبغي لا سيّما في الكفِّ عن الشهوات" (٣).

٩- "وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجاب، وإيدان بأن وصف الإيمان موجبٌ للامتثال حتمًا، وفيه دليل على أن المعاصي لا تُخرج عن الإيمان" (٤).

التفسير:

قل - أيها النبي - للمؤمنين يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْعَوْرَاتِ، ويحفظوا فروجهم عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الزَّانِي وَاللَّوَاطِ، وكشف العورات، ونحو ذلك، ذلك أظهر لهم، إن الله خير بما يصنعون فيما يأمرهم به وينهاهم عنه.

وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ مِنَ الْعَوْرَاتِ، ويحفظن فروجهن عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، ولا يُظْهِرنَ زِينَتَهُنَّ لِلرِّجَالِ، بل يجتهدن في إخفائها إلا الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها، إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، وليلقين بأغطية رؤوسهن على فتحات أعلى ثيابهن من جهة صدورهن مغطيات وجوههن؛ ليكمل سترهن، ولا يُظْهِرنَ الزينة الخفية إلا لأزواجهن؛ إذ يرون منهن ما لا يرى غيرهن. وبعضها، كالوجه، والعنق، واليدين، والساعدين يُباح رؤيتهن لآبائهن، أو آباء

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٣/٢٣٠).

(٢) المرجع السابق: (٣/٢٣٢).

(٣) الألويسي، روح المعاني: (٩/٣٤١).

(٤) المرجع السابق: (٩/٣٤١).

أزواجهن، أو أبنائهن، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو أبناء إخوانهن، أو أبناء أخواتهن، أو نسائهن المسلمات دون الكافرات، أو ما ملكت من العبيد، أو التابعين من الرجال الذين لا غرض ولا حاجة لهم في النساء، مثل البهائم الذين يتبعون غيرهم للطعام والشراب فحسب، أو الأطفال الصغار الذين ليس لهم إدراكٌ لأمر عورات النساء، ولم توجد فيهم الشهوة بعد، ولا يضرب النساء عند سيرهن بأرجلهن ليُسْمِعْنَ صوت ما خفي من زينتهن كالخلخال ونحوه، وارجعوا - أيها المؤمنون - إلى طاعة الله فيما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الحميدة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة؛ رجاء أن تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

الهدايات المستنبطة:

١. وجوب غضِّ البصر من الرجال والنساء عمَّا لا يحل من جميع المحرّمات، وكلِّ ما تُخشى الفتنة من أجله؛ لأن البصر مفتاح الوقوع في المنكرات، وشغل القلب بالهواجس، وتحريك النفس بالوساوس، وبريد السقوط في الفتنة أو الزنى، ومنشأ الفساد والفجور.
٢. وجوب ستر الفروج عن أن يراها من لا يحل، وحفظها من التلوث بالفاحشة كالزنى واللواط، واللمس والمفاخدة والسحاق.
٣. إن غض البصر وحفظ الفرج أطهر في الدين، وأبعد من دنس الذنوب، والله مطلع عالم بأفعال العباد، ونيات القلوب، وهمسات الألسن، واستراق السمع والبصر، وبكلِّ شيء، لا تخفى عليه خافية، ويجازي على ذلك كله.
٤. يُستنبط من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ قاعدة سدِّ الذرائع، فإذا كان المباح يُفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه؛ فإنه يُمنع منه.
٥. أمر الله المؤمنين بالتوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي: ترك غضِّ البصر، وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقلٌّ ومستكثر.

زواج الأحرار ومكاتبة الأرقاء والإكراه على الزنى

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلَيْهِمْ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَتَّعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَعَاثُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٢-٣٤].

معاني المفردات:

- ﴿وَأَنْكِحُوا﴾: زوّجوا.
- ﴿الْأَيْمَى﴾: من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة، بكرًا أو ثيبًا.
- ﴿عِبَادِكُمْ﴾: عبيدكم.
- ﴿وَأِمَائِكُمْ﴾: جواريتكم.
- ﴿يَبْتِغُونَ﴾: يطلبون.
- ﴿الْكِتَابَ﴾: المكاتبة، بأن يشتروا أنفسهم من أسيادهم بمال مُقسَّط يؤدونه إليهم.
- ﴿حَيْرًا﴾: رُشدًا وقُدرة على الكسب.
- ﴿فَتِيَاتِكُمْ﴾: جواريتكم.
- ﴿الْبِغَاءِ﴾: الزّنى.
- ﴿تَحَصُّنًا﴾: تعففًا.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ﴾: أخرج ابن السكّن أنها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزّي يقال له: صبيح، سأله مولاة (عبده) أن يُكَاتِبَهُ، فأبى عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣]: روى مسلم بسنده عن جابر: "أن جارية لعبدالله بن أبي ابن سلول يُقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾^(٢).

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى عما لا يحل مما يُفْضِي إلى السِّفَاح أو الزنى المؤدي إلى اختلاط الأنساب كغض البصر وحفظ الفروج، أعقبه بيان طريق الحل وهو الزواج الحافظ للأنساب، وبقاء النوع الإنساني، وترابط الأسرة، ودوام الألفة، وحسن تربية الأولاد.

الإعراب والبلاغة:

١. ﴿وَأَنْكِحُوا﴾: فعل أمر، والخطاب لأولي الأمر وللأولياء والسادة من المسلمين.
٢. ﴿وَلَيْسَتَّعْفِ﴾: اللام لام الأمر، والفعل المضارع مجزومٌ بلام الأمر. والسِّين والتاء للطلب والمبالغة، أي وليبالغ في طلب الحلال وليجاهد نفسه في سبيل ذلك، سالماً سُبُل العفاف، من صيام النافلة إلى الذكر وتلاوة القرآن والانشغال بسائر الأعمال الصالحة، سائلاً رَبَّهُ العون عليه.
٣. تذييل الآية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: لتقرير معناها وترسيخ حكمها، ففضل الله تعالى واسع، وعلمه تعالى لا ينتهي له، وعطاؤه تعالى عن سعة وعلم.

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص ٣٢٥).

(٢) مسلم، الصحيح: كتاب التفسير، باب: في قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) [النور: ٣٣]: (٤/٢٣٢٠)، (ح ٢٧) - (ح ٣٠٢٩).

٤. قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا تَحْصُنَا﴾: قال أبو السعود: "ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهنَّ التَّعَفُّفَ عن الزِّنا وإخراج ما عداها من حُكمه، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنَّ الزِّنا لخصوص، أو لخصوص الزَّمان، أو لخصوص المكان، أو لغير ذلك من الأمور المُصَحِّحة للإكراه في الجملة، بل للمحافظة على عادتهنَّ المستمرة حيث كائنوا يكرهونهنَّ على البغاء وهنَّ يُردن التَّعَفُّفَ عنه مع وفور شهوتهنَّ الآمرة بالفُجور، وقصورهنَّ في معرفة الأمور الدَّاعية إلى المحاسن الزَّاجرة عن تَعَاطِي القبايح، فإنَّ عبد الله بنَ أُبيِّ كانت له ستُّ جوارٍ يُكرهنَّ على الزِّنا، وضربَ عليهنَّ ضرباً؛ فشكَّت اثنتانٍ منهنَّ إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية، وفيه من زيادة تقيح حالهم وتشنيعهم على ما كائنوا عليه من القبايح ما لا يخفى؛ فإنَّ مَنْ له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرُّمه من إماءه، فضلاً عن أمرهن به، أو إكراهن عليه، لا سيَّما مع إرادتهنَّ التَّعَفُّفَ". (١).

٥. ﴿ومن يكرهن﴾: التعبير بالمضارع إعلماً بأن يقبل التوبة ممن خالف بعد نزول الآية. (٢)

٦. "وإنما قيل ﴿للمتقين﴾ مع شمول الموعظة لكلِّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿أنزلنا إليك﴾؛ حثاً للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام في سلك المتقين بيان أنَّهم المغتصمون لآثارها المُقتبسون من أنوارها فحسب" (٣).

التفسير:

وزوجوا - أيها المؤمنون - مَنْ لا زوج له من الأحرار والحرائر والصالحين من عبيدكم وجواريتكم، إن يكن الراغب في الزواج للعفة فقيراً يُغنيه الله من واسع رزقه. والله واسع كثير الخير عظيم الفضل، عليهم بأحوال عباده، والذين لا يستطيعون الزواج لفقرهم أو غيره فليطلبوا العفة عمَّا حرَّم الله حتى يغنيهم الله من فضله، ويُيسر لهم الزواج. والذين يُريدون أن يتحرروا من العبيد والإماء بمكاتبة أسيادهم

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١٧٣/٦) بتصرف يسير.

(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٢٧٠/١٣).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: (١٧٥/٦).

على بعض المال يُؤدونه إليهم، فعلى مالكيهم أن يُكاتبوهم على ذلك إن علموا فيهم خيراً: من رشد، وقدرةً على الكسب، وصلاحٍ في الدين، وعليهم أن يعطوهم شيئاً من المال أو أن يحطوا عنهم مما كُتبتوا عليه. ولا يجوز لكم إكراه جواريتكم على الزنى طلباً للمال، وكيف يقع منكم ذلك وهن يُردن العفة وأنتم تأبونها؟ وفي هذا غاية التشنيع لفعالهم القبيح. ومن يكرههنَّ على الزنى فإن الله تعالى من بعد إكراههن غفور لهن رحيم بهن، والإثم على من أكرههن، ولقد أنزلنا إليكم - أيها الناس - آيات القرآن دلالات واضحات على الحق، ومثلاً من أخبار الأمم السابقة المؤمنين منهم والكافرين، وما جرى لهم وعليهم ما يكون مثلاً وعبرةً لكم، وموعظةً يتعظُّ بها من يتقي الله ويحذر عذابه.

الهدايات المستنبطة:

١. إضافة المال إلى الله؛ لأنه مُبَيَّنَّ أسباب تحصيله، وفيه إيماءٌ إلى أن الإعطاء من ذلك المال شكر، والإمساك جحد للنعمة؛ قد يتعرض به الممسك لتسلب النعمة عنه.
٢. انتداب المسلمين حاكمين ومحكومين للمساعدة على تزويج الأيامي من المسلمين أحراراً وعبيداً.
٣. وجوب الاستعفاف على من لم يجد نكاحاً، والصبر حتى يُيسر الله أمره.
٤. حرمة الزنا بالإكراه أو بالاختيار، ومنع ذلك بإقامة الحدود.
٥. حرِّم الإسلام الزنا، وأغلق كلَّ الطرق المُفضية إليه، ورغَّب في الزواج، وأمر بتيسير أسبابه، وإعانة قاصديه.
٦. رحمة الإسلام بالضعفاء من النساء والأرقاء.

* * *

الله منور السماوات والأرض بدلائل الإيمان وغيرها

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورُهُ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

معاني المفردات:

﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: هو نور، وكتابه نور، وبه استنارت السماوات والأرض، يُدِير الأمر فيهما، ويهدي أهلها.

﴿كَمِشْكَاةٍ﴾: الكؤوة في الحائط غير النافذة.

﴿دُرِّيٌّ﴾: مُضيء.

المناسبة:

بعد بيان الشرائع والأحكام الجزئية العملية (علم الفقه)، والأخلاق والآداب (علم الأخلاق)، انتقل البيان الرباني إلى دائرة العقيدة والإيمان وهي (علم التوحيد).

الإعراب والبلاغة:

١. تشبيه المفرد بالمركب قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥] فشبهه النور المفرد بالمشكاة المركبة من هذه الأجزاء والأوصاف^(١).

(١) يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: (١٨٥/٣). المكتبة العصرية - بيروت. ط. أولى (١٤٢٣هـ). والترديد من ألوان البديع: أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم منه. ابن رشيق أبو

٢. الطباق: في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾^(١).
٣. التوكير: في تنكير قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ ضربٌ من الفخامة والمبالغة لا أبلغ ولا أجمل منه، فليس هو نورًا واحدًا معيّنًا أو غير مُعيّن فوق نور آخر مثله، وليس هو مجموع نورين اثنين فقط، بل هو عبارة عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين^(٢).
٤. تشابه الأطراف: وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظية وقعت في آخر جملة من الفقرة في النثر، أو آخر لفظة وقعت في آخر المصراع الأول في النظم فيبتدىء بها... تأمل في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، ومن أمثلة الشعر في قول ليلي الأخيلية في الحجاج بن يوسف:
- | | |
|--------------------------------|--|
| إذا هبّط الحجاج أرضاً مريضة | تبع أقصى دائها فشاها |
| شفاها من الداء العضال الذي بها | غلام إذا هزّ القناة سقاها |
| سقاها فرواها بشرب سجائه | دماء رجال حيث قال حشاها ^(٣) |
٥. جاء في هذه الآية تكرير "المصباح" مرتين، وتكرير "الزجاج" مرتين إلا أن المكرر متعلق في الذكر الثاني بغير ما تعلق به في الذكر الأول، فهو ممّا يسمّى "ترديدًا" ولا يخفى ما في هذا التردد في الآية من جمالٍ بديع^(٤).
٦. "الأصل في التشبيه أن وجه الشبه في المشبّه به أقوى وأبرز، وقد يكون الوجه أقوى وأكمل في

على الحسن القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، ط. ٥، (١٤٠١هـ)، (٣٣٣/١).

(١) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: (٦١٠/٦).

(٢) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: (٦١١/٦).

(٣) إعراب القرآن وبيانه: (٦١١/٦). ويُراجع لشهاب الدين النويري (ت: ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ط. أولى (١٤٢٣هـ): (١٨١/٧).

(٤) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني دمشقي (ت: ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية (٧٢/٢) ط. دار القلم، دمشق، ط. ١ (١٤١٦هـ).

المشبه، ومن لطائف البيان أن أبا تمام أراد مدح أحمد ابن الخليفة المعتصم فقال في حقه:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فأنكر بعض المتملقين على أبي تمام أن الأمير أكبر من أن يُشبه في ذلك، فقال مرتجلاً:

لا تنكروا ضربي له من دونه... مثلاً شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره... مثلاً من المشكاة والنبراس

فاتحج بالآية الكريمة التي قال الله فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فالأصل أن يكون نور الله أقوى من كل نور، لكنه شبه الأقل بنوره من المشكاة

والنبراس من باب التوضيح والبيان.

٧. كمال الاتصال: مجيء أغلب الجمل في الآية بغير عطف، مع شدة ترابطها وتعانقها واتحادها

وهذا من بلاغة القرآن، "فانظر إلى تعديد هذه الجمل ومحبيتها من غير حرف عطف، كيف

أفادت المبالغة في حال المؤصوف، وأشادت من قدره ورفعت من حاله، وأبانت المقصود على

أحسن هيئة"^(١).

التفسير:

الله نور السماوات والأرض يُدبّر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فهو - سبحانه - نور، وحجابه

نور، به استنارت السماوات والأرض وما فيهما، وكتاب الله وهدايته نور منه سبحانه، فلولا نوره تعالى

لتراكت الظلمات بعضها فوق بعض. مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان والقرآن في قلب

المؤمن كمشكاة، وهي الكؤة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكؤة نور المصباح فلا

يتفرق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنها - لصفائها - كوكب مُضيء كالدر، يوقد المصباح من زيت

شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط

فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب،

(١) المؤيد بالله، يحيى بن حمزة (ت: ٧٤٥هـ)، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: (٦٧/٣).

يكاد زيتها -لصفائه - يُضيء من نفسه قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهدى يُضيء في قلب المؤمن. والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء، ويضرب الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه. والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الهدايات المستنبطة:

١. أن الله ﷻ بذاته وصفاته نور، وآياته نور، وهو مُنَوَّرُ السماوات والأرض، وخالق النور فيهما.
٢. قوة نور الهداية في قلب المؤمن كامل الإيمان، ونفوذ بصيرته، ووضوح الطريق أمامه؛ لأنه يسير على نور من الله ﷻ.
٣. ضرب الأمثال للناس بتشبيه الأمر المعنوي بأمر حسي؛ تقريباً للأذهان، وزيادة في الإيضاح والبيان؛ لإقامة الحجة على الأنام.
٤. تأمل قوله تعالى: ﴿الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ تجد أن الله شبه الرجاجة بالكوكب ولم يشبها بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يخلقها الخسوف.

* * *

المؤمنون المهتدون بنور الله تعالى

﴿ فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَجَمُّدٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۗ وَالْأَبْصَارُ ۗ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۗ ﴿٣٨﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

معاني المفردات:

- ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾: هذا النور في مساجد.
- ﴿ تُرْفَعُ ﴾: تُعْظَمُ بالتعمير، والتطهير.
- ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾: أول النهار، وآخره.
- ﴿ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ﴾: أي: بين الرجاء، والخوف.
- ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: بلا عدِّ، ويُعطي من الأجر ما لا يبلغه عمل العامل.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى كون نوره سبيلا لهداية عباده، بما أقام لهم من الآيات البينات، ذكر هنا حال المنتفعين بذلك النور.

الإعراب والبلاغة:

- ١- "فِي بُيُوتٍ" يتعلق بما قبله، أي، كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد، كأنه قيل: مثل نوره كما يُرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت. أو بما بعده، وهو يسبح، أي: يسبح له رجال في بيوت. وفيها تكرير، كقولك: زيد في الدار جالس فيها. أو محذوف، كقوله فِي تِسْعِ آيَاتٍ أي سبحوا في بيوت".^(١)

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٤٢/٣).

٢- ﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَيْعٌ وَلَا بَيْعٌ﴾: قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ولا نوع من أنواع البيع، ونفى التجارة أولاً ثم نفى البيع، كما نقول فلان لا يغيره ألف ولا عشرة آلاف، أو فلان لا يغيره الفضة ولا الذهب، فالبيع ثمرة التجارة وفائدته، التاجر يقف في السوق أو في دكانه بالساعات بينما يُنهي صفقة البيع في لحظات، فالبيع هو الغرض من التجارة وهو الأحب إلى القلب، وهو ما يترقبه التاجر، وهؤلاء الرجال الذين امتدحهم الله تعالى لا تلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن ذكر الله وإقام الصلاة... ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة ٩]. فقال: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، ولم يقل: "وذروا التجارة"؛ لأن البيع أحب إلى النفس، فهي عليه أحرص، فترك ما سواه مما لم يبلغ أهميته من باب أولى.

٣- التعبير بالفعل المضارع ﴿يَخَافُونَ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فهكذا حالهم دائماً.

٤- جناس الاشتقاق: ﴿نُقَلِّبُ فِيهِ الْقُلُوبَ﴾.

٥- العدول عن الضمير للاسم الظاهر: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لتجري مجرى المثل والاقْتباس، وزيادة في المهابة والتعظيم. وفيه إشارة إلى أن الاشتغال بالعبادة لا يمنع رزقا، بل العبادة من أسباب سعة الرزق، ففيه طمأنة لمن اجتهد في عبادة ربه، فهو تعالى الرازق، والمؤمن يوازن بين حق العبادة وواجب السعي لطلب الرزق، فلا يقصّر في أحدهما بل يعطي كلاً حقه. قال الشريبي: " وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة، وتنبية على كمال القدرة ونفوذ المشيئة وسعة الإحسان وكمال جوده... فالله سبحانه وتعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم".^(١)

(١) الشريبي، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٢٦).

التفسير:

هذا النور المضيء في المساجد أمر الله أن يُرْفَع شأنها وبنائها، ويُذكَر فيها اسمه بتلاوة كتابه والتسبيح والتهليل، وغير ذلك من أنواع الذكر، يُصَلِّي فيها لله في الصباح والمساء، رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلى أي مصير تكون؟ ليعطيهم الله ثواب أحسن أعمالهم، ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. والله يرزق من يشاء بغير حساب، بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، وبلا عدِّ ولا كيل.

الهدايات المستنبطة:

١. إن أول موضع تظهر فيه هداية الله ونوره هو المساجد التي يشيد بناءها المؤمنون، ويعمرونها بالصلاة والأذكار في أوائل النهار وأواخره، والمساجد المخصصة لله تعالى بالعبادة تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.
٢. عمارة المساجد تكون بالبناء، وبالصلاة، وتلاوة القرآن، والأذكار، وحلقات التعليم.
٣. يستنبط من قوله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا نُلَيْهِمْ جَنَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾؛ إغلاق المحلات وقت الصلاة؛ تعظيمًا لهذه الشعيرة؛ وحفزًا للجماعة.
٤. وصف الله تعالى المُسَبِّحِينَ في المساجد بأنهم المُرَاقِبُونَ أمر الله، الطَّالِبُونَ رضاه، الذين لا يُشغَلُهُم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا.
٥. يكافئ الله ويجازي على الحسنات ويضاعف الثواب إلى عشر أمثاله.

* * *

حال الكافرين في الدنيا وخسرانهم في الآخرة

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ ۗ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ ۗ سَحَابٌ مُّظْلِمٌ ۗ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ ۗ لَمْ يَكْدِ بِرَبِّهَا ۗ وَمَنْ لَّمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

معاني المفردات:

﴿ كَسَرَابٍ ﴾: هو ما يشاهد كالماء على الأرض المستوية في الظهيرة.

﴿ بِقِيَعَةٍ ﴾: الأرض المنخفضة المستوية، وفيها يكون السراب.

﴿ لُّجِّيٍّ ﴾: عميق كثير الماء.

﴿ يَغْشَاهُ ﴾: يعلوه.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله، وبسببه يتمسكون بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم؛ أتبع ذلك بيان حال الكافرين، فإنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات.

الإعراب والبلاغة:

١. قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ ﴾ تشبيه معنًى بصورة، وهو أبلغ التشبيه؛

لتمثيله المعاني الغائبة في صور المشاهدة، وهو من تشبيه مفرد بمركب، أو تشبيه المعقول بالمحسوس. و"في كيفية هذا التشبيه وجوه؛ أحدها: قال الحسن: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة؛ ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب؛ كذا الكافر له ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، ثانيها: قال ابن عباس: شبه قلبه وسمعه وبصره

بهذه الظلمات الثلاث، ثالثها: أن الكافر لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاثة شبه تلك الظلمات الثلاث، رابعها: قلبٌ مظلمٌ في صدرٍ مظلمٍ في جسدٍ مظلم، خامسها: أن هذه الظلمات متراكمة، فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره، قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه". (١)

٢. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: العدول عن الضمير للاسم الظاهر؛ لتجري مجرى المثل والاقْتباس، وزيادة في المهابة والتعظيم.

التفسير:

والذين كفروا برهم وكذبوا رسله، أعمالهم التي ظنوها نافعة لهم في الآخرة، كصلة الأرحام وفك الأسرى، وغيرها، كسراب، وهو ما يُشاهد كالماء على الأرض المستوية في الظهيرة، يظنه العطشان ماءً، فإذا أتاه لم يجده ماءً. فالكافر يظن أن أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم يجد لها ثواباً، ووجد الله سبحانه وتعالى له بالمرصاد فوقاً جزاء عمله كاملاً. والله سريع الحساب، فلا يستبطن الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بدّ من إتيانه، أو تكون أعمالهم مثل ظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوق الموج موج آخر، ومن فوقه سحاب كثيف، ظلمات شديدة بعضها فوق بعض، إذا أخرج الناظر يده لم يقارب رؤيتها من شدة الظلمات، فالكفار تراكمت عليهم ظلمات الشرك والضلال، وفساد الأعمال. ومن لم يجعل الله له نوراً من كتابه وسنة نبيه يهتدي به فما له من هاد.

الهدايات المستنبطة:

١. القرآن لا يفتح كنوزه لمن تعلق قلبه بشيء من ظلمة الهوى، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾.
٢. استحسان ضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني البعيدة إلى الأذهان.
٣. بيان خسران الكافرين في أعمالهم وحياتهم كلّها.
٤. بيان حال الكافرين في هذه الدنيا، وأنهم يعيشون في ظلمات الجهل والكفر والظلم، كما أنهم يتخبطون في الظلمات يوم القيامة.

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٢٨).

الأدلة الكونية على وجود الله وتوحيده

﴿الْمُرْتَرَّ أَنَّ اللَّهَ لِيَسْجُحَ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ الْمُرْتَرَّ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤١-٤٦].

معاني المفردات:

﴿صَفَقَتِ﴾: باسِطَاتٍ أَجْنَحَتِهِنَّ فِي الْهَوَاءِ.

﴿يُزَيِّجِي﴾: يَسُوقُ، وَمِنْهُ الْبُضَاعَةُ الْمَرْجَاةُ الَّتِي يَدْفَعُهَا كُلٌّ مِنْ يَرَاهَا.

﴿يُؤَلِّفُ﴾: يَجْمَعُ.

﴿رُكَامًا﴾: مَتْرَاكِمًا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ.

﴿الْوَدْقَ﴾: الْمَطْرَ.

﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: مِنْ بَيْنِهِ.

﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾: ضَوْءُ الْبَرْقِ وَمَلْعَتُهُ.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى ما استنارت به قلوب المؤمنين بالهداية، وما أظلمت به قلوب الكافرين بالضلالة، أتبع ذلك ببيان أدلة التوحيد والقدرة.

الإعراب والبلاغة:

- ١- واختلف في عود الضمائر في قوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدِّعِلْمٍ صِلَانُهُ، وَتَسْبِيحُهُ﴾ على قولين، أحدهما: أنها كلها عائدة على كل، أي: كلُّ قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها؛ قال ابن عادل: وهذا أولى لتوافق الضمائر، ثانيهما: أن الضمير في علمٍ عائِدٌ إلى الله تعالى، وفي صلاته وتسبيحه عائِدٌ على كل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والله﴾ أي: المحيط علمًا وقدرة. (١)
- ٢- الجنس التام ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، ﴿لَأُولِي الْأَبْصَرِ﴾ فاللفظ واحد، والمعنى مختلف؛ فالأولى العيون، والثانية البصائر.

- ٣- "فإن قيل: لم نكر الماء في قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾، وعرفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؟ أجيب: بأنه جاء ههنا منكرًا؛ لأن المعنى خلق كل دابة من نوع من الماء مختصًا بتلك الدابة، وعرفه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؛ لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة" (٢).

التفسير:

لم تعلم - أيها الرسول - أن الله يُسَبِّحُ له مَنْ في السماوات والأرض من المخلوقات، والطير صافآت أجنحتها في السماء تُسَبِّحُ ربها؟ كل مخلوق قد أرشده الله كيف يصلي له ويسبحه. وهو

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٣٢)، ويُراجع: لابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: (٤١٠/١٤).

(٢) الشريبي، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٢٨)، ويُراجع للزمخشري، الكشاف: (٣/٢٤٦)، ولابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: (٤٢٤/١٤).

سبحانه عليم، مُطَّلَع على ما يفعله كلّ عابد ومسبِّح، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، والله وحده ملك السماوات والأرض، له السلطان فيهما، وإليه المرجع يوم القيامة، ألم تُشاهد أن الله سبحانه وتعالى يسوق السحاب إلى حيث يشاء، ثم يجمعه بعد تفرُّقه، ثم يجعله متراكماً، فينزل من بينه المطر؟ وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في عظمته بَرْدًا، فيُصيب به مَنْ يشاء من عباده ويصرفه عَمَّن يشاء منهم بحسب حكمته وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب من شدته يذهب بأبصار الناظرين إليه.

ومن دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى أنه يقلب الليل والنهار بمجيء أحدهما بعد الآخر، واختلافهما طولاً وقصرًا، إن في ذلك لَدلالةٌ يعتبر بها كلٌّ من له بصيرة، والله تعالى خلق كلَّ ما يدب على الأرض من ماء، فالماء أصلُ خلقه، فمن هذه الدواب: مَنْ يمشي زحفاً على بطنه كالحَيَّات ونحوها، ومنهم مَنْ يمشي على رجلين كالإنسان، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم ونحوها. والله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء، وهو قادر على كلِّ شيء، لقد أنزلنا في القرآن علامات واضحات مرشديات إلى الحق. والله يهدي ويوفق مَنْ يشاء من عباده إلى الطريق المستقيم، وهو الإسلام.

الهدايات المستنبطة:

١. من مظاهر لطف الله بعباده صرف البرد عن الزرع والماشية وبعض عباده.
٢. امتنان الله تعالى على العباد بإنزاله الآيات المبينات للهدى، وطريق السعادة والكمال.
٣. ينبغي على العبد البصير النظر إلى المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر؛ لما أريد بها ومنها.
٤. فائدة قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾؛ تنبيه العقول إلى التدبر في هذه التغيرات؛ إذ كان شعور الناس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكون السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد.

البقاء على الضلال والنفاق بالرغم من البيان الشافي

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ۗ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٤٧-٥١].

معاني المفردات:

﴿مُذْعِنِينَ﴾: طائعين منقادين.

﴿مَرَضٌ﴾: نفاق.

﴿ارْتَابُوا﴾: شكوا في النبوة.

﴿يَحْيِفٌ﴾: يجور.

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قال المفسرون: هذه الآيات نزلت في (بشر) المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمدا يحيف علينا^(١).

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد، ذم الله تعالى قوماً وهم المنافقون اعترفوا بالدين بألسنتهم، ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم.

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص ٣٢٧).

الإعراب والبلاغة:

- ١- مجيء المضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لإفادة تجدد ذلك منهم، واستمرارهم عليه؛ لما فيه من تكرار الكذب ونحوه من خصال النفاق، أو لاستحضار تلك الصورة في الأذهان تشنيعاً واستهجاناً.
- ٢- حُسن التقسيم: في قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لأن توليهم عن حكم الله ورسوله إما لمرض في قلوبهم كالنفاق، أو لريبة، أي: شك وتردد يتوجسون منه، أو خوف من حكم الله ورسوله أن لا يكون في صالحهم، فلا يخرج إعراضهم عن حكم الله عن هذه الثلاث، وهم في كلِّ الأحوال ظلمة، لذا ختم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.
- ٣- القصر: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، بتعريف طرفي الجملة وضمير الفصل لتأكيد القصر والمبالغة في بيان ظلمهم، وتأکید الجملة بمجيئها اسمية، وفيه أيضاً مراعاة الفاصلة، كما أفاد اسم الإشارة للبعيد بيان إيغالهم في الظلم.

التفسير:

ويقول المنافقون: صدقنا بالله وبما جاء به الرسول، وأطعنا أمرهما، ثم تُعرض طوائف منهم من بعد ذلك فلا تقبل حكم الرسول، وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دُعوا في خصوماتهم إلى ما في كتاب الله وإلى رسوله؛ ليحكم بينهم، إذا فريق منهم معرض لا يقبلُ حُكْمَ الله وحكم رسوله، مع أنه الحق الذي لا شك فيه.

وإن يكن الحق في جانبهم فإنهم يأتون إلى النبي عليه الصلاة والسلام طائعين منقادين لحكمه؛ لعلمهم أنه يقضي بالحق، أسبب الإعراض ما في قلوبهم من مرض النفاق، أم شكوا في نبوة محمد ﷺ، أم السبب خوفهم أن يكون حكم الله ورسوله جائراً؟ كلاً إنهم لا يخافون جوراً، بل السبب أنهم هم الظالمون، الذين لا يريدون للعدالة أن تكون.

الهدايات المستنبطة:

- ١- قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إيماءً إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد.
- ٢- من دُعي إلى الكتاب والسنة فأعرض فهو منافق معلوم النفاق.
- ٣- فضل طاعة الله ورسوله وتقوى الله عز وجل، وأن أهلها هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنان.
- ٤- تفنيد القرآن الكريم لشبه المنافقين، ودخضه لأباطيلهم.

* * *

الطاعة والامتثال عند المؤمنين

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلُوبَهُمْ لَنْ نُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور: ٥١-٥٤].

معاني المفردات:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: مجتهدين في الحلف والأيمان.

﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾: طاعتكم معروفة بأنها باللسان فقط.

﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾: على الرسول فعل ما أمر به من تبليغ الرسالة.

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾: عليكم فعل ما كلفتم به من الامتثال.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله ﷻ قول المنافقين وفعالهم، وبقاءهم على النفاق، ونفي الإيمان الحق؛ ذكر الله تعالى ما هو شأن أهل الإيمان في الطاعة والامتثال، وصفات المؤمن الكامل، وما يجب أن يسلكه المؤمنون.

الإعراب والبلاغة:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، (قول): خبرٌ مُّقدَّم، وجملة ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ مُؤَوَّلَةٌ

بمصدر خبر، قال الزمخشري: "والنصب أقوى؛ لأنَّ أولى الاسمين بكونه اسمًا لكان أوغلهما في

- التعريف، و﴿أَنْ يَقُولُوا﴾: أوغل، لأنه لا سبيل عليه للتنكير، بخلاف قول المؤمنين".^(١)
- ٢- القصر ب (إنما)؛ الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكره.
- ٣- قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: تعريف طرفي الجملة لإفادة القصر فأولئك هم المفلحون لا غيرهم، واسم الإشارة للبعيد لبيان بعد منزلتهم، و(هُم) لتوكيد القصر والاختصاص. والاسميّة للتوكيد والثبات.
- ٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: تذييل لتقرير المعنى، وفيه تسليّة وتثبيت للمؤمنين، وتهديد ووعيد للمنافقين الناكثين. قال الزمخشري: "يعلم ما في ضمائرهم ولا يخفى عليه شيء من سررائرهم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم"^(٢).
- ٥- الالتفات من الغيبة للخطاب: في ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ مبالغة في تبييتهم، وتقريعهم.
- ٦- المُشاكلة: ﴿عَلَيْهِ مَا حَمَلْ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ فاللفظ واحد والمعنى مختلف، أي عليه أمر التبليغ وعليكم وزر التولي والإعراض.

التفسير:

دأب المؤمنون حقًا إذا دعوا إلى التحاكم في خصوماتهم إلى كتاب الله وحكم رسوله، أن يقبلوا الحكم، ويقولوا: سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا من دعانا إلى ذلك، وأولئك هم المفلحون الفائزون بمطلوبهم في جنات النعيم، ومن يطع الله ورسوله في الأمر والنهي، ويحفظ عواقب العصيان، ويحذر عذاب الله، فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم في الجنة، وأقسَم المنافقون بالله تعالى غاية اجتهادهم في الأيمان المغلظة: لعن أمرتنا - أيها الرسول - بالخروج للجهاد معك لنخرجن، قل لهم: لا تحلفوا كذبًا، فطاعتكم معروفة بأنها باللسان فحسب، إن الله خبير بما تعملونه، وسيجازيكم عليه، قل - أيها الرسول - للناس: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تُعرضوا فإنما على الرسول فِعْلُ ما أمر به من تبليغ الرسالة، وعلى

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٤٩/٣).

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٢٥٠/٣).

الجميع فِعْلٌ ما كُفِّوه من الامتثال، وإن تطيعوه ترشدوا إلى الحق، وليس على الرسول إلا أن يبلغ رسالة ربه بلاغًا بَيِّنًا.

الهدايات المستنبطة:

١. الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وفي تقرير طاعة الرسول ﷺ بيانٌ وتأكيْدٌ لحجية السُّنة النبوية.

٢. طاعة الرسول ﷺ من أسباب الهداية.

٣. قال بعض السُّلف: من أَمَرَ السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالحكمة، ومن أَمَرَ الهوى على

نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالبدعة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

٤. بيان مهمة الرسول ﷺ وهي البلاغ الواضح، فعلى المؤمنين أن يتبعوه فيما بَلَّغ.

٥. دأب المنافقين كثرة الأيْمَانِ والمبالغة فيها مع كذبهم ونكوتهم.

* * *

التمكين لأهل الإيمان

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور: ٥٥ - ٥٧].

معاني المفردات:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: الاستخلاف: جعلهم خلفاء.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾: بنصرهم وظفرهم، فالتمكين للمؤمنين تمكين للدين.

﴿مُعْجِزِينَ﴾: فائتين من العذاب، ناجين من العقاب.

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه، والطبراني عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبني آمين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ الآية ^(١).

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: تفسير سورة النور: (ح ٣٥١٢)، قال الحاكم: هذا (حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وقال الذهبي: (صحيح)، تلخيص الذهبي: (ح ٣٥١٢).

المناسبة:

بعد الكلام عن الطاعة وثمرتها، وعد الله سبحانه بتمكين المؤمنين الطائعين واستخلافهم في الأرض، وتأبيدهم بالنصر والإعزاز، وإظهار دينهم على الدين كله، وتبديلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا، فيعبدون الله آمنين لا يُشركون به شيئاً ولا يخافون. ثم أمرهم بالصلاة والزكاة شكراً لتلك النعم، وطمأنهم بتحقيق الوعد السابق بإهلاك الكافرين وزججهم في نار جهنم.

الإعراب والقراءات والبلاغة:

١. إعراب: "﴿يَعْبُدُونِي﴾" الجملة في موضع نصب على الحال من ﴿الَّذِينَ﴾، وصيغة المضارع دالة على الاستمرار التجديدي، أو حال من الضمير العائد عليه في ﴿لَيْسَتْخَلْفَنَّهُمْ﴾، أو في ﴿وَلْيَبْدِلْهُمْ﴾، أي حالة كونهم يعبدونني، فالتمكين مشروط بعبادة الله تعالى وحده، والاستخلاف والأمن مرهون بعبادة الله وحده، فبالعبادة يتحقق ذلك كله. "وجوز أن تكون مستأنفة: إما مجرد الثناء على أولئك المؤمنين على معنى هم يعبدونني، وإما لبيان علة الاستخلاف، وما انتظم معه في سلك الوعد، وقوله تعالى: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِشَيْئاً﴾ حال من الواو في ﴿يَعْبُدُونِي﴾، أو من ﴿الَّذِينَ﴾، أو بدل من الحال أو استئناف" (١).

٢. القراءات: قوله جلّ وعزّ: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾: قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ﴾ بضم التاء وكسر اللام. وقرأ الباقون ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ﴾ بفتح التاء واللام. قال أبو منصور: "معنى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾: كَمَا اسْتُخْلِفَ اللهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَمَنْ قَرَأَ ﴿كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين: في موضع الرفع لأنه مفعول لم يُسم فاعله" (٢).

- في قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: القراءة بالتاء على معنى: لا تحسبن يا محمد الكافرين مُعْجِزِينَ، أي قدرة الله محيطة بهم، وقرئت: ﴿لَا يُحْسَبَنَّ﴾ على حذف المفعول

(١) الألوسي، روح المعاني: (٣٩٤/٩) بتصرف يسير.

(٢) الأزهري، معاني القراءات: (٢١١/٢).

الأول مِنْ "يَحْسَبَنَّ" على معنى: لا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا إياهم معجزين في الأرض، كما تَقُولُ: زَيْدٌ حَسِبُهُ - فإنما تريد حَسِبَ نَفْسَهُ - قَائِمًا^(١).

٣. **المقابلة:** بين بشارة المؤمنين بالتمكين، وتخويف الكفار وإنذارهم بالقهر والغلبة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾. قال الألوسي: "بيان لمآل الكفرة في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيهم في الفسق وفوز المؤمنين بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين، وفي ذلك أيضًا رفع استبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد الكفرة وعددهم"^(٢).

٤. **التذييل:** جملة ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾: تقرير لما قبلها وذم وتنفيذ من عاقبة أمرهم.

التفسير:

وعد الله بالنصر الذين آمنوا منكم وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يُورثهم الأرض، ويجعلهم خلفاء فيها، مثلما فعل مع أسلافهم من المؤمنين بالله ورسوله، وأن يجعل دينهم الذي ارتضاه لهم - وهو الإسلام - دينًا عزيزًا مكينًا، وأن يُبدل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته، ولم يُشركوا معه شيئًا، ومن كفر بعد ذلك الاستخلاف، والأمن، والتمكين، والسلطنة التامة، وجحد نعم الله، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله، وأقيموا الصلاة تامة، وآتوا الزكاة لمستحقيها، وأطيعوا الرسول ﷺ؛ رجاء أن يرحمكم الله، لا تظنن الذين كفروا معجزين الله في الأرض، بل هو قادر على إهلاكهم، ومرجعهم في الآخرة إلى النار، وقبح هذا المرجع والمصير، وهو توجيه عام للأمم، وإن كان الخطاب فيه للرسول ﷺ.

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: (٥٢/٤)، قرأ ابن عامر وحمزة (وَلَا يَحْسَبَنَّ) بالياء، وقرأ حفصٌ بالتاء، الأزهرى، معاني القراءات: (٤٤١/١).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٣٩٨/٩) بتصرف.

الهدايات المستنبطة:

١. قدم ﷺ على وعدهم بالأمن وعدهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم؛ تنبيهاً لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأْس غيرها؛ حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها.
٢. في قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْخَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، كانوا بمحل الرضى من الله تعالى؛ لأنه استخلفهم استخلاقاً كاملاً كما استخلف الذين من قبلهم، وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب، وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.
٣. إثبات صفة الكلام لله عزّ وجلّ وأنه متكلم؛ لأن الوعد نوع من أنواع الكلام.
٤. إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة أوامر الرسول ﷺ، واجتناب نواهيه؛ سبب للرحمة الشاملة من الله تعالى.

* * *

أدب الاستئذان داخل البيوت

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٥٨-٦٠].

معاني المفردات:

﴿لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾: أي: دون سن الاحتلام، والبلوغ.

﴿جُنَاحٌ﴾: حرج.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾: العجائز من النساء اللاتي قعدن عن الحيض، والولد، والاستمتاع؛ لكبرهن.

﴿مُتَبَرِّجَاتٍ﴾: مُظَهَّرَاتٍ لِلزينة الخفية.

سبب النزول:

قال ابن عباس: وجّه رسول الله ﷺ غلامًا من الأنصار يقال له: مُدْلِجُ بْنُ عَمْرٍو إلى عمر بن الخطاب ؓ وقت الظهر ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت أبي مرثد كان لها غلامٌ كبير،

فدخل عليها في وقتٍ كَرِهَتْهُ، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغللمانا يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية (١).

المناسبة:

بيان تنمة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات، والترغيب، والترهيب، والوعد، والوعيد.

الإعراب والقراءات والبلاغة:

١. **القراءات:** قرأ أبو بكر عن عاصم، وحمة، والكسائي (ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ) نصبًا. وقرأ الباقون (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) بالرفع. قال أبو منصور: من نصب (ثلاث عورات) فهو يتبع الصفة. المعنى: ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم وكذا وكذا، في أوقات ثلاث عورات. وَمَنْ قَرَأَ (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ)، أراد: هذه الخصال وقت العورات (٢).

٢. **البلاغة: التعبير عن الأوقات بالعورات**، لأنها أوقات راحة واسترخاء فيتخفف فيها الإنسان من ثيابه لذا شرع الاستئذان على الأطفال والخدم، الذين جرت العادة في كثرة دخولهم وخروجهم، كما يفيد التعبير بـ (طوافون عليكم) أي كثرة ترددهم، والتعبير بالاسمية يفيد التوكيد والثبات.

الطرد والعكس: هو أن يُؤْتَى بكلامَيْنِ يُفَرِّزُ كُلٌّ مِنْهُا بمنطوقه مفهوم الثاني منهما. فهو من الإطناب، وفائدته تأكيد منطوق كلٍّ منهما لمفهوم الآخر. جاء في هذه الآية الأمر بالاستئذان في ثلاثة أوقات، وهذا يفيد بمفهومه عدم وجوب الاستئذان في غيرها. وجاء بعد ذلك رَفْعُ الجناح عن الطواف دون استئذان في غير الأوقات الثلاثة، وهذا يفيد بمفهومه وجوب الاستئذان فيها. فكان كلٌّ من القولين مقرراً بمنطوقه مفهوم الثاني منهما، وهو من

(١) الواحدي، أسباب النزول: (ص ٣٢٩).

(٢) معاني القراءات، للأزهري (٢/٢١٢).

التأكيد اللطيف. (١)

جملة التذليل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقرير للحكم، فالله تعالى أعلم بما يصلح عباده، وهو حكيم في شرائعه وأحكامه، وفي التذليل: تربية للنفوس على مراقبة من لا تخفى عليه خافية.
٣. الإعراب: قوله تعالى: ﴿طَوَّفُونَ عَلَيْكُمْ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي هم طوافون عليكم.

التفسير:

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه؛ مُروا عبيدكم وإماءكم، والأطفال الأحرار دون سن الاحتلام أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في أوقات عوراتكم الثلاثة: من قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقتٌ خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم، ووقت الظهيرة، خلع الثياب للقبولة، ومن بعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت للنوم، وهذه الأوقات الثلاثة عورات لكم، يقلُّ فيها التستر، أما فيما سواها فلا حرج إذا دخلوا بغير إذن؛ لحاجتهم في الدخول عليكم، فهم طوافون عليكم للخدمة، ولأن العادة جرت بتردد بعضكم إلى بعض فيها لقضاء المصالح. كما بيّن الله لكم أحكام الاستئذان بيّن لكم آياته وأحكامه وحججه وشرائع دينه. والله عليم بما يُصلح خلقه، حكيمٌ في تديره أمورهم، وإذا بلغ الأطفال منكم سن الاحتلام والتكليف بالأحكام الشرعية، فعليهم أن يستأذنوا إذا أرادوا الدخول في كلّ الأوقات كما يستأذن الكبار، وكما بيّن الله آداب الاستئذان بيّن الله تعالى لكم آياته. والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في تشريعه، والعجائز من النساء اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة لكبرهن، فلا يطمعن في الرجال للزواج، ولا يطمع فيهن الرجال كذلك، فهؤلاء لا حرج عليهن أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء الذي يكون فوق الثياب غير مظهرات ولا متعرضات للزينة، ولبسهن هذه الثياب - ستراً وتعففاً - أحسن لهن. والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأعمالكم.

الهدايات المستنبطة:

١. تعيين الاستئذان في الأوقات الثلاثة؛ لأنها أوقات خلوة الرجال والنساء، وأوقات التعري من الثياب، وهي أوقات نوم.

(١) البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ): (٩١/٢).

٢. ولي الصغير، مخاطب بتعليم من تحت ولايته من الأولاد، العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِزَّزْنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب.
٣. حفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.
٤. وجوب استئذان الأولاد إذا احتلموا، على من يريدون الدخول عليه في بيته؛ لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.

* * *

إباحة الأكل من بيوت معينة دون إذن

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

معاني المفردات:

﴿ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾: البيوت التي وُكِّلتم بحفظها في غيبة أصحابها.

﴿ أَشْتَاتًا ﴾: متفرقين.

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان المسلمون يرغبون في النفي مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمانهم^(١)، ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما أحببتم، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أنهم أذنوا من غير طيب نفس، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الآية^(٢).

(١) الضمانة: الزمانة.

(٢) الهيتمي، كشف الأستار عن زوائد البزار: (٦١/٣)، قال الحافظ الهيتمي في المجمع: (٨٤/٧): ورجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في لباب النقول سنده صحيح.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حُكم دخول المماليك والصبيان إلى البيوت في غير العورات الثلاث دون استئذان، ذكر هنا حكم تخلف أصحاب الأعدار عن الجهاد من غير استئذان، وحكم الأكل من البيوت المذكورة في الآية من غير إذن صريح؛ إذا عُلِمَ رضا أصحابها.

الإعراب والبلاغة

١. قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾: إطناب بتكرار لفظ الحرج؛ تأكيدًا وتقريرًا للحكم شرعًا.
٢. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من فاعل تأكلوا، وأشتاتًا عطف عليه، وهو جمع شتت^(١).
٣. ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: أي: على أهلها الذين هم منكم دينًا وقرابة، جعل أنفس المؤمنين كالنفس الواحدة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]^(٢).
٤. ﴿تَحِيَّةً﴾: منصوب على المصدر من معنى فسلموا، فهو من باب قعدت جلوسًا فكأنه قال: فحيوا تحية^(٣).
٥. تكرار ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾: "لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به"^(٤).

التفسير:

ليس على أصحاب الأعدار من العُميان وذوي العرج والمرضى إثمٌ في ترك الأمور الواجبة التي لا يقدرّون على القيام بها، كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض، وليس على أنفسكم - أيها المؤمنون - حرجٌ في أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكُم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، أو من بيوت آبائكم، أو أمهاتكم، أو إخوانكم، أو أخواتكم،

(١) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٦٤٣/٢).

(٢) نفس المرجع: (٦٤٣/٢).

(٣) نفس المرجع: (٦٤٣/٢).

(٤) نفس المرجع: (٦٤٣/٢).

أو أعمامكم، أو عماتكم، أو أخوالكم، أو خالاتكم، أو من البيوت التي وُكِّلت بحفظها في غيبة أصحابها بإذنه، أو من بيوت الأصدقاء، ولا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، فإذا دخلتم بيوتاً مسكونة أو غير مسكونة فليسلم بعضكم على بعض بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا لم يوجد أحد، وهذه التحية شرعها الله، وهي مباركة تُنمي المودة والمحبة، طيبة محببة للسامع، وبمثل هذا التبيين يبين الله لكم دينه وآياته؛ لتعقلوها، وتعملوا بها.

الهدايا المستتبطة:

١. في هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية، وهي: أن "العرف والعادة مُخصَّصٌ للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ"؛ فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.
٢. وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره؛ لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.
٣. وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته، ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.
٤. وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواءً أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.
٥. لا إثم ولا حرج على أصحاب الأعذار في التخلف عن الجهاد، وهم الأعمى والأعرج والمريض، أي أن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي للتكليف به، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة وأركانها، والجهاد ونحو ذلك.^(١)

(١) يراجع: للسعدي، تيسير الكريم الرحمن: (ص ٥٧٦).

الاستئذان عند الخروج وأدب خطاب النبي ﷺ والتحذير من مخالفة أمره

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: ٦٢-٦٤].

معاني المفردات:

﴿ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾: أمرٌ مهم من مصالح المسلمين جمعوا له.

﴿ دُعَاءَ الرَّسُولِ ﴾: نداءكم له بأن تقولوا: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله!

﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ ﴾: يخرجون خفية بغير إذن، فينسلون قليلاً قليلاً، ليجعلوا ذهابهم في غاية

الخفاء.

﴿ لِوَاذًا ﴾: يستتر بعضهم ببعض في الخروج، يقال: لاذ فلان بكذا إذا استتر به.

﴿ فِتْنَةٌ ﴾: محنة، وشر، وعذاب.

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا

يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾

فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله (١).

المناسبة:

بعد الأمر بالاستئذان عند الدخول، أمر الله تعالى بالاستئذان حين الخروج، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو تشاور في أمر مهم، ثم أمر المؤمنين بتعظيم النبي ﷺ ورعاية الأدب في مخاطبته، وحذرهم من مخالفة أمره وسنته وشريعته.

الإعراب والبلاغة

١. ﴿قد يعلم الله﴾: دخول قد على الفعل المضارع هنا يفيد التحقيق والتكثير.
٢. قوله تعالى: ﴿لوإذا﴾ حال، أي: ملاوذين.
٣. "الضمير في أمره لله؛ لأنه يليه، وقال الجلال المحلي: "أي: الله ورسوله وكلّ صحيح، فإن مخالفة أمر أحدهما مخالفة أمر الآخر" (٢).

التفسير:

إنما المؤمنون حقًا هم الذين صدّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمر جمعهم له في مصلحة المسلمين، لم ينصرف أحد منهم حتى يستأذنه، إن الذين يستأذنونك - أيها النبي - هم الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًا، فإذا استأذنونك لبعض حاجتهم فأذن لمن شئت ممن طلب الإذن في الانصراف لعذر، واطلب لهم المغفرة من الله. إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم. لا تقولوا - أيها المؤمنون - عند ندائكم رسول الله: يا محمد، ولا يا محمد بن عبد الله، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، ولكن شرفوه، وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله. قد يعلم الله المنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ خفية بغير إذنه، يلوذ بعضهم ببعض، فليخذر الذين يخالفون أمر رسول الله أن

(١) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم (٢٦٥٤/٨).

(٢) الشريبي، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: (٢/٦٤٥)، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تفسير الجلالين، ط. دار الحديث - القاهرة، ط. أولى: (ص ٤٦٩).

تنزل بهم محنة وشر، أو يصيبهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة. ألا إن الله ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا، قد أحاط علمه بجميع ما أنتم عليه، ويوم يرجع العباد إليه في الآخرة، يخبرهم بعملهم، ويجازيهم عليه، والله بكلّ شيء عليم، لا تخفى عليه أعمالهم وأحوالهم.

الهدايات المستنبطة:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأن من السنة أن يكون لكلّ اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع.
٢. أوجبت الآية الاستئذان في الأمر الجامع، وهو ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سنّة في الدين، أو لترهيب عدوّ باجتماعهم، وللحروب.
٣. قوله تعالى: ﴿فَأَذِّن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، دليل على التفويض إلى الرسول ﷺ أو الإمام المجتهد بعض أمر الدين؛ ليجتهد فيه برأيه النابع من أصول الشريعة وروح التشريع، والمنسجم مع المبادئ الشرعية.

* * *

أنشطة / ملف الإنجاز

أنشطة

١. ناقشي كيف نربط بين الآيات الكونية الواردة في السُورة وبين الأحكام الواردة فيها؟

ملف الإنجاز

١. اكتبي بحثًا حول بلاغة التذييل في سورة النور.
٢. اكتبي بحثًا عن روائع التشبيهات في سورة النور.
٣. اكتبي بحثًا حول دقائق مسائل الإعراب في السُورة.
٤. اجمعي القراءات الواردة في السُورة مع توجيهها.

مصادر التعلم:

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.
٢. البحر المحيط، لأبي حيان.
٣. روح المعاني، للألوسي.
٤. روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، للصابوني.

التقويم:

س ١- قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِيَ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [النور: ١-٣].

بيني معنى سورة وإعرابها؟ وما نوع الفاء في فاجلدوا؟ ولماذا جاء التعبير بالرافة ولم يقل ولا تأخذكم بهما رحمة؟ وما سر حذف جواب الشرط في الآية الثانية؟ ولماذا خص الإيمان بالله واليوم الآخر؟ وما الحكمة في الإشهاد؟ ولماذا خص المؤمنين؟ وما حكم زواج العفيف للزانية؟ وما سبب نزول الآية الثالثة؟ وما الحكمة من تحريم ذلك الزواج؟ وما حكمة تحريم الزنا؟ وما هي الغاية من إقامة الحد؟

س ٢- قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَفْئِدُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٢-٢٦]:

ما نوع لا في (ولا يأتل)؟ وما سبب نزول هذه الآية؟ وما صلتها بما قبلها؟ وما معنى هذا الوصف (أولو الفضل منكم والسعة)؟ وما معنى الصفح؟ وما معنى (المحصنات الغافلات) ولماذا استحق القاذف هذه العقوبة؟

س ٣- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلخ الآية. بيئي صلة هذه الآيات بما قبلها، وماذا أفاد النداء بصيغة الإيمان؟ وما نوع (لا) وإعراب (بيوتاً)؟ ولماذا جاء التعبير بـ ﴿حتى تستأنسوا﴾، ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾؟ وما المراد بالبيوت غير المسكونة؟ وهل الاستئذان فقط لمن خارج البيت؟ وما هي الحكمة من الاستئذان؟

